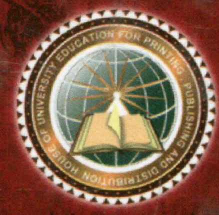
دولة المماليك

البداية والنهاية

تأليف
د/ إيناس حسنى البهجي
كلية الآداب - جامعة الخرطوم - سابقاً



دار التعليم الجامعى
٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع
تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦
٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩
Email:dartalemg@yahoo.com

دولة المماليك
البداية والنهاية

تأليف

أ . د / إيناس حسني البهجي

كلية الآداب – جامعة الخرطوم - سابقا

٢٠١٥



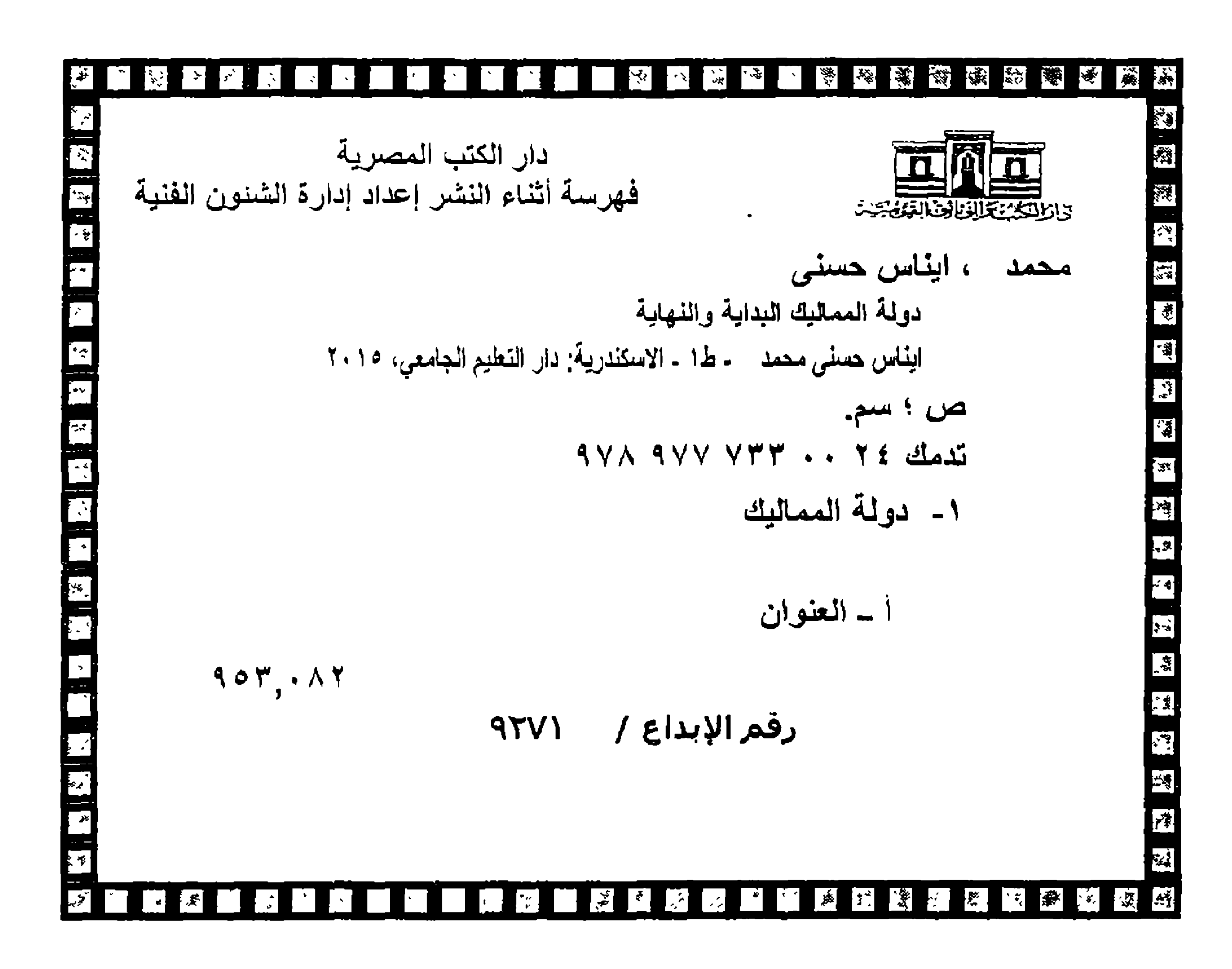
دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل : ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email-dartalemg@yahoo com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

محمد ، ايناس حسنى

دولة المماليك البداية والنهاية

ايناس حسنى محمد - ط1 - الاسكندرية: دار التعليم الجامعي، ٢٠١٥

ص ؛ سم.

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧٣٣ ٠٠ ٢٤

١- دولة المماليك

أ - العنوان

٩٥٣,٠٨٢

رقم الإبداع / ٩٢٧١

الإهداء

إلى أولادي وزوجي الغالي

د/ايناس

المقدمة

تعتبر فترة حكم المماليك من الفترات التاريخية المجهولة عند كثير من المسلمين، بل عند كثير من مثقفي المسلمين، وهذا له أسباب كثيرة منها:

أن الأمة الإسلامية في وقت ظهور دولة المماليك وما بعدها كانت قد تفرقت تفرقاً كبيراً، وكثرت فيها جداً الإمارات والدويلات، وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم جداً، لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية، فالمماليك في أعظم حكمهم لم يسيطروا إلا على خمسة أو ستة أقطار من الأقطار المعروفة في ذلك الوقت، وتزامن ظهورهم مع ظهور أكثر من دويلة وإمارة في أكثر من مكان في العالم الإسلامي، فلدراسة تاريخ المماليك لا بد أن يدرس تاريخ كل هذه المناطق في تلك الحقبة من التاريخ سوياً، وهذا شيء صعب. أيضاً من العوامل والأسباب التي أدت إلى جهل المسلمين بفترة المماليك:

كثرة الولاة والسلاطين في دولة المماليك، فكلما ظهر وال أو سلطان في فترة، وبدأت هذه الفترة تفهم، تغير السلطان وأتى آخر ثم ثالث..

وهكذا. هذه هي حال دولة المماليك الأولى؛ فدولة المماليك مرت بأكثر من مرحلة، ففي المرحلة الأولى كان اسمها دولة المماليك البحرية، وقد ظلت هذه المرحلة (144) سنة، تعاقب على الحكم فيها (29) سلطاناً، يعني: أن متوسط حكم السلطان لم يكن يتعدى الخمس السنوات فقط، وليس كل السلاطين كانت مدة حكمهم خمس سنوات، فهناك سلاطين حكموا سنين طويلة، ولكن هناك سلاطين آخرين حكموا سنة أو سنتين أو أقل من السنة، فكثرة السلاطين والولاة أدت إلى عدم دراية ومعرفة كبيرة بتاريخ المماليك، فكان من الصعب دراسة تاريخ المماليك. وأهم الأسباب التي جعلت الكثير من المسلمين لا يدركون أو لا يفقهون تاريخ المماليك، هو: تزوير التاريخ الإسلامي، وهذا تولى كبره المستشرقون وأتباعهم من المسلمين المفتونين

بهم، فقد شوهوا تاريخ المماليك تشويهاً كبيراً؛ مع ما كان للماليك من الإنجازات المشرقة والهامة جداً في تاريخ الأرض، والتي أضافت الكثير إلى أمة الإسلام، فمن أهم هذه الإنجازات:

أن دولة المماليك وقفت سداً منيعاً لصد قوتين عاتيتين من قوى الشر، حاولتا هدم صرح الإسلام، وهما:

التتار، والصليبيون، فقد كان للمماليك جهاد مستمر طويل ضد هاتين القوتين، وعلى مراحل مختلفة، وقد ظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام في الأرض (270) سنة تماماً، إلى أن تسلمت الخلافة العثمانية القوية راية المسلمين. ومن أجل أن نفهم قصة المماليك سنرجع إلى الوراء قليلاً إلى ما قبل قيام دولة المماليك، وإلى الدولة التي سبقت دولة المماليك، وهي دولة الأيوبيين.

تقسيم الكتاب

فصل تمهيدي

لمحة سريعة عن الدولة الأيوبية

أسس الدولة الأيوبية البطل الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في سنة (569) من الهجرة، وهذه الأرقام في غاية الأهمية، فهي أرقام محورية في تاريخ المسلمين، وظل صلاح الدين الأيوبي يحكم هذه الدولة (20) سنة، حتى مات سنة (589هـ)، ووحد في هذه الفترة مصر والشام، وتزعم الجهاد ضد الممالك الصليبية باقتدار كبير جداً، وحقق انتصارات هائلة، ومن أشهر انتصاراته حطين، وكانت في ربيع الثاني سنة (583) هجرية، وهذا التاريخ من المفروض ألا ينساه أحد من المسلمين أبداً، ثم فتح بيت المقدس بعد حطين بثلاثة أشهر فقط، في رجب من نفس السنة. ترك صلاح الدين الأيوبي رحمه الله دولة قوية عظيمة، تبسط سيطرتها على مصر والشام والحجاز واليمن وأعالي العراق، وأجزاء من تركيا، وأجزاء من ليبيا والنوبة، وكون دولة في منتهى القوة, وحاصر الصليبيين في ساحل ضيق جداً على البحر الأبيض المتوسط في الشام، فصلاح الدين الأيوبي رحمه الله لم يستطع فتح كل الإمارات الصليبية الموجودة في الشام، ولكنه حرر جزءاً كبيراً جداً من الشام ومن فلسطين بقدر ما يستطيع. ثم بوفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تقلص دور الجهاد جداً ضد الصليبيين، فقد فتن أبناء صلاح الدين الأيوبي بالدولة الكبيرة، فقد كثرت الأموال، وانفتحت الدنيا، واتسعت البلاد، وكان من جراء هذه العوامل وغيرها أن حدثت انقسامات شديدة في الدولة الأيوبية، حتى إنها تفككت تماماً بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله. وليس لدينا الوقت الكافي، كي نتكلم عن هذه الصراعات والخلافات التي نشأت بعد صلاح الدين الأيوبي، وإن شاء الله سنتكلم عنها بالتفصيل في مجموعة الحروب الصليبية.

وهذا الصراع ظل (59) سنة متصلة، منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي

في سنة (589) من الهجرة إلى سنة (648) من الهجرة، ولم يكن هذا الصراع صراع كلام وسباب وشقاق فقط، بل كان يصل إلى حد التقاتل بالسيوف وإراقة الدماء المسلمة، وهذا أدى إلى فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وكل هذا كان أمراً متوقعاً وليس غريباً، فليس غريب أن يترك صلاح الدين الأيوبي دولة قوية، ثم تتفكك .

تولي السلطان الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر

لا أستطيع أن أشرح الآن بالتفصيل كل ما حدث في خلال هذه الستين سنة، وسأقفز بكم الآن الخمسين السنة الأولى من الصراع، وأصل بكم إلى السنوات العشر الأخيرة من الدولة الأيوبية، بالتحديد إلى سنة (637) من الهجرة.

ففي هذه السنة تولى عرش مصر السلطان الأيوبي نجم الدين أيوب، الملقب بـالملك الصالح، وهذا الرجل كان أفضل السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وللأسف فإن كثيراً جداً من المسلمين، حتى الذين في مصر التي عاش فيها الملك الصالح لا يعرفون تفصيلات حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، فهذا الرجل كان على خلاف معظم الأمراء الأيوبيين الذين جاءوا في فترته وقبله وبعده، فقد كان رجلاً صالحاً، وكان يعتبر في المنزلة بعد صلاح الدين الأيوبي مباشرة. تولى الملك الصالح أيوب حكم مصر سنة (637) من الهجرة، وكانت هذه الفترة فترة حكم أوكيتاي التتري، في وقت اجتياح العالم الإسلامي وأوروبا.

حروب الأيوبيين في الشام مع الملك نجم الدين أيوب

استعد الأمراء الأيوبيون في الشام للتقاتل مع الملك الصالح أيوب على مصر، وحدثت بينهم مناوشات وحروب، ووصل الأمر إلى مداه في سنة (641) من الهجرة، يعني: بعد أربع سنوات من تولي الملك الصالح حكم مصر توحدت قوى الأيوبيين المتناثرة في الشام، وتحالفت مع الصليبيين من أجل حرب الملك الصالح أيوب في مصر. فلما علم الملك الصالح بإعداد هذا

الجيش الكبير من النصارى ومن الأيوبيين، بدأ يعد جيشاً لملاقاة هذه القوى المتحدة، ووضع على رأس جيشه ركن الدين بيبرس رحمه الله أكفأ قادته، واستعد للمواجهة، ولكن الجيش المصري كان قليلاً وضعيفاً جداً مقارنة بالأعداد الكبيرة لجيوش الشام والصليبيين، فاضطر الملك الصالح للاستعانة بالجنود الخوارزمية، وهم جنود محمد بن خوارزم شاه وجلال الدين بن محمد بن خوارزم.. وغيرهما من الملوك الخوارزمية، الذين تحدثنا عنهم في بداية هذه السلسلة، وهم كانوا قد فروا من منطقة خوارزم بعد الاجتياح التتري لها، وكانوا جنوداً مرتزقة يتعاونون مع من يدفع أكثر، فكانوا يعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال، فاستعان بهم الملك الصالح مقابل أجرة، ودارت موقعة كبيرة في غزة في فلسطين بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وكانت هذه الموقعة في سنة (642) من الهجرة، وانتصر فيها الملك الصالح انتصاراً باهراً، وقتل من الصليبيين أعداداً كبيرة، وصلت إلى ثلاثين ألف مقاتل، وأسر مجموعة كبيرة جداً من أمراء وملوك الصليبيين والأيوبيين، واستغل الصالح أيوب الفرصة واتجه إلى بيت المقدس، بعد أن كان الأيوبيون قد تنازلوا عنه للصليبيين، وأعطوهم إياه هدية، فاقتحم الملك الصالح بيت المقدس وحصون الصليبيين، وحرر مدينة القدس المباركة نهائياً بجيشه المدعم بالخوارزمية سنة (643) من الهجرة، بعد سنة من موقعة غزة، ولم يستطع الجيش الصليبي أن يدخله أبداً لمدة سبعة قرون كاملة، إلى أن دخلته الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى في يوم (16) نوفمبر سنة (1917) من الميلاد، بعد الخيانة المعروفة من مصطفى كمال أتاتورك.

ونسأل الله عز وجل أن يعيد بيت المقدس إلى المسلمين. ثم أكمل الملك الصالح أيوب الطريق بعد ذلك إلى الشمال، ودخل دمشق ووحد من جديد مصر والشام، ثم اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر طبرية وعسقلان..وغيرهما.

انشقاق الجنود الخوارزمية عن جيش الملك نجم الدين أيوب

حدث تطور خطير جداً في جيش الملك الصالح أيوب، فقد انشق عن جيشه فرقة الخوارزمية، فبعد أن حرر بيت المقدس وضم الشام إلى مصر، حدث هذا الانشقاق، بعد أن استمال أحد الأمراء الأيوبيين بالشام هذه الفرقة الخوارزمية، مقابل دفع أكثر للمال، ونحن نعرف أن هذه الفرقة تعمل بالمال فقط، ولم تكتف بالخروج عن الملك الصالح، بل إنها حاربت الملك الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه في هذا اللقاء إلا جيشه الأساسي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه القائد المحنك ركن الدين بيبرس.

وبسبب هذا الحدث ضاعت مكاسب كثيرة جداً كان قد حققها الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، فخرج من هذه الحرب المؤسفة وقد أدرك أنه لا بد أن يعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء لشخصه لا لماله، ويقاتل معه من أجل قضية لا من أجل أموال، فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وهذه الطائفة هي المماليك.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

في سنة (647) من الهجرة مرض الملك الصالح أيوب رحمه الله مرضاً شديداً بمرض السل، وكان قد كبر سنه جداً، مما جعله طريح الفراش في القاهرة، وفي هذه الأثناء وقبلها أراد ملك فرنسا لويس التاسع أن يستغل فرصة الاجتياح التتري لشرق العالم الإسلامي، فيقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام. وذكرنا من قبل أنه حاول الاستعانة بخاقان التتار آنذاك كيوك بن أوكيتاي، ولكن فشلت هذه المحاولة، ومع ذلك أصر لويس التاسع على المضي في حملته. ووقع اختياره على مدينة دمياط المصرية، من أجل أن يبدأ منها الحملة التي يغزو منها مصر والشام، وكانت في ذلك الوقت أهم ميناء في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وهذه الحملة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا تعرف في التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة. وهناك تفصيلات كثيرة جداً مهمة في

هذه الحملة، وسنعرض لها إن شاء الله بالتفصيل عند الحديث عن الحروب الصليبية في سلسلة أخرى.

موقعة المنصورة

لما علم الملك الصالح رحمه الله بسقوط دمياط، اشتد الحزن والمرض عليه، و بدأ يفكر بطريقة عملية، وتوقع أن النصارى الصليبيين سيتجهون إلى القاهرة عبر النيل لغزو العاصمة المصرية نفسها، وبذلك يسقطون الدولة بكاملها، لذلك قرر بحكمة أن يرتب اللقاء في الطريق بين القاهرة ودمياط، فبدأ ينظر إلى خط النيل الذي يمر من دمياط إلى القاهرة، فوجد أن مدينة المنصورة تقع على النيل، وحتماً سيصل إليها الصليبيون، فلذلك قرر أن يتجمع بجيشه في المنصورة، وحمل الملك الصالح بنفسه مع مرضه الشديد إلى المنصورة، وبدأ الجيش المصري ومعظمه من المماليك يستعد هناك لحرب الصليبيين، وعلى رأس الجيش المصري كما ذكرنا قبل ذلك فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس. خرج النصارى من دمياط في (12) شعبان سنة (647) هجرية، متجهين جنوباً إلى القاهرة عبر النيل، كما توقع الملك الصالح أيوب، وقبل أن يصلوا إلى مدينة المنصورة وفي ليلة النصف من شعبان سنة (647) من الهجرة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله في المنصورة، وهو يعد الخطة مع جيوشه لتحصين المنصورة، نسأل الله عز وجل له المغفرة والرحمة وأجر الشهداء.

يقول ابن تغري بردي رحمه الله صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) عن نجم الدين أيوب رحمه الله: ولو لم يكن من محاسن السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد والذب عن المسلمين لكفاه ذلك، ثم يقول: ما أصبره وأغزر مروءته! وكانت هذه المصيبة خطيرة على المسلمين، لا لفقد الزعيم الصالح فقط، ولكن لفقدان البديل، فلم يكن يوجد خليفة للملك الصالح في ذلك الوقت، والبلاد في أزمة

شديدة، فميناء دمياط محتل، وجنود الصليبيين في الطريق، وهنا تصرفت زوجة السلطان نجم الدين أيوب شجرة الدر بحكمة بالغة، -وهي جارية من أصل أرميني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، فهي في الأصل أقرب إلى المماليك، -فكتمت خبر وفاة الملك الصالح، وقالت: إن الأطباء منعوا الزيارة له، وأرسلت رسالة سريعة جداً إلى ابن الملك الصالح أيوب توران شاه وكان يحكم مدينة تعرف بحصن كيفا، وهي الآن في تركيا، وأبلغته بخبر وفاة أبيه وأن عليه أن يأتي بسرعة لاستلام مقاليد الحكم في مصر والشام، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح فخر الدين يوسف على إدارة الأمور إلى أن يأتي توران شاه ويتولى أمور البلاد، ثم كلفت فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركة الفاصلة في المنصورة، وإعداد الخطة المناسبة لحرب الصليبيين، فمشت الأمور بصورة طيبة ومرضية، ولم يحصل اضطراب بعد وفاة الملك الصالح، فوضع فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس خطة في منتهى البراعة لمقابلة الجيش الفرنسي في المنصورة، وعرضوا الخطة على شجرة الدر، ووافقت شجرة الدر على الخطة وبدأ التنفيذ بالفعل. وكانت شجرة الدر في ذلك الوقت تمثل الحاكم الفعلي للبلاد حتى يأتي توران شاه بن الصالح أيوب، وفي يوم (4) ذي القعدة في سنة (647) هجرية -وهذا التاريخ من أعظم تواريخ الإسلام- دارت موقعة المنصورة العظيمة، وانتصر المسلمون فيها انتصاراً باهراً، وفيها تفصيلات في منتهى الروعة، وليس هناك مجال لذكرها الآن. ثم حدث هجوم آخر على جيش الملك لويس التاسع خارج المنصورة في يوم (7) ذي القعدة سنة (647)، وتمكن الملك لويس التاسع من صد ذلك الهجوم بعد كفاح مرير.

معركة فار سكور وأسر لويس التاسع وسقوط جيشه وهزيمتهم

وصل توران شاه بن الصالح أيوب إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في يوم (17) ذي القعدة سنة (647) من الهجرة، وتسلم

السلطان الشاب مقاليد الحكم، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولاية توران شاه لحكم مصر والشام، ثم بدأ توران شاه في التخطيط لهجوم جديد على الصليبيين، وكانت حالة الجيش الصليبي قد ساءت جداً بعد انتصار المنصورة الرهيب، وتراجع ناحية دمياط، فتبعه الجيش المسلم بسرعة، وبدأ يخطط لحرب جديدة، وبالفعل التقى الجيش المصري مرة أخرى مع الجيش الصليبي عند مدينة فارسكور بالقرب من دمياط، وكان هذا اللقاء في أوائل محرم سنة (648) من الهجرة بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة، وقاد هذه الموقعة توران شاه الملك الجديد، وكان الذي يتحكم في كل مجريات الأمور في الحرب هم فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس قادة الجيش المصري في ذلك الوقت. وفي موقعة فارسكور أُسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا، ووقع جيشه بالكامل ما بين قتيل وأسير، وموقعة فارسكور من أعظم مواقع الإسلام، وحمل الملك لويس التاسع مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، وحبس في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان المشهور، ووضعت عليه شروط قاسية جداً ليفتدي نفسه من الأسر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب، يدفع نصفها حالاً والباقي مستقبلاً، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن يتم دفع بقية الفدية، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

فقد كانت هذه الموقعة انتصاراً باهراً بكل المقاييس، وجمع النصارى في فرنسا وفي غيرها نصف الفدية بصعوبة، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع إلى عكا، وكانت إمارة صليبية في ذلك الوقت، نسأل الله عز وجل أن يحررها من دنس اليهود الآن.

سقوط دمياط في يد الصليبيين

نزل لويس التاسع بجيشه إلى دمياط في يوم (20) صفر سنة (647) من الهجرة، وظنت الحامية التي تدافع عن مدينة دمياط أن السلطان

المريض الملك الصالح أيوب قد مات، فانسحبوا انسحاباً غير مبرر، ووقعت دمياط بسهولة شديدة جداً في أيدي الصليبيين، وهي المدينة التي دوخت قبل ذلك الحملة الصليبية الخامسة.

صفات توران شاه في الحكم وقصة مقتله

مع هذا الانتصار المبهر للمسلمين على الصليبيين إلا أن توران شاه لم يكن يناسب تلك الأحداث الساخنة التي تمر بالأمة الإسلامية، فتوران شاه كان شخصية عابسة متصفاً بسوء الخلق، والجهل بشئون السياسة والحكم، وقد ركبه الغرور بعد النصر على لويس التاسع ملك فرنسا عن رؤية أفضال ومزايا من حوله، فبدأ يتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر، واتهمها بإخفاء أموال أبيه، وطالبها بهذا المال، بل وهددها بشدة، حتى دخلها خوف كبير منه، ولم يحفظ لها جميل حفظ الملك له بعد موت أبيه، فقد بعثت له من أجل أن يأتي ويستلم مقاليد الحكم في مصر، مع أن الوضع كان في اضطراب شديد جداً، فجاء إلى مصر ووجد الجيش منتصراً بالفعل، ومع ذلك بدأ يتنكر لها، ولكبار أمراء المماليك أمراء الجيش، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس، فلم يحفظ للمماليك جميل الانتصار الرائع الذي حققوه بالمنصورة، ثم في فارسكور، فبدأ يقلل من شأنهم، ويقلص من مسئولياتهم، وبدأ على الجانب الآخر يعظم من شأن الرجال الذين جاءوا معه من حصن كيفا التركي، وبدأ واضحاً للجميع أنه سيقوم بعمليات تغيير واسعة النطاق في السلطة في مصر، وبالذات في الجيش المصري، وكان كل هذا في غضون الثلاثة الأشهر الأولى له في مصر، وبعد موقعة فارسكور مباشرة، فخافت شجرة الدر على نفسها، وأسرت بذلك إلى المماليك البحرية، وبالذات فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس، وقد كان المماليك البحرية يكنون لشجرة الدر كل الاحترام والولاء؛ لأنها زوجة الأستاذ الملك الصالح رحمه الله، وعلاقة الأستاذية هذه كانت أقوى من علاقة الأب بابنه أحياناً، وكانت تبقى آثار هذه العلاقة حتى بعد موت السيد الذي اشتراهم أو

الملك الذي رباهم، ولما ذكرت شجرة الدر هذه الوساوس إلى المماليك البحرية، وجدت عندهم نفس الوساوس، فقد خافوا من توران شاه، وتوقعوا أن يقصيهم توران شاه عن الحكم والسلطة، بل وقد يتعرض لهم بالقتل، فأجمعوا على سرعة التخلص من توران شاه وقتله. والمماليك بصفة عامة، كان عندهم تساهل كبير جداً في الدماء، كانوا يقتلون بالشك، فإذا شكوا في أحد أنه ينوي أن يغدر، فإن ذلك يعتبر عندهم مبرراً كافياً للقتل، وكان هذا التساهل في الدماء عاماً في حياة المماليك، وفي كل فترات دولتهم تقريباً، وكم من أمرائهم وخصومهم بل ومن عظمائهم من قُتل بسبب الشك في نواياه، وقد يكون هذا راجعاً إلى التربية العسكرية الجافة التي نشأ عليها المماليك، فقد كانت فيهم قسوة نفسية وشدة وعدم تمييز للأمور، وكانوا يحبون حسم كل الأمور بالسيف الذي يحملونه منذ نعومة أظفارهم، والشيء الذي لا يفهم هو أن هؤلاء المماليك كانوا ينشئون على التربية الدينية والفقهية، ولا أدري أي سند فقهي يعضد قتل رجل ما، حتى ولو غلب على الظن أنه سيقوم بعزل أو احتمال قتل. المهم أنهم في هذا الزمن المليء بالمؤامرات والتدبيرات الخفية، لم يكن يستهجن عندهم مطلقاً أمر ذلك القتل، بل إن القاتل أحياناً يفخر أمام الناس بقتله للمقتول، بل وقد يصعد إلى كرسي الحكم وهو مرفوع الرأس لا يشعر بأي تأنيب ضمير، وكأن الدماء التي تسيل هذه ليس لها وزن عند الله سبحانه وتعالى ولا عند الناس. وهذا ليس دفاعاً عن توران شاه أو غيره، فقد يكون القتيل شخصية عابسة وسيئة وكريهة، ولكن العقوبات في الإسلام لها مقاييس معينة ومقادير خاصة جداً، وهذه المقاييس لم نحددها نحن، بل حددها رب السماوات والأرض، فالسارق وإن كان مجرماً سيئاً كريهاً، إلا أنه لا يقتل لمجرد السرقة، بل تقطع يده، والزاني غير المحصن وإن كان قد قام بعمل شنيع مشين، إلا أنه يجلد ولا يرجم..

. . . .

وهكذا، وليست وساوس المماليك أو غيرهم مبرراً شـــرعياً كافيــاً للقتل، بل قد تكون مبرراً شرعياً للعزل أو الاعتراض أو الحبس..

أو ما إلى ذلك، لكن الوصول إلى حد القتل أمــر كبيــر جــداً. إذاً: اتفقت شجرة الدر مع فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل توران شاه، وتمت الجريمة فـي (27) محرم سنة (648) هجرية بعد سبعين يوماً فقط من قدومه من حصن كيفــا في تركيا واعتلائه عرش مصر، وكأنه لم يقطع كل هذه المـسافات لكـي يحكم، بل لكي يدفن. وبمقتل توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي رحمه الله انتهى حكم الأيوبيين تماماً من مصر، وبذلك أغلقت صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي.

الباب الأول
البدايات
المماليك وحكم مصر

لقد حدث فراغ سياسي كبير جداً بقتل توران شاه، فليس هناك أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، ومن ناحية أخرى فإن الأيوبيين في الشام مازالوا يطمعون في مصر، والشام ومصر كانتا دولة واحدة في زمن الملك الصالح أيوب رحمه الله، فقد وحد الدولتين بعد حربه مع الأيوبيين والصليبيين في الشام، والآن سيحاول الأيوبيون في الشام ضم مصر إلى الشام لصالحهم، ولا شك أنه قد داخل الأيوبيين في الشام حنق كبير على المماليك؛ لأنهم تجرءوا وقتلوا أيوبياً، وكان المماليك يعلمون أن الأيوبيين سيحرصون على أخذ الثأر منهم، لكنهم كانوا يدركون أن قيمتهم في الجيش المصري كبيرة جداً، وهم يعرفون أن المماليك هم القوة الفعلية في مصر، وأنهم قد ظُلموا بعد موقعة المنصورة وفارسكور؛ فقد كانوا السبب الرئيسي في الانتصار، ومع ذلك همش دورهم، كل هذه الخلفيات جعلت المماليك ولأول مرة في تاريخ مصر يفكرون في أن يمسكوا هم بمقاليد الأمور مباشرة، فهم القادرون على أن يغلبوا، فلماذا لا يكون الحكم لهم؟ ولأول مرة طرح هذا السؤال على أذهان المماليك، وقد استخدموا في مصر من أيام الطولونيين، يعني من سنة (254) من الهجرة، ثم بعدها استخدموا أيضاً في أيام الدولة الإخشيدية، ثم في أيام الدولة الفاطمية، ثم في أيام الدولة الأيوبية، وفي كل هذه الفترات كان الجيش يعتمد تقريباً اعتماداً كاملاً على المماليك، ومع ذلك لم يفكروا مطلقاً في حكم ولا سياسة، فقد كانوا دائماً أعوان الملوك، وما كانت تخطر على أذهانهم فكرة الملك أبداً؛ لكونهم من المماليك الذين يباعون ويشترون، فلم تكن لهم عائلات معروفة أصلاً ينتمون إليها، وهذا يشعرهم بالغربة في البلاد الجديدة التي يعيشون فيها، والخطر لم يكن

يمسهم ألبتة، وإنما كان دائماً يمس السلطة، وهم تبع للسلطة الجديدة، وينتقلون من سيد إلى آخر..

وهكذا. وأما الآن فالمؤامرات ستدبر لهم مباشرة، والدائرة ستدور عليهم هم، والملوك ضعفاء، والقوة كلها بيدهم، فلماذا لا يجربون حظهم في الحكم، ولكن صعودهم مباشرة إلى الحكم سيكون مستهجناً جداً في مصر، فالناس لا تنسى أن المماليك في الأساس عبيد يباعون ويشترون، وحتى لو أعتقوا، فتقبل الناس لحكمهم سيكون أمراً صعباً، وحتى لو كثرت الأموال في أيدي المماليك، وتعددت الكفاءات، وحكموا الأقاليم والإقطاعات فهم في النهاية مماليك، وصعودهم إلى الحكم يحتاج إلى حجة مقنعة للشعب الذي لم يألفهم أبداً إلا في كنف السلاطين. كل هذا دفع المماليك البحرية الصالحية إلى أن يرغبوا بعد مقتل توران شاه في فترة انتقالية تمهد الطريق لحكم المماليك، وفي ذات الوقت لا تقلب عليهم الأمور في مصر أو في العالم الإسلامي، فهم يريدون الحكم بعد توران شاه، ولكنهم يريدون فترة انتقالية، بحيث يستوعب الناس جلوسهم على الكرسي بعد ذلك. إذاً كانت هذه هي حسابات المماليك الصالحية البحرية، فهم يريدون أن يحكموا؛ لأنهم هم أصحاب القوة الحقيقية، ويخافون على أنفسهم من أن يقصوا من الحكم بسبب أنهم من المماليك، وهذه مشكلة لا يستطيعون حلها.

شجرة الدر وحكم مصر

كانت شجرة الدر امرأة ذات طابع خاص جداً، لا تتكرر كثيراً في التاريخ، فهي امرأة قوية جداً، وشجاعة وجريئة ولها عقل مدبر، وتتمتع بحكمة شديدة، ولها القدرة على القيادة والإدارة، وكانت شجرة الدر تعرف كل هذه الأشياء عن نفسها، فقد كانت شديدة الإعجاب بإمكانياتها وبنفسها، وهذا كله دفعها إلى تفكير جديد تماماً على الفكر الإسلامي وبالذات في هذه الفترة من تاريخ الأمة، ففكرت في الصعود إلى كرسي الحكم في مصر، وهذا أمر هائل فعلاً، وسباحة عنيفة جداً ضد التيار، ولكن شجرة الدر

وجدت في نفسها الملكة التي تسمح لها بتطبيق هذه الفكرة الجريئة، وقالت لنفسها إنني حكمت البلاد سراً أيام المنصورة، فلماذا لا أحكمها الآن جهراً؟ ولما تباحثت شجرة الدر مع المماليك البحرية في أمر البلاد بعد مقتل توران شاه وجد المماليك فيها الفترة الانتقالية التي يريدون، فهي زوجة الأستاذ الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، والجميع يكن له كامل الحب والاحترام والوفاء، سواء من المماليك أو من الشعب المصري نفسه، فالشعب المصري كان يحب الملك الصالح جداً، وهي في نفس الوقت تعتبر من المماليك، وإن كانت أعتقت إلا أنها كانت مملوكة قبل ذلك، كما أنها في النهاية امرأة ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، ويوفروا الأمان لأرواحهم، يعني أنهم سيضعون شجرة الدر في الصورة بأنها حاكمة مصر، والشعب في اعتقاد المماليك سيسكت؛ لأنها زوجة الملك الحبيب لهم الملك الصالح رحمه الله الذي مات منذ أشهر قليلة، وفي نفس الوقت يستطيعون أن يسيطروا على الحكم من خلال هذه المرأة التي مهما كانت قدرتها فستظل امرأة ضعيفة، وبالتالي يستطيعون الصعود بعد ذلك إلى الحكم صراحة، فما دام أنه قد صعد إلى الحكم امرأة مملوكية، فسيستطيع أن يصعد بعد ذلك رجل مملوك.

تولي شجرة الدر لحكم مصر

توافقت رغبة المماليك مع رغبة شجرة الدر، وقرروا جميعاً إعلان شجرة الدر حاكمة لمصر بعد مقتل توران شاه بأيام في أوائل صفر سنة (648) هجرية، فقامت الدنيا ولم تقعد، وتفجرت ثورات الغضب في كل مكان في مصر، وعم الرفض لهذه الفكرة في أطراف العالم الإسلامي، وخرجت المظاهرات بكثرة في شوارع مصر، في وقت كانت المظاهرات مسموحة، وحاولت شجرة الدر أن تتدارك الموقف قدر المستطاع، فنسبت نفسها إلى زوجها المحبوب عند الشعب الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقالت عن نفسها إنها ملكة المسلمين الصالحية؛ لتذكر الناس أنها تبع الملك

الصالح، ولكن هذا الكلام لم يكف ولم يوقف الشعب عن المظاهرات، فنسبت نفسها إلى ابنها الصغير ابن الصالح أيوب، فقد كان عندها طفل صغير اسمه الخليل، فلقبت نفسها ملكة المسلمين الصالحية، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين، وكأنها تقول: إنها فترة انتقالية حتى يأتي أمير المؤمنين خليل بن الملك الصالح الذي تحبونه، ومع ذلك فإن هذا أيضاً لم يوقف المظاهرات، فأضافت نفسها إضافة ثلاثة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي كان يحكم في ذلك الوقت، و الذي سقطت بغداد في عهده، فسمت نفسها ملكة المسلمين المستعصمية -نسبة إلى المستعصم -الصالحية- نسبة إلى الصالح أيوب -والدة السلطان خليل أمير المؤمنين، ومع كل هذه المحاولات للتزلف إلى العامة والعلماء ليقبلوا الفكرة، إلا أن الغضب لم يتوقف، وظهر على كافة المستويات، وبدأ واضحاً للجميع أن البلاد ستدخل في أزمة خطيرة، وأن الوضع في منتهى الحرج، والحملات الصليبية الشرسة لا تتوقف، والإمارات الصليبية منتشرة في فلسطين، وأمراء الشام الأيوبيون يطمعون في مصر، والصراع كان محتدماً جداً بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين وبين الملك الصالح نفسه، فما بالكم بالوضع الآن؟ ثم إن هناك الهم الكبير الذي يطرق أبواب المسلمين بعنف وهو التتار، والتتار في ذلك الوقت في سنة (648) من الهجرة كانوا على أبواب بغداد في أذربيجان وفارس، ويخططون من أجل إسقاط بغداد، وكان إعداد هولاكو لغزو العراق في بداياته في هذه المرحلة. استمرت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في مصر في كل أنحائها، وشرع المتظاهرون في الخروج بمظاهراتهم إلى خارج حدود المدينة، وبدأ الموقف يتأزم بشدة، وقام العلماء والخطباء ينددون بذلك الأمر على منابرهم وفي دروسهم، وكانت الدروس مسموحاً بها في ذلك الوقت، وكان أشد العلماء غضباً في ذلك الوقت الإمام الجليل العز بن عبد السلام رحمه الله، أبرز العلماء في ذلك الوقت، وأظهر الأمراء الأيوبيون في الشام حنقهم الشديد واعتراضهم المغلظ على صعود النساء إلى

كرسي الحكم في مصر، وجاء رد الخليفة العباسي المستعصم بالله قاسياً وشديداً جداً، بل وساخراً جداً من الشعب المصري كله، فقد قال لهم في رسالته إليهم: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.

زواج شجرة الدر من عز الدين أيبك الصالحي وتوليه لحكم مصر

لم تتوقف الاعتراضات على الملكة الجديدة، ولم تنعم بيوم واحد فيه راحة، وخافت الملكة الطموحة على نفسها، وبالذات في هذه الأيام، وكان التغيير في هذه الأيام بالسيف بالذبح لا بالخلع أبداً، ومن هنا قررت الملكة شجرة الدر بسرعة أن تتنازل عن الحكم لرجل تحكم البلاد من خلاله، فحب السلطان يجري في دمها ولا تستطيع أن تتركه، فهي تشعر بإمكانياتها العقلية والإدارية والقيادية، وهي إمكانيات هائلة فعلاً، ففكرت بأن تمسك بالعصا من نصفها كما يقولون، فتحكم باطناً وتتنحى ظاهراً، ففكرت في لعبة سياسية خطيرة، وهي أن تتزوج أحد الرجال، ثم تتنازل له عن الحكم؛ ليكون هو في الصورة، ثم تحكم هي البلاد بعد ذلك من خلاله أو من خلف الستار، كما يحدث كثيراً في أوساط السياسة، فكم من الحكام يحكمون وليس لهم من الحكم إلا الاسم، وكم من السلاطين ليس لهم من السلطة نصيب، وما أكثر الرجال الذين سيقبلون بهذا الوضع نظير أن يبقى أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم الوثير، وكرسي الحكم مريح جداً، والذي يجلس فيه لا يحب أن يقوم منه. وشجرة الدر لا تريد أن تتزوج رجلاً حقيقة، وإنما تريد فقط صورة رجل؛ لأنه لو كان قوياً لحكم هو ولتمسك بمقاليد الأمور في البلاد، فهي تريد رجلاً ضعيفاً، وليس من عائلة قوية أصيلة، حتى لا تؤثر عليه عائلته، فيخرج الحكم من يد الملكة الطموحة، ويا حبذا لو كان هذا الرجل السعيد الحظ من المماليك! حتى تضمن بذلك ولاءهم، وهذا أمر في غاية الأهمية، ولو كان هذا الرجل هو السند الشرعي للحكم، فالمماليك هم السند الفعلي والعسكري والواقعي للحكم. فوضعت شجرة الدر كل هذه الحسابات

في ذهنها، ثم اختارت رجلاً من المماليك اشتهر بينهم بالعزوف عن الصراع، والبعد عن الخلافات والهدوء النسبي، وكانت هذه الصفات حميدة في نظر شجرة الدر، فوجدت في هذا الرجل ضالتها، وهذا الرجل هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، يعني: من المماليك الصالحية البحرية، من مماليك زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم تختر رجلاً من المماليك الأقوياء أمثال فارس الدين أقطاي أو ركن الدين بيبرس.. أو غيرهما؛ وذلك لتتمكن من الحكم بلا منازع، وبالفعل تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم رسمياً، وذلك بعد أن حكمت البلاد (80) يوماً فقط، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الآخرة من سنة (648) من الهجرة. وفي غضون سنة واحدة جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك، الملك الصالح أيوب رحمه الله، ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي , فقد كانت سنة فتن وانقلابات ومؤامرات ومكائد، وتلقب عز الدين أيبك بـالملك المعز، وأخذت له البيعة في مصر. وكأن هذه الأحداث قد تمت بكاملها كنوع من التمهيد؛ لقبول فكرة صعود المماليك إلى كرسي الحكم في مصر، فقد قبل الشعب المصري بالوضع الجديد، فهو وإن لم يكن مثالياً في رأيهم، إلا أنه أفضل حالاً من تولي امرأة، و عز الدين أيبك كان مملوكاً، ولكنه أعتق، ومع ذلك فقد كان يعتبر مملوكاً، لكن أفضل من المرأة، كما أن البديل من الأيوبيين في مصر غير موجود، و كذلك غير موجود في الشام، ونحن رأينا أمراء الأيوبيين في الشام في منتهى الضعف، فقد كانوا على شاكلة الناصر يوسف الأيوبي و الأشرف الأيوبي والملك السعيد حسن بن عبد العزيز.. وغيرهم، ولم يكن فيهم ضعف فقط، بل ضعف وسوء خلق وعمالة وخيانة وما إلى ذلك، فالشعب المصري في ذلك الوقت قبل بالملك المعز عز الدين أيبك التركماني , وبدأت الأمور تهدأ في مصر.

هروب قادة المماليك البحرية إلى الشام

اكتسب الملك المعز الخبرة اللازمة، وزادت قوة مماليكه المعزية، واستقرت الأوضاع في البلاد، فرضي عنه شعبه، واعترف له الخليفة العباسي بالسيادة على مصر، وكانت هذه الخطوة كبيرة جداً في تثبت أركان الحكم في مصر للملك المعز عز الدين أيبك، وبقتل فارس الدين أقطاي انقسم المماليك إلى فريقين كبيرين متنافرين في مصر: المماليك البحرية الذين يدينون بالولاء لشجرة الدر ولركن الدين بيبرس، والفريق الثاني المماليك المعزية الذين يدينون بالولاء للملك المعز عز الدين أيبك. وهنا فكر المماليك البحرية وقالوا: إذا كان فارس الدين أقطاي الذي هو أكبر المماليك البحرية قدراً وأعظمهم هيبة قد قتل، فما بالك بالذين من بعده؟ فبات المماليك البحرية في توجس وريبة، وما استطاعت الزعيمة شجرة الدر أن تفعل لهم شيئاً، فقرر زعماء المماليك البحرية الهروب إلى الشام؛ خوفاً من الملك المعز عز الدين أيبك , وكان على رأس الهاربين ركن الدين بيبرس، فذهب معظم زعماء المماليك البحرية أو كلهم إلى الشام، وبذلك صفا الجو تماماً في مصر للملك المعز عز الدين أيبك , وأصبح هو الزعيم لمدة ثلاث سنوات متصلة دون معارضة، من سنة (652) عندما قتل فارس الدين أقطاي وإلى سنة (655)، وأصبح قائد الجيش في ذلك الوقت هو سيف الدين قطز رحمه الله، واختفى تقريباً دور الزوجة الملكة القديمة شجرة الدر.

وكل هذه الأحداث جعلتها تغلي من الحقد على الملك المعز عز الدين أيبك.

مقتل الملك المعز وشجرة الدر

في سنة (655هـ) وبعد مرور سبع سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك أراد هذا الملك أن يثبت أقدامه بصورة أكبر في المنطقة، فأراد أن يعمل حلفاً، ولكنه خشي عليه المؤامرات والمكائد والخيانة التي كثرت في هذا الزمن، فأراد أن يوثقه برباط غليظ لا يفصم بسهولة،

وهو الزواج، فأحب أن يتزوج من بنت أو أخت ملك من ملوك المنطقة، ويوحد جيشه مع جيش هذا الملك حتى تصبح لهما السيطرة على المنقطة بأكملها، فاختار بنت حاكم الموصل الأمير الخائن الذي تكلمنا عليه كثيراً قبل ذلك بدر الدين لؤلؤ، فعرفت شجرة الدر بهذا الأمر فاشتعلت الغيرة في قلبها، فركبها الهم والغم، وعلمت أنه لو تم هذا الزواج الجديد فستطوى شجرة الدر تماماً من التاريخ، وأعمتها الكراهية عن حسن تقدير الأمور، ونسيت الحكمة التي تميزت بها، ولم تقدر أن زعماء المماليك البحرية قد هربوا إلى الشام، وأن القوة الحقيقية الآن في أيدي المماليك المعزية، الذين يدينون بالولاء والطاعة للملك المعز عز الدين أيبك، فلم تقدر كل ذلك، وقررت بعاطفة المرأة أن تقدم على خطوة غير مدروسة،وهي قتل الزوج الملك المعز عز الدين أيبك، وليكن ما يكون، وبالفعل دبرت مؤامرة لئيمة لقتل زوجها الملك، وتم تنفيذ المؤامرة فعلاً في شهر ربيع الأول سنة (655) من الهجرة، وانتهى بذلك حكم الملك المعز عز الدين أيبك بعد سبع سنوات من جلوسه على عرش مصر، وبهذا تكون شجرة الدر قتلت اثنين من سلاطين مصر: توران شاه من قبل، وعز الدين أيبك، وعلم الجميع بجريمة القتل، فأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش والذارع اليمنى للملك المعز عز الدين أيبك ومعه ابن عز الدين أيبك من زوجته الأولى نور الدين علي وكان عمره (15) سنة، أسرعا ومعهما فرقة من المماليك المعزية وألقيا القبض على شجرة الدر، وطلبت أم نور الدين علي وزوجة الملك المعز عز الدين أيبك الأولى أن يترك لها الأمر في التصرف مع ضرتها شجرة الدر، وكانت النهاية المأساوية المشهورة أن أمرت أم نور الدين جواريها أن يقتلن الملكة السابقة ضرباً بالقباقيب، ولعل هذا هو حادث القتل الوحيد في القصة الذي له خلفية شرعية مقبولة، فـشجرة الدر قتلت عز الدين أيبك دون مبرر معقول، فليس الزواج من امرأة أخرى جريمة، وليس الانفراد بالحكم دون الانصياع لحكم الزوجة جريمة، ولذلك لم يكن لديها مسوغ شرعي للقتل، فكان لابد أن تقتل، ولكن من المؤكد أن الطريقة التي قتلت بها لم تكن طريقة شرعية أبداً،

بل كانت طريقة نسائية بحتة، لم يقصد منها القصاص فقط، بل قصد منها الإهانة والتحقير والذل، مثل ما فعل بـــالمستعصم بعد ذلك عند سقوط بغداد، عندما قتل رفساً بالأقدام، وهذه نهايات خاصة جداً يكتبها الله عز وجل لبعض الملوك، ممن لم يرع لله عز وجل حقاً، ولم يرع للشعب حقاً.

قتل الملك المعز لفارس الدين أقطاي

في سنة (652) من الهجرة بعد أربع سنوات من تولي الملك المعز عز الدين أيبك للحكم في مصر فكر أقطاي الذي كان كبير قواد الجيش المصري بالتزوج من إحدى الأميرات الأيوبيات، وكان الملك المعز عز الدين أيبك يراقب الموقف، وأدرك فوراً أن أقطاي يحاول أن يضفي على نفسه صورة جميلة أمام الشعب، وأن يجعل له انتماء واضحاً للأسرة الأيوبية التي حكمت مصر قرابة الثمانين سنة، وإذا كانت شجرة الدر حكمت مصر لكونها زوجة الصالح أيوب، فلماذا لا يحكم أقطاي مصر؛ لكونه زوجاً لأميرة أيوبية، فضلاً عن قوته وبأسه وتاريخه، وهو الذي قاد الجيش المصري في موقعة المنصورة، وله ذكريات وأمجاد كبيرة في مصر، فشعر الملك المعز عز الدين أيبك بالخطر الشديد، وأن هذه بوادر للانقلاب عليه، والانقلاب عادة ما يكون بالسيف، فاعتبر أن ما فعله أقطاي سابقاً من إهانة واحتقار، وما يفعله الآن من زواج بالأميرة الأيوبية ما هو إلا مؤامرة لتنحية أيبك عن الحكم، ومن ثم أصدر أيبك أوامره بقتل زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي ؛ لأنه ينوي الانقلاب، فتم قتل فارس الدين أقطاي بأوامر الملك المعز وذلك في (3) شعبان سنة (652) من الهجرة، وبقتل فارس الدين أقطاي خلت الساحة لــعز الدين أيبك , وبدأ يظهر قوته بوضوح ويبرز كلمته، وبدأ دور الزوجة شجرة الدر يقل ويضمحل.

نشأة المماليك المعزية وتعكر العلاقة بين الملك المعز والمماليك الصالحية

بدأت شجرة الدر تحكم من وراء الستار، وهي مؤيدة بالمماليك الأقوياء، وبالذات فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس، ولكن يبدو أن

ذكاء شجرة الدر قد خانها عند اختيار ذلك الرجل الملك عز الدين أيبك، فهذا الرجل لم يكن بالضعف الذي تخيلته شجرة الدر، بل بالعكس، فقد كان في منتهى الذكاء، وقد عرف خطورة إخوانه من المماليك البحرية، وخطورة شجرة الدر، فبدأ يرتب أوراقه في حذر شديد، فلم يصطدم بـــشجرة الدر أو زعماء المماليك البحرية في أول أمره، بل بدأ يعد العدة في تدرج، وبدأ يشتري مماليك خاصة به، ويعدهم كقوة مملوكية عسكرية تدين له شخصياً بالولاء، وانتقى من مماليك مصر من يصلح لهذه المهمة، وكون ما يعرف في التاريخ بالمماليك المعزية نسبة إليه، ووضع على رأس هذه المجموعة أبرز رجاله وأقوى فرسانه وأعظم أمرائه مطلقاً، وهو سيف الدين قطز رحمه الله، وهذا أول ظهور تاريخي للبطل الإسلامي الشهير سيف الدين قطز، فقد كان يشغل مركز قائد مجموعة المماليك الخاصة بالملك المعز عز الدين أيبك.

وإن شاء الله في الدرس الآتي سوف نتعرف على أصل سيف الدين قطز وكيف وصل إلى هذه المكانة.

ومع أن الملك المعز عز الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية، إلا أن المماليك البحرية بدءوا يغارون منه بشدة، وبدأت تظهر عوامل كبيرة جداً من الحسد بين الطائفتين، فـــالملك المعز لم يكن له أي قيمة في المماليك البحرية، ومع ذلك وصل إلى كرسي الحكم في مصر، وهناك من المماليك من كانت له القوة والباع والتاريخ، ولم يصل إلى ما وصل إليه، فهذا يلقب بـــالملك المعز عز الدين أيبك، وهؤلاء يلقبون بالمماليك، وشتان! فظهرت عوامل الغيرة والحسد من المماليك، وبالذات من فارس الدين أقطاي، وكما يقول المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك): لقد بالغ فارس الدين أقطاي في احتقار أيبك والاستهانة به، فكان يناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب، ويقول له: يا أيبك ! فهذه المعاملة من أقطاي جعلت عز الدين أيبك يحس من داخله أن المماليك البحرية، وقد يكون الشعب من ورائهم ينظرون إليه على أنه مجرد زوج للملكة المتحكمة في الدولة، مما جعله

جدياً يفكر في التخلص من زعماء المماليك البحرية، ومع ذلك لم يتسرع. مرت بعض الشهور والسنوات وحدث لقاءان كبيران بين الجيش المصري والجيش الشامي، فقد حاول الجيش الشامي أن يغزو مصر أكثر من مرة، وقد انتصر الملك المعز مرتين انتصاراً باهراً على الشاميين، بل وضم فلسطين مرة أخرى إلى مصر، وكانت الشام قد انفصلت عن مصر بعد وفاة الملك الصالح رحمه الله. ثم بدأ يعيد من جديد تكوين الدولة التي تركها الملك الصالح أيوب رحمه الله، وهذا العمل رفع من قيمته جداً عند الشعب المصري.

ولاية نور الدين علي بن الملك المعز

بعد مقتل الملك المعز عز الدين أيبك، ومقتل شجرة الدر بويع لـــنور الدين علي بن عز الدين أيبك، وكان عمره (15) سنة، وهذه تعتبر مخالفة كبيرة ولا شك، ولكن لعله قد وضع في هذا التوقيت لكي يوقف النزاع المتوقع بين زعماء المماليك على الحكم، وتلقب السلطان الجديد بلقب المنصور. وتولى الوصاية عليه أقوى الرجال في مصر في ذلك الوقت، وهو سيف الدين قطز رحمه الله قائد الجيش وزعيم المماليك المعزية، وأكثر الناس ولاء للملك السابق المعز عز الدين أيبك. وكانت هذه البيعة لهذا السلطان الطفل في سنة (655) من الهجرة، وأصبح الحاكم الفعلي لمصر من وراء الستار هو سيف الدين قطز رحمه الله. فمن هو سيف الدين قطز؟ وكيف سيكون الوضع في مصر في سنة (655) وما بعدها؟ وتذكروا أن بغداد قد سقطت في سنة (656) من الهجرة، واجتيحت الشام بعد ذلك كما ذكرنا في الدرس السابق. فكيف سيكون رد فعل سيف الدين قطز؟ وكيف سيعد الجيش المصري والشعب المصري لملاقاة التتار؟

الباب الأول
الفصل الثاني
قيام دولة المماليك
المبحث الأول:
أصول المماليك ونشأتهم:

أولاً: من هم المماليك؟

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم، ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى: ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل[1]، وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك[2]، وفي العصر، تزايد إستخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة وإستخدامهم في الجيش[3]، وتوسعت أسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق ,آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم الشراكسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً[4]، وكان الخليفة المعتصم العباسي (218 ـ227هـ/ 833 ـ 842م) أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من

---

[1] تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية نقلاً عن بيت المقدس د. النقر صـ47.

[2] تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي للدكتور النقر صـ47.

[3] تاريخ المغول والمماليك صـ61 ـ 62، تاريخ بيت المقدس صـ47.

[4] المصدر نفسه صـ61.

ديوان الجند[1]، وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم بضعة عشر ألفاً، وقد امتلأت بهم بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة سامراء لتكون عاصمة لهم، ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار[2]، وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد إعتقاداً منه بأنه مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبة التي عرف بها العرب[3]. ولكن سرعان ما أخذ أولئك المماليك في التدخل في شئون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون[4]، وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة 247هـ/861م في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه[5]، وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شئون الإدارة والحكم فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية، بعد أن صار منهم الجيش والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة[6]، والواقع فمنذ العصر العباسي الأول إتخذ مصطلح ((مماليك)) معنى

---

[1] تاريخ المقدس صـ47.

[2] قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام صـ12.

[3] تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين صـ62.

[4] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين نقلاً عن تاريخ المغول والمماليك صـ62.

[5] الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا صـ220.

[6] تاريخ المغول والمناليك صـ62.

إصطلاحياً خاصاً عند المسلمين، إذ اقتصرت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشترى من اسواق النخاسة، ويستخدم كفرق عسكرية خاصة ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل الطولونيين، والأخشيديين في مصر[1]، والصفاريين والسامانيين في خراسان[2] وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند[3]، أقبلوا على شراء الأتراك الإرقاء لتأكيد سلطتهم وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي إزداد نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كما أن الدولة السلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك[4]، ويعد نظام الملك الوزير الكبير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان وملكشاه هو أساس النظام التربوي المملوكي في كتابه سياسة نامة، وقد جاء فيه أنه: يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص

---

[1] المواعظ والاعتبار للمقريزي نقلاً عن تاريخ بيت المقدس صـــ84.

[2] تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال صـــ97 ـ 167.

[3] تاريخ بيت المقدس صـــ48.

[4] المصدر نفسه.

رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء[1]، ونظم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه[2]، ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد إن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً[3]، فتسلم الأرض إلى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالاتابكة[4]، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك، وقد منحه أياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تدبير أمور الدولة سنة 465هـ[5]، وهكذا إتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ليكونوا مربيين لأولادهم في القصر ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديبتهم الخدمة الحربية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت فاستغلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً[6]، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتابكة: وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، وأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة[7]، وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود وتوسع بالدولة وضم دمشق وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية، وقد توسعت عن

---

[1] دولة آل سلجوق للأصفهاني صـ113، تاريخ المغول والترك صـ65.

[2] دولة آل سلجوق صـ76، تاريخ المغول والترك صـ66.

[3] تاريخ المغول والترك صـ66.

[4] صبح الأعشى (18/4)، تاريخ المغول والترك صـ66.

[5] أخبار الدولة السلجوقية صـ196، 197، تاريخ المغول صـ66.

[6] تاريخ المغول والترك صـ66.

[7] تاريخ بيت المقدس صـ49.

الحديث عن عماد الدين وابنه نور الدين في كتابي عصر الدولة الزنكية، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه[1]، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيين فأكثروا من المماليك الأتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية[2]، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية، كما سمي مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبناؤه الأشرف: موسى العادل، والكامل، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية[3].

1 ـ نجم الدين أيوب والمماليك:

ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد إتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه، ومن أهمها: إهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطة الأيوبية، فخلا مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة ما تعداه من أكثر من ألف مملوكاً تركياً جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين[4]، وغيرها من الأماكن، وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش الأيوبي وسرعان

---

[1] المصدر نفسه صـ49.

[2] كتاب الروضتين (155/1)، تاريخ المغول والترك صـ68.

[3] تاريخ المغول والترك صـ69.

[4] الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ109.

ما شكلوا نواة عسكرية ـــ سياسية نشطة تحولت إلى دولة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح لتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان، ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

أ ـ الصالحية:

وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الاصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً إسم البحرية، والتي قدر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف، ومما يقوله: ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم[1]، ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساندتهم له للوصول إلى دست السلطنة، ولذلك عمل منهم جيش قوي يسانده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة[2]، وأما عن السبب في تسميةهذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى إختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزاً لهم ولثكناتهم العسكرية وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك القفجاق، ميزاتهم الخاصة

---

[1] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـــ110.

[2] المصدر نفسه صـــ110.

بين طوائف الترك العامة من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلاً عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة وفيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة[1].

ب ـ ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة:

اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف قلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقراً لهم وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي 637هـ/1239م و638هـ/1240م، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة منها ستين برجاً وأقام بها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، ومن شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويسكن مع مماليكه البحرية[2].

جـ ـ هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمّي المماليك البحرية بذلك؟

إن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا عل أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية وأول من سماهم

---

[1] المصدر نفسه صـ110.

[2] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ114.

بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غيرأن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية:

ـ المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقريزي وأبي المحاسن[1].

ـ من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العادلية، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.

ـ يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت 647هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان منهم في حلقته وعساكر أمرائه، هذا النص يدل عل أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل[2].

ـ أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوربا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية إسم الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة 593هـ فتح الملك العادل يافا ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن

---

[1] في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار صـ85.

[2] الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة للصلابي صـ341.

الفرنج ممتنعون فألقوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا من حالهم[1]. فلفظ بحرية إذن لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنه سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار[2]. وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم، وروايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان، وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من اسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الأسكندرية أو دمياط تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[3].

ثانياً: **نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك**:

كان الصالح أيوب ــ ومن تبعه من الأمراء ــ لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقربونهم جداً منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رباطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو العسف، حتى أنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) وليس لقب السيد[4]. وكانت

---

[1] في التاريخ الأيوبي والمملوكي صـــ86.

[2] المصدر نفسه صـــ86.

[3] المصدر نفسه صـــ87.

[4] قصة التتار من البداية إلى عين جالوت صـــ214.

المدةالتي يقطعها المملوك ليعتبر منتهياً من تعليمه تمر بمراحل ثلاث:

1 ـ المرحلة الأولى:

تبتدئ من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يجلبون صغاراً، تحقيقاً لرغبة الملوك والسلاطين ثم يوزعون على طباق القلعة حسب أجناسهم، تحت إشراف جهاز إداري محكم يتولى شئونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين بشئون الجيش وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها وبالدين الإسلامي الحنيف[1]، فأول ما يبدأ به المماليك في المرحلة الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار[2]، وكان من ضمن المنهج الدراسي الخاص في هذه المرحلة الإهتمام بالتمرينات والألعاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدى على وجهها الصحيح، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسباتها وأهم ما في هذه المرحلة، إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بها، حتى يصبح أحب شئ إليهم هو الجين والأخلاق الفاضلة[3].

إن الفقهاء والعلماء والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية المماليك ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من القرآن الكريم وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة والتصور الصحيح عن الله عز وجل، ومن أهم الجوانب التي إهتمت بها التربية الدينية في هذا

---

[1] الحملات الصليبية للصلابي صـــ338.

[2] المصدر نفسه صـــ340.

[3] أباطيل يجب أن تمحى صـــ339، خطط المقريزي (3 ــ 346).

الجانب:

ـ إن الله منزه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تتناهى فهو سبحانه الواحد لا شريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

ـ وأنه سبحانه خالق كل شئ ومالكه ومدبر أمره "ألا له الخلق والأمر" ((الأعراف، آية: 24)).

ـ وأنه تعالى جدّه مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت "وما بكم من نعمة فمن الله" (النحل، آية : 53).

ـ وأن علمه محيط بكل شئ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى الإنسان وما يعلن: "وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً" (الطلاق، آية : 12).

ـ وأنه سبحانه يخفي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب "مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاأحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً" (الكهف، آية : 49".

ـ وأنه سبجانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره ويسلم له ظاهراً وباطناً فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومنهم من يغضب، ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يسند إليه شئ "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" (الملك، آية : 2".

ـ وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: "إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين" (الأعراف، آية : 196).

ـ وأنه سبحانه، حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد في القرآن الكريم.

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية والتصورات الصحيحة

خطوة مهمة في نهوض الأمة وتحتاج التذكير والتعليم والتربية لكل أفراد المسلمين، وقد ظل صلى الله عليه وسلم يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ويكررها عليهم وعلى من آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسلمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم[1].

واهتم صلى الله عليه وسلم بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه مؤقناً أن من عرف منهم عاقبته وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، فقد ركز صلى الله عليه وسلم في هذا البيان على الجوانب التالية:

ـ إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، ,أن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (يونس، آية : 24" "قل متاع الدنيا قليل" (النساء، آية : 77".

ـ وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون، "أيحسب الإنسان أن يترك سدى" (القيامة، آية : 63).

ـ وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارته في الدنيا وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا:

"أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما

---

[1] منهج الرسول في غرس الروح الجهادية للدكتور سيد نوح صـــ10 ـ 16.

أغنى عنهم ما كانوا يمتعون" (الشعراء، آيات : 205 ــ 207)، "كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية" (الحاقة، آية : 24).

ــ وأن الناس مع زوال الدنيا واستقرارهم في الجنة، أو في النار سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد "يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم * يوم يرونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد"(الحج، آيات : 1 ــ 2)، وقال تعالى: "وكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً" (المزمل، آيات : 17 ــ 18).

ــ وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ومن تلك الشدائد والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، وبالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات إبتغاء مرضاته "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير" (البروج، آية : 11).

ــ ومضى صلى الله عليه وسلم كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع من مغنم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[2].

إن الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية

---

[1] منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية صــ19 ــ 34.

[2] منهج الرسول في غرس الروح الجهادية صــ37.

عهد الدولة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج وانصبَّت أهدافهم التربوية على تعليم الكتاب والسنة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية، كالإخلاص لله والصبر، والتوكل والاستعانة وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من الله عز وجل، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال وشباب المماليك فنشأوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي، وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك.

2 ـ **المرحلة الثانية**:

وهي التي تبتدئ بسن البلوغ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويراعى في هذ المرحلة الأخذ بشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ ةإنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشذوذ في أخلاقه أو الانحراف عن المبادئ الدينية، ثم يقسمون إلى فرق يتولى كل منهم معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة والعوم لمسافات طويلة والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يتركون إلى هواياتهم العملية أو الدينية أو الأدبية، ومن هنا ندرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين[1].

وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياَ ويؤخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على تحركاته وسكناته فإن عثر أحد

---

[1] أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ صـــ340.

مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو أحل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[1].

3 ـ **المرحلة الثالثة**:

وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ليعرف بلاؤهم هناك، ثم يكافأ المبرزون منهم بمنحهم الحرية، وعتقهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم اعتقهم ووضع اثمانهم في بيت مال المسلمين، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة،فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في سلكها، حتى يصل إل كبريات المناصب في الدولة وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة[2]، وبفضل الله ثم هذه التربية المتميزة نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم، وسجل على صفحاته امجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي والقضاء على الوجود الصليبي في ديار المسلمين، يقول بروكلمان في شأنهم: وعدت الاجيال التالية عصر بيبرس كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين ـ أحد العصور الذهبية في الإسلام[3].

---

[1] الخطط (213/2 ـ 214)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي صـ84.

[2] مصر في عهد بناة القاهرة صـ 169 وما بعدها إبراهيم شعوط.

[3] تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن أباطيل يجب أن تمحى صـ 341.

4 ـ نظام الأكل والثياب والراحة:

كان لتعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يخرجوا من مقرهم، إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاث أو عشرة دنانير في الشهر[1]، وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوالهم من طعام وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباق والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم، ويلاحظ المقريزي أن ذلك جرَّ إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق وأنهم أخلدوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم[2].

5 ـ نظام التخرج وإنهاء الدراسة:

كانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا إنتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة ويقام له إحتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه[3]، فسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً ((قماشاً)) وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً ـ جمعها معاتيق ـ ومعتقه يسم أستاذه أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية[4]، مفردها خشداش وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، أما الذين يصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تهيء

---

[1] الخطط (348/3) دولة المماليك، سمير فراج صـ32.

[2] دولة المماليك، سمير فراج صـ32.

[3] المصدر نفسه صـ32.

[4] أي زميل الخدمة.

الوظاف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في الشئون الحربية، بحيث من كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب،، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

6 ـ **لغة المماليك**:

هي اللغة التركية، وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية حتى لو لم يكونوا تركاً، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية[1]، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء[2].

7 ـ **رابطة الأستاذية بين المماليك**:

كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار، ونهرهما، وحلَّ بهما أي مكروه[3]. وكان يقول: كان الملوك يعلموا شيئاً

---

[1] المصدر نفسه صــ33.

[2] المصدر نفسه صــ33.

[3] السلطان المظفر سيف الدين قطز صــ47، د. قاسم عبده.

يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي لأولادي وللمسلمين، وهما المماليك، وكانت المماليك تقيم بهذه الطباق[1]. لا تبرح فيها[2]. وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها، فالسلطان ــ وهو مملوك في الأصل ــ يدرك أهمية المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والجصون المانعة، كما أنهم عمل يخلد اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأستاذية) التي ربطت برابطة الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه، فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته[3].

8 ـ رابطة الخشداشية (الزمالة):

وهي من اقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة، وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جلبوا أطفالاً، ثم عزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين،وعاشوا حياتهم الباكرة في سن الشباب سوياً، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سواء مع بعضهم البعض، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي إشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز آيبك، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم[4].

---

[1] الطباق:

التكنات العسكرية.

[2] الخطط (2 ــ 213)، السلطان المظفر صــ47.

[3] السلطان المظفر سيف الدين قطز صــ48.

[4] المصدر نفسه صــ52.

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية وهو الأمر الذي تجلى واضحاً[1] على تصديهم للمشروع المغولي وقضائهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام.

9 ـ **هل هؤلاء أجلاب**؟:

لا يمكن أن نتخيل مدلول كلمة ((المماليك)) بمعنى الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى الفتح العثماني، كما أن بعض هؤلا المماليك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان ((قطز)) بطل موقعة عين جالوت،ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم، صيانة مركزهم الأدبي، كما أتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وأتاح فرصة الظهور في المجالات المختلفة مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي[2].

10 ـ **الكليات العسكرية الحديثة**:

إن الدول العربية والإسلامية في يومنا هذا، عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا، وسنن الله في

---

[1] المصدر نفسه صـــ51.

[2] أباطيل يجب أن تصحح صـــ341.

إنتصار الأمم وهزيمتها،وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة، والقائمين عليها، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجية المعاصرة، والحرب النفسية وتطوير السلاح ومعرفة أسراره والعمل بقول الله تعالى: "واعدوا ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" (الأنفال، آية : 60).

11 ـ **الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك**:

رأى الشيخ عز الدين عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه، وتصريف شئون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ ــ رحمه الله ــ في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به[1]، وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق ــ في الدين ــ بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه

[1] صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء صــ31.

الضعيف الباهت في ظاهره القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الإنسحاب وعزل نفسه عن القضاء وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله، ومتاعه على حماره وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت جموع المسلمين وراءه فم تكن إمرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بتخلف، ولا سيما العلماء والصالحين، والتجار، وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورفعة التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه، فرجع أن ينادى على ملوك مصر وأمرائها ويبيعهم، وأرسل إليهِ كبيرهم ــ نائب السلطان ــ بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ إنزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلداً، وعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممتلئاً إيماناً بربه، قائلاً لولده: يا ولدي: أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي، خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيما تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين قال ناب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا وأنفذ الله أمره على يد الشيخ ــ رحمه

الله ــ فباع الأمراء منادياً عليهم واحد تلو الآخر وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد[1]. ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى، وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر[2]". وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته وهو القائل: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفر" (الحج، آية : 38)، والقائل: "والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (يوسف، آية : 21).

12 ـ عصر الأفذاذ:

هذه التسمية انفرد بها على حسب علمي الشيخ محمد محمد حسن شُرّاب حيث قال: لا أدري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من أول من أعطاهم هذا اللقب، إن كان الذين وضعوا هذا الوصف (المملوكي) هم العرب، فإنهم والله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم الغربيين الأوربيين كان علينا أن نعرف أن الأعداء لا يصفون عهودنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم، وأبغض الصفات إلينا، فما كان لنا أن نقلدهم ونسير على هديهم، فالغربيون الصليبيون يحقدون على عصر صلاح الدين، وعلى عصر (الأفذاذ)، وقولهم (المماليك) إنما هو لقب (ذم)، هم يحقدون على هؤلاء الأفذاذ، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس،

---

[1] المصدر نفسه.

[2] العز بن عبد السلام صـــ182 للزحيلي.

ذلك أن الحملات الصليبية لم تفتر بعد صلاح الدين وذكرنا قول هذا أنهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرره صلاح الدين، وكانت بقيت لهم ممالك وحصون كثيرة على الساحل وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة 690هـ/1291م أي: بعد فتح القدس بمائة سنة.. وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية، بعد الغزو الصليبي ألا وهو الغزو المغولي، ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان، وتعد رمزاً لقوة الإسلام.. وعهد هؤلاء الأفذاذ العلمي من العهود الزاهرة وآثارهم العلمية والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد، فقد عددت لهم في القدس وحدها خمس وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة، وعشرات المساجد، والبنايات والأوقاف والأربطة والإصلاحات[1]، إنهم إذا كانوا مماليك، فإنهم في رأيي مماليك الإحسان عل معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسان إحسان

فأولئك أحسوا في قرارة نفسوهم إن الله أحسن إليهم عندما جلعهم مسلمين وحكاماً، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلدتهم، ومن حقهم علينا، أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالصفة التي تدل على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب والمسلمين، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول: عصر الأفذاذ[2].

ثالثاً: جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح

---

[1] بيت المقدس والمسجد الأقصى صـ424 ــ 425.

[2] المصدر نفسه صـ426.

أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين[1]، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين إسمه تورنشاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان اثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر 1249م، ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون واصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية واقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة – دلهم عليها أحد العربان وفي رواية أحد الأقباط[2]، بعدما رشوه بالمال، تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو واخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في عجز الثامن من فبراير عام 1250م وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات

---

[1] الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة صـــ353.

[2] تاريخ الأيوبيين صـــ85.

الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار إنسحابه من جيزة دمياط واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[1].

1 ـ **معركة المنصورة**:

اغتر روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر، باقتحام المنصورة[2]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقاري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي إتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقاتل في أطراف المدينة[3].، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي[4]، وأول إبتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تملك

---

[1] تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد صـــ312.

[2] الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة صـــ356.

[3] الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون صـــ150.

[4] السلوك (1 ــ 448)، تاريخ الأيوبيين صـــ386.

نفسه، وبادر إلى إقامة خط إمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما اقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله ووزع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث إنقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي[1].

2 ـ **تورانشاه يقود المعركة**:

وصل تورانشاه إلى المنصورة في 17 ذو القعدة 647هـ/21 شباط 1250م بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[2]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة إرتفاع الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطلعته[3]. وأمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق

---

[1] الحملات الصليبية للصلابي صـ356.

[2] السلوك (1 ـ 449)، تاريخ الأيوبيين صـ387.

[3] النجوم الزاهرة (6 ـ 364).

عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[1]، وفقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الاوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط وفعلاً أمر بالإرتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الإنسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[2]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة وكان طبيعياً لأن يرفض تورانشاه هذا الإقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام 648 هـ / نيسان عام 1250م بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لإجتياز البحر الصغير فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموه من كل ناحية[3]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الإنسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم

---

[1] المصدر نفسه (6 ـ 364).

[2] تاريخ الأيوبيين صـ 288.

[3] النجوم الزاهرة (6 ـ 364)، تاريخ الايوبيين صـ 388.

بن لقمان وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخُصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدَّة القتلى عشر' آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة وأبلت الطائفة المملوكية البحرية ــ لا سيما بيبرس البندقداري ــ في هذه المعركة بلاء حسن وبان لهم أثر جميل[1].

3 ـ صور من شجاعة المماليك:

تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التعدي لأعداء الإسلام وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين فذكر جوانفيل آن الكونت بواتييه والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كان يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم[2]. ويقول ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً ويرتجف خوفاً وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك والملك قريب من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغم القوات الأخرى على التقهقر[3]، وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالأفرنج قد ولوا عل أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الأفرنج

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب (356/29).

[2] السلوك (450/1) الحملات الصليبية للصَّلاَّبي صــ358.

[3] الجواري والغلمان في مصر، نجوىكمال صــ403.

ملتزمين[1].

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة،وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً مما أضعفهم وطلبوا الصلح[2].

4 ـ لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح:

لم يهتم المسلمون كثيراً، بعد إنتصارهم، بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكَّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني[3]، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف وأصرَّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون[4]، فبادر تورنشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

ـ يفتدى نفسه بأن يؤدي مليون بيزنتة وهذا مبلغ كبير.

ـ يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.

ـ يسلم دمياط إلى المسلمين.

---

[1] المصدر نفسه صـ404، كنز الدرر (376/7).

[2] الجواري والغلمان في مصر صـ405 ـ 406.

[3] مذكرات جوانفيل صـ157، 159 ـ 161.

[4] تاريخ الأيوبيين صـ389، حملة لويس التاسع صـ206.

ـ يستمر الصلح مدة عشر سنوات[1].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[2]،، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الربع من صفر عام 648هـ الموافق الثامن من مايو عام 1250م أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم وحلت بها الكوارث[3].

5 ـ من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة:

ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة والتي من أهمها:

أ ـ التطوير العسكري في الجيش الأيوبي.

ب ـ وحدة الصف الإسلامي.

جـ ـ هيبة القيادة الإسلامية.

ح ـ نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد.

خ ـ جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية.

د ـ خطأ كبير في تقدير العامل الزمني.

ذ ـ العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين.

ر ـ إنحلال الحملة السابعة خلقياً.

---

[1] تاريخ الأيوبيين صـ389.

[2] المصدر نفسه صـ389.

[3] تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد صـ315.

ز ــ فتور الروح الدينية عند الصليبيين.

س ــ التهور وقصور النظر.

وقد فصلت في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة[1].

6 ـ من نتائج الحملة الصليبية السابعة:

لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام 1250م/648هــ مجموعة من النتاج من أهمها:

أ ــ إرتفاع شأن ومكانة المماليك: فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر، أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام 1250م/648هــ هو ذاته الذي شهد نهاية تورانشاه حريقاً غريقاً لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفذاذ لتدافع عن الإسلام[2]، بقوة وعزم ونشاط وحيوية جهادية رائعة.

ب ــ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها: والملاحظ أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين وبذلك تأكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات الصليبية لاخضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي/ السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كايبة الحاكمة في فرنسا، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوربا

---

[1] الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة صــ360.

[2] الحروب الصليبية بين الشرق والغرب صــ371.

بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ووقوعه في الأسر[1] وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة، السادسة والسابعة.

7 ـ مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية:

تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية[2]، ويرى المؤرخ المصري الدكتور قاسم عبده قاسم: بالرغم من الإنتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الإستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر للتخلص ((من شجرة الدر)) وكبار أمراء المماليك[3]، وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدت لقتل تورانشاه منها:

ــ أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقد أنه سيملأ فراغ والده ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه ــ الذين رباهم كأولاده ــ وقطع أخبازهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم[4].

ــ ومن الاسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرين على الحكم وسولوا له لأن هؤلاء هم أعداءه وأن في

---

[1] الحروب الصليبية بين الشرق والغرب صـ310.

[2] الخطط (2 ــ 236)، النجوم الزاهرة (6 ــ 364).

[3] في تاريخ الايوبيين والمماليك صــ 148.

[4] الجواري والغلمان في مصر صــ 408.

صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط، فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[1].

ـ وقيل أن من أسباب قتله أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي[2]، ولما ذكره بوعده، على لسان بعض خواصه رد قائلاً: أعطيه جباً مليحاً يليق به[3].

ـ وقيل من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه[4]، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصرمن الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها[5].

ـ وقيل من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه والجواهر[6] وهددها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم فاستقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الايوبيين في مصر[7].

ـ وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورانشاه التي اثارت حنق المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة فقد كان يشرب الخمر حتى تدور راسه ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها

---

[1] السلوك نقلاً عن الجواري والغلمان صـــ 409.

[2] نهاية الارب (29 ــ 360)، الجواري والغلمان صـــ 409.

[3] كنز الدرر (7 ــ 381 ــ 382)، الجواري والغلمان صـــ 409.

[4] شفاء القلوب نقلاً عن الجواري والغلمان صـــ 409.

[5] الجواري والغلمان في مصر صـــ 409.

[6] السلوك نقلاً عن الجواري والغلمان صـــ 410.

[7] في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده صـــ 148.

بسيفه وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين، فأفعل فيهم ما أمرك به الله وبه رسوله يا ولدي إياك والشراب فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشراب[1].

ـ وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له إبناً في دمياط فسير إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهباً ومهداً للطفل ذهبياً وحللاً ملكية[2]، وغير ذلك من الاسباب والمهم أن نعرف حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد والخدم المقدمين لا تغيرهم فما قدمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته واستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغييرهم فإني اعتمد عليهم في جميع أموري[3]، وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم وتعطي كل واحد منهم كوس[4] وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت أعتمد عليهم واثق بهم وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي ولولا المماليك ما كنت قدرت اركب فرسي ولا

---

[1] نهاية الأرب (29 ــ 347)، الجواري والغلمان صــ 410.

[2] الجواري والغلمان صــ 410.

[3] المصدر نفسه صــ 411، نهاية الارب (29 ــ 350).

[4] الكوس:

من شعارات السلطنة والإمارة وهي صنوج من نحاس.

أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم[1]، وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وأرفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه وطيب قلوبهم وزيد في إقطاعهم وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[2]، ومن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي وحفظ البلاد للسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطاناً على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه[3]، ويبدو أن الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه[4]، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي الذي كانت له هيبة في عهد الصالح وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه وهو الذي حرضّ على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[5]، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به[6].

---

[1] نهاية الارب (29 ــ 351)، الجواري والغلمان صــ 411.

[2] الجواري والغلمان صــ 411.

[3] مرآة الزمان نقلاً عن الجواري والغلمان صــ 413.

[4] الجواري والغلمان صــ 414.

[5] المصدر نفسه صــ 414.

[6] المصدر نفسه صــ 414.

8 ـ **كيفية مقتل تورانشاه**:

ونتيجة لبعض التصرفات الغير مسؤولة وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه قرر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي وأيبك التركماني وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الأثنين 28 محرم 648هـ / 2 أيار 1250م وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بإنتصاره ويتهيأ لإستعادة دمياط[1]، وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته وإحتمى به وهو يصيح، من جرحني؟ فقالوا: (الحشيشية) فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك، وقرروا قتله وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها ودخل ركن الدين بيبرس وفارس أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فالقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يصطنعني ويجبرني[2]، فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى أحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به اقطاي فقتله، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن

---

[1] تاريخ الايوبيين صـــ 390.

[2] النجوم الزاهرة (6 ـــ 371).

حكم واحداً وستين يوماً[1]،وقيل مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً، لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل ولم يعتلي سرير الملك[2]، وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني ايوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[3]، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية بخلع شجرة الدر[4]، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أن حكم شجرة الدر استمراراً للحكم الأيوبي، وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى[5].

رابعًا: أسباب سقوط الدولة الأيوبية:

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم ــ كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ــ يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا وأن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وأن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم[6]، قال تعالى : "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" (النور، آية : 63). لقد كان في إبتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في

---

[1] كتاب الروضتين نقلاً عن الدولة الأيوبية د. عكور صــ 262.

[2] بدائع الزهور نقلاً عن الجواري والغلمان صــ 416.

[3] المصدر نفسه صــ 416.

[4] عجائب الآثار (1 ــ 51)، للجبرتي الجواري صــ416.

[5] الدولة الأيوبية د. عكور صــ266.

[6] الدولة العثمانية للصلابي صــ520، الدولة الأموية (2 ــ 568).

نزاعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في الضنك من الحياة، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن إنحرافهم، وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أياً كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[1]، قال تعالى: "ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأنفال، آية : 53)، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل أن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم تكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول الله تعالى: "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا لهم ابواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" (الأنعام، آية : 44 ــ 45)، لقد نسى هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها" (آل عمران، آية : 45). ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز "من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * وكلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا" (الإسراء،

---

[1] في التفسير الإسلامي للتاريخ نعمان السامرائي صــ88.

آيات : 18 ـــ 20). وقال تعالى: "وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون" (النحل، آية : 112 ـــ 113). ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة "ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين" (هود، آية : 52). وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب "ي أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير" (المائدة، آية : 19)، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسئولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريرة غيره "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون" (البقرة، آية : 134). المهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" (البقرة، آية : 286)، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النصوص ملهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: "ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها" (الشمس، آيات : 7 ـــ 10). وقال "وهديناه النجدين" (البلد، آية : 10)، ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط

الدولة والحضارة بضربة واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام 648هـ وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 - توقف منهج التجديد الإصلاحي:

كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدينت محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة إلى إتجاه عام في الدولة حتى لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس[2] وذلك يرجع إلى أمور منها:

أ - نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية:

فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر "الإخلاص" في العمل، أي أنها ركزت على التربية أكثر من الاستراتيجية، ولذلك لم تفرز ((فقه الحكمة)) اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسئوليات العاملين فيها وأداهم وحسن إستثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما اكتفت بـ(فقه) الآباء الذي يركز على ((المظهر الديني للقيادة)) دون ((المظهر الاجتماعي))، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق ((الزهو)) وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه ـ مثلاً ((قادري السلوك)) ((وشافعي المذهب))، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين ((الفقه)) المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية

---

[1] أيعيد التاريخ نفسه صـ134.

[2] هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ 322.

المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية على مسرح الحياة برز تأثير العامل الثاني، أي أثر العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي حقق إفراز ظواهر غير إيجابية منها:

ـ حين لم يجد جيل الأبناء فقهاً سياسياً وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة إرتد إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدَّى إلى تفكك الدولة وإنقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحدَّه جيل الآباء، وأداروه طبقاً لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

ـ أدى النقص في الفقه السياسي والإداري إلى إنفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصفه ابن خلكان بأنه كان صلاح الدين أطعمه وهو شاب إقطاع نابلس إكراماً لوالده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين وانسحب عماد الدين إلى قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام 610هـ[1]، والخلاصة أن الجدب في الفقه

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ322.

السياسي والإداري أفرز ـ بعد جيل صلاح الدين ـ قيادات وإدارات متسلطة فردية عملت على أن تحكم الأمة بقيم القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى والإرتجال بدل التخطيط[1].

ـ قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وتحرر ديار المسلمين من الغزو الصليبي، وكانت التغيير العملي على مدى إصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرقة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادي والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون، وإذن فإن إختفاء الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك مقامها كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن إختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضاً عملياً لسقوط فكرة الجهاد، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة وضرورة إستمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول وهؤلاء الرجال[2]

ب ـ ومن الظواهر السلبية:

التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح، تسلل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ نستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة

---

[1] المصدر نفسه صـــ322.

[2] الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات صـــ395.

كابن الوردي وابن المستوفي، إن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية، وأدى إلى إنصراف النابهين المثقفين من صفوفوها وإجتماع العامة فيما عرف باسم ((الطرق الصوفية)) التي إشتقت اسماءها من اسماء الآباء المؤسسين، كالطريقة القادرية والطريقة البيانيه والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال[1].

2 ـ **الظلم**:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته، بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبإنتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها، مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها، وإضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]، قال تعالى:" ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" (الأعراف: آية: 34). قال الألوسي رحمه الله في تفسيره هذه الآية((ولكل أمة أجل)) أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـــ323.

[2] السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان صـــ 121.

الله تعالى[1]:" ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تتبيت* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد" (هود: آية: 100 ــ 102). إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة بل أن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال:" وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة" (هود: آية: 102) فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فلآية تحذر من خطورة الظلم[2].إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سننه إهلاك الدولة بكفرها ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[3]،تزول قال تعالى:" وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (هود: آية: 117) قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[4]، وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله ((بظلم)) أي بشرك وكفر ((وأهلها مصلحون)) أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم

---

[1] المصدر نفسه صـــ 121.

[2] الدولة الأموية للصلابي (2 ــ 571).

[3] السنن الإلهية صـــ 121.

[4] تفسير الرازي (18 ــ 16).

يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[1]، قال أبن تيمية رحمه الله في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام وذلك إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة[2]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخيه والعم بني أخيه ظلماً وجوراً وتسلطاً على العباد والبلاد وحصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام وتم الإعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق وقد بينا ذلك في مناسبات عديدة في كتابي ((الأيوبيون بعد صلاح الدين، والحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)).

3 ـ **الترف والإنغماس في الشهوات**:

قال تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيع وكانوا مجرمين" (هود، آية : 116)، قال تعالى: "واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه" أراد الذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما إهتموا بالتنعم والترف والإنغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة

---

[1] تفسير القرطبي (9 ــ 114).

[2] رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صـــ 40.

والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنئ[1]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب قال تعالى: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين* فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون" (الأنبياء، آيات : 11 ـــ 13)، ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها قال تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" (الإسراء، آية : 16). وجاء في تفسيرها وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها: أي : متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوئهم، إنما وقع بإتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2].

إن أمر بني أيوب مازال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضي أمرهم إلى إبنائه، فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد عل ذلك كثيرة نذكر منها ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعله أستاذ الدار وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس والذي كان يجمع إلى منصبه إختصاصات الوزير وقاد الجيش في المعارك وفتح دمشق وكان متحللاً وعابثاً ومعتداً بقوته ومنصبه وتجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع ويسئ إلى مشاعر المسلمين، فبني فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي قاعدة لسماع الغناء والموسيقى، وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل

---

[1] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد صـــ 186.

[2] تفسير الألوسي (42/15).

هذا،ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشارب وما يترتب على ذلك من آفات، وحب التكثر من المال والتوسع في الركوب وفي المسكن والملبس والنكاح لدى بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

4 ـ **تعطيل الخيار الشوري**:

ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم بالحائط ذلك النظام القائم. عل حرية الانتخاب وحرية المعارضة والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه أنه قبيح بي أن أكون أتابكاً مع الشيخوخة والتقدم مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر ــ رحمه الله ــ صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي، ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره[1]، ثم أن الملك العادل ورّث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة، ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

ــ إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:

- تقيد حق الأمة في إختيار سلطان بحصره في أسرة معينة.
- تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.
- دفعت المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن إفتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما

---

[1] في التأصيل الإسلامي للتاريخ صــ60.

سلف ذكره.

- وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أشار الشك ــ عند بعض الناس ــ حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.
- أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم[1].

5 ـ **النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية**:

إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا، وفي رواية ((فأهلكوا))، وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه: فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف[2]، إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها وإندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين الأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها والحرص على السلطة والجاه والمنصب وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد إستقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة إنقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم

---

[1] نظام الحكم في الإسلام صــ307.

[2] صحيح البخاري بشرح العسقلاني (102،101/9).

إضمحلالها[1]، لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية فلم يحترم الأخ أخيه والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي إتسم به أبناء صلاح الدين، إذ أنه إستخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من غمده، إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية ((أمراء صلاح الدين)) والأمراء الأسدية، أمراء أسد الدين شيركوه الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين[2]، وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه[3]، واستمر الصراع في الأسرة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل، حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي.

6 **ـ موالاة النصارى**:

من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير"(آل عمران، آية : 28). وقول الله تعالى: "يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارىأولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن لا يهدي القوم الظالمين" (المادة، آية :

---

[1] الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم صـــ118.

[2] في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده صـــ82 ــ 83.

[3] دور الفقهاء صـــ174.

51)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوثق عري الإيمان، الموالاة في الله، والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله[1]، أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب وبدون إراقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه وكان الملك الكامل لديه إستعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دخل في صلح مع الصليبيين وسلّم لهم أحد الحصون وتصدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها، فسال لعابهم لذلك، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر[2]، وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور

---

[1] صحيح الجامع.

[2] النجوم الزاهرة(322/6) الدولة الأيوبية دعكور صـــ233.

إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[1].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين فما كانوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون[2]، وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتنازل لهم على مدن المسلمين من أجل الحكم والسلطان، إن بعض ملوك بني أيوب أمنعوا في موالاة النصارى الصليبين وألقوا إليهم بالمودة وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وعملوا على اضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

7 ـ فشل الأيوبيين في ايجاد تيار حضاري:

حاول صلاح الدين بإيمان صادق وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي وحرص على الفتوحات العسكرية والدعوية، بحيث لاتطغى الأرض على الحضارة ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين وتقيد بالسياسة الشرعية، وعمل على ايجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر، فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر العلمية والتربوية والثقافية والحضارية إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم اهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة أنتهت بزوال دولتهم لقد

---

[1] النجوم الزاهرة(305/1) الدولة الأيوبية صـــ233.

[2] السلوك(305/1) الدلوة الأيوبية صـــ233.

فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رساله سامية تأخر فيها الأيوبيين وغلبتهم الظروف والتحديات فأصبحوا أمام قانون التاريخ الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي أما أن يتقدموا أو يزولوا من الوجود، فلا سكون في تاريخ البشرية.

8 ـ **ضعف الحكومة المركزية**:

قسمّ صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في مفهومنا الحديث(اللا مركزية الإدارية)[1]. والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة انجازه[2]، وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه

---

[1] تاريخ الأيوبيين طقوش صـ210.

[2] المصدر نفسه صـ211.

الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسمً الإرث، بين أبنائه وأخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً هي تلك العصور وكان طبيعياً ان تعود المنطقة إلى الوراء مرة اخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان وكان وقت وفاة أبيه مقيماً بالقاهرة، وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد[1]، وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك وولي الظاهر غازي حكم بلاد الشام الشمالية وكانت حلب عاصمته وتولى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[2]، وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، لقد كان تقسيم الدولة على نحو، كتقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى[3]، فتفتت دوله صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك والتوسع.

9 ـ ضعف النظام الاستخباراتي:

كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة، إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأمنهم

---

[1] السلوك(114/1) في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـــ80.

[2] تاريخ مصر الإسلامية(96/2) جمال الشيال.

[3] في تاريخ الأيوبيين والمماليك د.قاسم عبده صـــ80.

السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس العسكر الإسلامي ليلاً[1]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً والذي أعدوه للهجوم على عكا وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها ولم تكن اختراقات الجهاز الإستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الإستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

10 ـ **غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي**:

مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الاستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد وهي اعتماده على العلماء الربانيين فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخو المؤرخ المشهور ابن الأثير على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل ولم يكن موفقاً أبداً بل جرّ البلاء والسخط والغضب والكراهية على الملك الأفضل وأصبح القاضي من بعد المبعدين عن القرار السياسي، وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بلداً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون

---

[1] صلاح الدين الأيوبي للصّلاّبي صـ381 ـ 382.

الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي وقد قال ابو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد، وعقل رشيد ومعظماً عند السلطان صلاح الدين يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقليد آرائه وكان كتائبه كتائب النصر[1].

11 ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه:

استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي والتي ساهمت في تقوية الجيوش وانعكس ذلك على الدولة ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوكاً تركياً وعمل منهم جيشاً قوياً سانده في فرض إرادته على الأقاليم والقضاء على حركات التمرد الداخلية وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً واستطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته 44 سنة وعهد لولده المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه إلا أنه لم يكن رجل المرحلة وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تركيس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً بدأ يدبر للتخلص"من شجرة الدر" وكبار أمراء المماليك فاحتقر خصومه واستبد برأيه وابعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصومه

---

[1] كتاب الروضتين(241/2).

وضعفت الشقة بينه وبين رجاله وفشل في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله وزالت الدولة الأيوبية بموته، هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية.

الفصل الثالث

سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك:

أولاً: شجرة الدر:

1 ـ شجرة الدر أيوبية أم مملوكية؟ إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي، صاحب السلوك لمعرفة دول الملوك، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر ولقد يطلق عليها إسم دولة المماليك الأولى بإزاء دولة المماليك الثانية التي هي دولة المماليك البحرية، اعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظيّة الملك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه السلاطين في المشرق العربي، مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماماً، بما في كلمة مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل الذي مات وهو طفل صغير[1]. ويعتبر ابن إياس صاحب بدائع الزهور، شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[2].

2 ـ **سلطانة مصر**:

كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب وتصرفها حيال الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع أبلغ الأثر لدى المماليك

---

[1] السلاطين في المشرق العربي صـــ9.

[2] بداع الزهور (1 ــ 89).

بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماس سياسي وحنكة ومهارة في تصريف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الذي كادت أخطار الحرب والاستيلاء على دمياط أن تفت في عضد أي حاكم آخر[1]، لقد عملت شجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين، لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري الذي كان يقاتل الغزاة، إذ لو أعلنت نبأ وفاة الملك والجيوش المسلمة والصليبية في التحام وعراك لأفلت الأمر من أيدي القادة المماليك وبعث فيهم نبأ وفاة الملك شيأً من الضعف والتخاذل والتواكل، الأمر الذي لم يحدث ــ بفضل الله ــ ثم بسبب حنكة شجرة الدرّ، وحكمتها وهي التي تمّت الوفاة بحضرتها فكتمت هذا الأمر، وأمرت العبيد أن يحمل الملك سراً في محفّة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تنجلي المعركة، عن نصر قريب، ولم يفت شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش وأن تبعث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين هذا من جهة، ومن جهة ثانية، راحت شجرة الدر، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء تعمل على إدخال كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة الملك، بحجّة أن السلطان حي يرزق، بل راحت توقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان وهي التي حذقت تقليد توقيعه، ومحاكاة خطه، وإن قال بعضهم إن الذي حذق تقليد الملك وتوقيعه، هو خادم لشجرة الدرّ اسمه سهيل، كتم الأمر وخضع له، خدمة لمولاته السلطانة[2] بهذا التدبير الحكيم، وذلك الأسلوب المميّز والحنكة الفريدة استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما إستطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما

---

[1] شجرة الدُر قاهرة الملوك نور الدين خليل صـــ75.

[2] موسوعة تاريخ مصر (2 ــ 671) لأحمد حسين.

ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع[1] والاستسلام، كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للتربع على كرسي السلطة بعد مقتل تورنشاه، ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب ((أم خليل))[2]، وهكذا أصبحت هذه الجارية أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب، والتي تزوجها بعدما أعتقها ملكة المسلمين في مصر وسلطانة المماليك البحرية، يخطب لها على المنابر، ويدعون لها عليها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي[3].

3 ـ الدعاء لها:

كان مما يدعى لشجرة الدرّ قول المصلين اللهم أحفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح،[4]، أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون بإسمها على منابر مصر وأعمالها، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم أحفظ الجهة الصلاحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل، إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده

---

[1] شجرة الدرّ، د. يحي الشامي صـ52.

[2] شجرة الدرّ، نور الدين خليل صـ75.

[3] شجرة الدر د. يحي شامي صـ54.

[4] النجوم الزاهرة (6 ـ 374).

صغيراً[1]، وفي رواية أن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدرّ على المنابر، لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، الجهة الصالحة، أم خليل المستعصية، صاحبة السلطان الملك الصالح[2].

4 ـ نقش توقيعها:

وأيا يكن، فإن شجرة الدرّ، هذه هي التي راح الناس يدعون لها، ويخطبون، نقشت إسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صبغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل[3].

5 ـ الاحتفال بتنصيبها:

ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين حتى راح كبار القادة والأمراء يفدون على المليكة وقد تربعت على دست الحكم في قاعة الإيوان الذي كان بناه الملك الصالح حيث النقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبنوس والرخام، وحيث الفُرش والزرابي والطنافس والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذي أذهلهم الإعلان عن شجرة الدرّ أنها ملكة المصريين ما بين مصدِّق للخبر، أو مكذب له، فكنت ترى مواكب الصناع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنّيين والخدم والحشم[4]، على اية حال، قبضت ((شجرة الدر)) على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت إهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من

---

[1] بدائع الزهور (1 ـ 286).

[2] موسوعة تاريخ مصر (2 ـ 671).

[3] المصدر نفسه (2 ـ 671).

[4] شجرة الدُر د. يحي الشامي صـ56.

رعاياها[1].

6 ـ رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدُّر السلطنة:

تفجرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي وحاولت شجرة الدُّر أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها وتقربت إلى العلماء والعامة، إلا أن ذلك ذهب في إدراج الرياح وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها، وقام العلماء والخطباء ينددون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم وفي المحافل العامة، والخاصة وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل ((العز بن عبد السلام)) رحمه الله[2]، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم: إعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يفلح قوم ولّوا أمره امرأة[3]، ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدُّر السلطنة:

النساء ناقصات عقل ودين

ما رأين لهنَّ رأياً سنيّا

ولأجل الكمال لم يجعل الله

تعالى من النساء نبيّا[4]

7 ـ شجرة الدُّر تخلع نفسها:

لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس ((شجرة الدُّر)) على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة

---

[1] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ76.

[2] قصة التتار صـــ229.

[3] بدائع الزهور (1 ــ 287).

[4] المصدر نفسه (1 ــ 287).

وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم، لا بد وأن يغرقهم في موجاته[1]، وبعد ثمانين يوماً تنازلت ((شجرة الدُّر)) في الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل أن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته[2]، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين آيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة 648 هـ. وهكذا في غصون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم الملك الصالح أيوب ـ رحمه الله ـ ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي[3].

8 ـ حكم تولي المرأة للولاية العامة:

اتفق فقهاء الإسلام على اختلاف مذاهبهم ـ على عدم جواز المرأة لمنصب الإمامة العظمى، وأن الذكورة شرط أساسي فيمن يتولى هذا المنصب[4]، حتى الذين ينادون بحقوق المرأة السياسية، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب ويقولون بقصر الرياسة أو رياسة الوزارة على الرجل دون المرأة[5]، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يرون رياسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرياسة أو

---

1 السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ77.

2 المصدر نفسه صـ77.

3 قصة التتار صـ331.

4 ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ83.

5 المصدر نفسه صـ84.

الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي[1]، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أ ـ الكتاب:

ـ قوله تعالى:"الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" "النساء، آية:34". وجه الاستدلال: جعل الله تعالى في هذه الآية القوامة للرجال على النساء وهم قوامون عليهم، والقوامة على الأمر، أو المال أو ولاية الأمر، والقيِّم: من يقوم بالأمر، والقوّام: صيغة مبالغة، أي الحسن القيام بالأمر[2]، فلما جعل الله تعالى القوامة للرجل دون المرأة، فهو يعني حصر القيام بانتظام الأمور، وتدبير الشئون، وولاية الأمر في الرجل، وهذه القوامة عامة تشمل ولاية الأمور العامة والشئون السياسية، بما فيها الإمارة والوزارة والخلافة ونحوها كما تشمل الشئون الأسرية ورعاية أهل البيت، فالرجال قوامون على النساء: أي القائمون بانتظام أمورهن، وكفالة نفقتهن، ومسؤلون عن الذب عنهن وحفاظهن وأمرهم نافذ عليهن، فهم الحكام والأمراء، وعليهن طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله[3].

ومما يدل على أن القرآن لم يقيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط، أنه لم يأت بكلمة(في البيوت) في الآية حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية[4]، والله لم يعطها حق القوامة على بيتها وإنما جعله للرجال، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت[5].

---

[1] المصدر نفسه صـــ84.

[2] تفسير الطبري(290/8).

[3] ولاية في المرأة في الفقه الإسلامي 85.

[4] تدوين الدستور الإسلامي صـــ71.

[5] ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـــ91.

قوله تعالى:"ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة" "البقرة،آية:228" ووجه الاستدلال إن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة وعدم اعتبار حقوقها وشخصيتها، فيبين الله تعالى هنا أن النساء كالرجال في الإنسانية ولهن حق حسن المعاشرة كالرجال، ويجب لهن حق عليهم تجاه الواجب ولكن المراد بالمماثلة مماثلة الواجب بالواجب في كونه ما يردده البعض في العصر الحاضر من كون مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور، لأن الله تعالى قال:"وللرجال عليهن درجة" وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بيانها في الاية السابقة الإمرة والطاعة[1].

ـ قال تعالى:"إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" "البقرة،آية:247". وجه الاستدلال: إن الله تعالى يبين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك، وذلك أن بني إسرائيل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك، قالوا: إنه لا يستحق لأنه ليس من أهل بيت الملك، ولأنه فقير ليس عنده مال، فرد الله عليهم بأنه استحق للملك لأمرين، لكون زيادته في العلم، وقوته في الجسم، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تسند إلى من لديه علم واسع، وهو قوي جسيم حتى يتحمل مشاق هذا المنصب[2]، ومن المعلوم أن المرأة ضعيفة الجسم والبنية لا تستطيع تحمل المشاق مثل الرجل، وهذا أمر فطري، فلهذا لا يسند إليها قيادة البلد[3].

ب ـ السنة:

قال صلى الله عليه وسلم: لن يُفلح قوم ولوْا أمرهم امرأة[4]:إن

---

[1] جامع البيان(454/2).

[2] تفسير الرازي(174/6) مدارك التنزيل (163/1).

[3] ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـــ93.

[4] البخاري، كتاب المغازي رقم 4425.

الذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفاق، وأجمعت الأمة في العصور الأولى من الصحابة والتابعين،. وتابعيهم والأئمة والفقهاء والعلماء والمحدثين والمفسرين على اختلاف مذاهبهم، أجمعوا على أن لا تصلح المرأة للأمامة الكبرى، ولا تجوز توليتها رياسة المملكة، كذلك رياسة الوزارة في النظام البرلماني لأن لها صلاحيات مثل صلاحيات الإمام. وعلى هذا دلت الأدلة الصحيحة من الكتاب، والسنة وهي ظاهرة في دلالتها ويقتضيه العقل والقياس، والحكمة في خلقة المرأة وتكوينها النفسي والجسدي، والاعتراضات الموجهة إلى حديث صحيح البخاري مردودة، ليس فيها شيء من القوة، إذ تلقته الأمة بالقبول والمعترضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي وأما القول المعارض الذي حدث متأخراً فليس له دليل صحيح من الكتاب والسنة، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ولا يحتج بفعله[1].

ثانياً: سلطنة عز الدين آيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني"الملك المعز" ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الإستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا[2]غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي

---

[1] ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـــ161.

[2] قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـــ124.

وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الاعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها[1].

1 ـ الخطر الايوبي والصليبي:

رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وانسلخت عنها دمشق والكرك والشوبك والصبيبة وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها في الشام وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها[2]، وشنوا حملة أعلامية مركزة على المماليك وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في الفدية التي أعطاها لهم وتلك التي تعهد بدفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة المسلمين[3]، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام عمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقلاقل في الشرق الإسلامي، وأما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم أصحاب الفضل الأول في إحراز النصر على لويس والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين[4]، حتى وصفهم

---

[1] المصدر نفسه صـــ124.

[2] العدوان الصليبي على بلاد الشام د.جوزيف صـــ144.

[3] المصدر نفسه صـــ145.

[4] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـــ145.

ابن واصل بأنهم كانوا داوية الإسلام[1]، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر أن تثور ثائرة العالم المسيحي ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد المسلمين قد لا يستطيعون دفعها[2]، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا، فحسب وإنما في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً، ثم هم لم ينسوا بعد مااقترفه "تورانشاه" ابن مولاهم الصالح أيوب في حقهم وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءات، كان من الضروري وضع حد لها قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ويبطش[3] بهم، وأنهم بتخلصهم منه إنما انقذوا مصر من مفاسده ومساذنه، ولذا فهم يرون أنهم أحق بالملك من غيرهم[4].

أ- لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين:

ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس. وحري بالذكر في هذا المجال أن المسيحيين في المعاقل اللاتينية في سورية وعلى رأسهم لويس كانوا يدركون حقيقة الحال في مصر والشام وكانوا ملمين إلماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الأنتقال هذه، إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد انعش آماله[5]، كما وجد الفرصة مواتيه لتعويض ما خسره في مصر[6]، ومما يدلنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجري في الشرق الإسلامي

---

[1] المصدر نفسه صـــ145.

[2] المصدر نفسه صـــ146.

[3] المصدر نفسه صـــ 146.

[4] المصدر نفسه صـــ146.

[5] المصدر نفسه صـــ146.

[6] المصدر نفسه صـــ146.

من أحداث وقتذاك أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دي ناجي، ووليم دي شارتر، ومتى الباريزي وغيرهم، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا تقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية في هذا الشأن، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية وعن موقف لويس منه[1]، من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ خطة السياسة والدهاء، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاته في حملته الفاشلة على الديار المصرية[2].

ب ـ تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع:

هكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك القرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكل منهما يمنيه بالوعود المغرية طمعاً في كسبه إلى جانبه، ولكنه اتخاذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ماتمليه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتخذ قراراً حاسماً، فقد كان بوسعه الإنضمام إلى أحد الفريقين أو الوقوف موقف الحياد أو أن يستمر على سياسة متأرجحة أملاً في استتراف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن[3]، على أية حال، لم يكد لويس يستقر في عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت

---

[1] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ147.

[2] المصدر نفسه صـ147.

[3] المصدر نفسه صـ148.

المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين[1]، كان السلطان عز الدين آيبك يراقب الأحداث عن كثب وقرر مواجهة الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً وحتى يمتص نقمة الأيوبيين، إختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضُربت لهما السكة على الدنانير، والدراهم[2]، ويبدو أن آيبك علم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ولويس التاسع، وخشي وقوع تقارب أيوبي صليبي، فأرسل إنذار الى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم، إن قام بأي عمل عدائي ضده وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف، غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر[3]، ولما يئس الناصر يوسف من إستقطاب الملك لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتلوا وراء آيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً، وخرج آيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط

---

[1] المصدر نفسه صـــ149.

[2] ناريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صـــ396

[3] مذكرات جوانفيل صـــ208،200.

مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها فأمر بهدم ثغرها، حتى خُرب كله، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون وضعفاء الناس، وسموها ((المنشية))[1].

2 ـ **معركة بين المماليك والأيوبيين**:

والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في العاشر من ذي القعدة 648هـ/ الثالث من شباط 1251م عند العباسية بين مدينتي بلبيس، والصالحية، إنتصر فيها الناصر يوسف، في بداية المعركة، على الرغم من استبسال المماليك، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت، بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[2]، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة[3]، كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشة، فقد إستثمر آيبك إنتصاره هذا، فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة[4]، ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور إستيلائه عليه من الناصر يوسف[5]، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للإعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود وإستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على

---

[1] السلوك (466/1) تاريخ الأيوبيين صـ398.

[2] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ398.

[3] تاريخ الأيوبيين طقوش صـ398.

[4] المصدر نفسه صـ398.

[5] المصدر نفسه صـ398.

لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته[1].

3 ـ **تحالف مملوكي ـ صليبي**:

استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على آيبك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في 650هـ/1252م بهدف مناوأة الناصر يوسف، جاء فيها:

ـ وافق آيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.

ـ إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية.

ـ وعد آيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن[2].

غير أن التحالف المملوكي ـ الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج إذ بعد توقيع المعاهدة إتفق كل من آيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن يستولى لويس التاسع على يافا، في حين يستولي آيبك على غزة، ثم يتم الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الامارات الأيوبية[3]. وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي[4]، بينما تقدك الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعده من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول

---

[1] المصدر نفسه صـــ398.

[2] المصدر نفسه صـــ399.

[3] المصدر نفسه صـــ399.

[4] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـــ399.

دون إلتقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، إرتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع[1]. وبفعل سيطرت الأيوبيين على غزة ظل المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر إحتكاك واستمر كل منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تم بين الطرفين في أوائل 651هـ/1253م، فما الذي تغير على الساحة السياسية؟[2].

4 ـ الخليفة العباسي وسعيه في الصلح:

الواقع أنه لم يقدر للعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الآونة وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدني وتطلب منهم أن يتحدوا وهو ظهور المغولي الذين اكتسحوا العراق ووصلت طلائعهم قرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيته بين الناصر يوسف والمعز آيبك[3]، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما تقرر فيه:

ـ إعتراف الناصر يوسف بسلطة آيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

ـ إعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا بإتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة

---

[1] المصدر نفسه صـ399.

[2] المصدر نفسه صـ399.

[3] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (1 ـ 400).

الخليفة، وكان المعز آيبك قد استغل إنتصاره على الناصر يوسف، وإزدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف إسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة الجبل وذلك في عام 650هـ/1252م، واستقل بالسلطنة[1]. ومهما يكن من شيء فقد إتضح للملك الفرنسي واللاتيني أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا إتحدت جهودهم، واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل، وكان الصلح التي تم بين الناصر والمعز آيبك في صفر 651هـ/أبريل 1253م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله، لتلقين الفرنج درساً قاسياً[2]، وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نياته واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم في الشام وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا، ومع أن هذا الصدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر[3]. لقد فشل لويس التاسع في الاستفادة من الإنشقاق الذي حدث بين الشام ومصر إلا أنه اضطر أخيراً العودة إلى فرنسا، فغادر فلسطين في ربيع الأول سنة 652هـ/24 نيسان 1254م مجروحاً في كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً بإضمحلال الروح الفرنجية العسكرية وموتها فيما بعد في وقت كانت

---

[1] تاريخ الأيوبيين في مصر والشام صـ400.

[2] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ192.

[3] المصدر نفسه صـ200.

تكابد فيه طور النزع الأخير[1].

5 ـ تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر:

ومن المشاكل التي اعترضت السلطان آيبك، هي ثورة بعض القبال العربية أو ما يسمى بالعربان في مصر سنة 1253م. من المعروف أن القبال العربية استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية وأطلق عليهم إسم العرب المزارعة، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز إجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف كذلك مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج، وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية وإحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم ((فساد العربان))، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال[2]، وتجريد العرب من وسائل الدفاع المؤثرة، ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلي:... فلا يمكن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته

---

[1] معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج صـــ78.

[2] قيام دولة المماليك الأولى صـــ129.

ولا استيداعه وتفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار، وأقمع بذلك نفس الفجار وأخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار[1]. وورد في منشور آخر ما يلي:

... ولا يمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يقتنيه ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ... ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله، ولا يتسع لأحد في الشرق مجاله[2]، ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك إلى أن المماليك الذين أستولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية، فحسب، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنسب وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر[3]، فقامت الثورات ضدهم وأستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر، من وسائل قتل وتعذيب معروفة في ذلك العهد وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الإشتراك في المنازعات والإضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك، وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية وسياسية، ولا شك أن الدافع السياسي وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّد ردة فعل لديهم

---

[1] صبح الأعشى نقلاً عن تاريخ القبائل العربية، محمود السيد صــ124.

[2] المصدر نفسه صــ125.

[3] تاريخ للقبائل العربية، د. محمود السيد صــ 125، 126.

مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سلطانهم وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام 651هـ /1253م وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية كما أسلفنا، فالمماليك منذ أن أنتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم[1].وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية فالفرنج لما تمكنوا من ثغر دمياط في الحملة الصليبية، عملوا ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤس، وفصلنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية، وقد حاول بعض المؤرخين أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون آسود مظلم قاتم، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاءتهم المتعددة، فإن إشراقة من الإيمان تطل علينا وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد، إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الفذ الذي قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري، الذي كان يستهدف عقيدتنا، وديارنا وأمتنا ويسى لإجتثــاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة إندحار الغزاة وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصادق المتين[2].إن معركة عين جالوت تمثل معلماً مضيئاً في خضم الظلمات ومثلها معالم

---

[1] السلوك (1 ــ 280)، النجوم الزاهرة (7 ــ 9)، قيام المماليك صــ 130.

[2] تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء صــ 180.

أخرى، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون والمدارس التي بنيت والمكاتب التي أوقفت والمساجد التي شيدت وصرح الخير والبر والمرحمة، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالنووي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والمزي والسبكي والمقريزي وابن خلدون والسيوطي وغيرهم كثير، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

الحقيقة هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك منها استخدام العنف الغير مبرر ضد المعارضين مما ولّدت ردة فعل عكسية قال أبو المحاسن: إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[1].وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء[2]، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف ((نسبة إليه)) وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف[3]. واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل الله ثم مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكونوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحلفوا له،

---

[1] النجوم الزاهرة (7 ــ 13).

[2] القبائل العربية صــ 131.

[3] التعريف بالمصطلح الشريف صــ 188.

واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة، ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة الآلاف فارس من خيرة المماليك وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة 1253م[1]، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً وأقام حكومة مستقلة هناك ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه إلى أن خدعه السلطان بيبرس البند قداري وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية[2]، وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين، فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة بقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر[3]، وذكر المقريزي في السلوك أن من نتاج ثورات العرب ضد المماليك: أن تبدد شمل عرب مصر ،وخمدت جمرتهم من حينئذ[4].

6 ـ **خطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي**:

ومن العوائق التي هددت حكم أيبك ودولته الناشئة، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه"الملك المعز" كما عين مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى

---

[1] السلوك(387/1).

[2] التعريف بالمصطلح الشريف صـ188 قيام دولة المماليك صـ132.

[3] قيام دولة المماليك صـ132.

[4] تاريخ القبائل العربية صـ133.

شريكه في الحكم، وانفرد بالسلطنة[1]، على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية، ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية[2]، وتلقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ويتمتع بها أقطاي، فالمقريزي يقول عنه: واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتاباً ولا يتكلم بشيء، ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي.

لكثرة خشداشيته[3]، وابن تغري بردي يقول عنه: فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك وحدثته نفسه بالملك وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد[4]، فيما بينهم وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لأقطاي[5]، قال الذهبي عنه: فعظم، وصار نائب المملكة للمعز وكان بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير التحمل،

---

[1] قيام دولة المماليك الأولى صـــ133.

[2] المصدر نفسه صـــ133.

[3] الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية صـــ412.

[4] النجوم الزاهرة(10،11/7).

[5] قيام دولة المماليك الأولى صـــ133.

أبيع بألف دينار، وأقطع من جمله إقطاعه الإسكندرية، وكان طائشاً ظلوماً معتلا على السلطنة، بقي، يركب في دست الملك، ولا يلتفت على المعز، ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل عُرس بنت صاحب حماة بها[1]، وفهم منها المعز أنه مستهدف لإزالته من الحكم فقرّر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي يستدعيه موهماً له أنه يستشيره في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من مماليكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة وقرر معهم أنه إذا مَرَّ مجتازاً بالدهليز يبتدرونه بسرعة، فلما وردته إلى أقطاي رسالة المعز بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه من غير أن يعلم أحد من خشداشيته[2]، لثقته بتمكن حرمته وطلع القلعة آمناً ولم يدر بما كان له كامناً فلما وصل إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه المماليك المعزّية فأذاقوه كأس المنية[3] وكان قتله يوم الاثنين حادي عشرين من شعبان وامر المعز بغلق باب القعلة، فركبت مماليكه وحاشيته وكانوا سبعمائة فارس ومعهم جماعة من البحرية وقصدوا قلعة الجبل، بناءً على أن المعز قُبض عليه فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا على من تقاتلوا فتفرقوا جميعهم، ولما شاع الخبر بقتله، أجمعوا البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس البندقدار ي، وقلاون الألفي، وسنقر الأسثقر، وبَيْسري، وسِكر، وبرامق[4]، فشمروا ويلاً وخرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه

---

[1] سير أعلام النبلاء(197/23).

[2] خداشيته:

الزميل في الخدمة.

[3] نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـــ220.

[4] نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـــ220.

مغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخرجوا منه نحو الشام، فسمي من يومئذ الباب المحروق[1]، وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده ولما أصبح المعز، بلغه هروبهم من المدينة فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وغلمانهم واتباعهم، وإسبتصفيت أموالهم وذخائرهم وشؤنهم وخزائنهم، واستتر من تأخر منهم، وحمل من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المستكثرة من الأموال ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع، وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الاسكندرية إلى الخاص السلطاني، وأبطل ما قرره من الجبايات وأعفى الرعية من المصادرات والمطالبات وأما البحريةّ، فإنهم وفدوا على الملك الناصر، فأحسن إليهم، وأقبل عليهم وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه، ثم عزم على قصد الديار المصرية، فجرد عسكراً صحبة البحرية فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلا، وبلغ المعزّ مسيرهم إليه واتفاقهم عليه، فبرز بالعساكر المصرية ومعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية، فنزل الباردة بالقرب من العباسية وانقضت هذه السنة وهو مخيم بها[2]، وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسروا صاحب الروم وكان الناصر قد خطبها لنفسه، فزفت إليه بدمشق، ودخل بها واحتفل بها احتفالا كبيراً[3].

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين والمماليك ووصل نجم الدين البادرائي لتوسط بين الطرفين ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

ـ يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام.

---

[1] المصدر نفسه صـ220 دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز صـ239.

[2] المصدر نفسه صـ221.

[3] التحفة الملوكية في الدولة التركية، بيبرس المنصوري صـ360.

ـ ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية.

7 ـ مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر:

يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة 1256م ميلادية إلى بدر الدين لؤلؤ الاتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفا زواجيا لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل، وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، وذلك لئن شجرة الدر لما علمت ما يبيت لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض أيبك على عدد كبير، منهم أيدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب، فلما وصلوا إلى قرب نافذه القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر، احنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية(والله يا خوند[1]ما عملنا ذنب وجب مسكناً ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم"الصالح أيوب"، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين، فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه"قد سمعت كلامك" وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين؛ إن كان قد حبسنا فقد قتلناه[2]، ومعنى هذا أن شجرة الدر كانت قد بيتت هي الأخرى لايبك جزاء وفاقاً، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه

---

[1] الخوند:

السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث.

[2] السلوك(401/1 ـ 402).

علم بمؤامرتهم، فأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم غير أن شجرة الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر، ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً أن يكون في الأمر خدعة، ولم يجبها بشيء وعلم بدر الدين لؤلؤ باخبار هذه المفاوضات السرية فبعث بها إلى أيبك ينصحه أن يأخذ حذره، وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللوني وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها، إذ أرسلت شجرة الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث اعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي[1]، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة 1257م،655هـ[2]، قال الذهبي عن السلطان المعز كان ديناً عاقلاً، كريماً، تاركاً للشرب[3].

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ووضعه على فراشه، والإدعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما أنتشر نبأ وفاة السلطان وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروي واقعة سقوطه من على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها

---

[1] قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ139.

[2] المصدر نفسه صـ139.

[3] سير أعلام النبلاء(198/23).

في ريبة، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده لكنها في كل مرة كانت تصر وتؤكد الواقعة[1]، وأحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الإنتقام، لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر، وصنعوا منها ملكة وسلطانة، وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم، حتى في أصعب الأوقات، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض على أنهم انقسموا على امرهم، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية، فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم أبنه خليل، ولها من الأيادي على مصر وعلى المماليك انفسهم الشيء الكثير البادي للعيان ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين، وأخيراً انتصر أعداؤها وحُبست في أحد أبراج القلعة، ونودي بعلي، بن عز الدين أيبك السلطان الراحل، سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل ويحدثنا أحد المؤرخين أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت كما كانت قوية في مواجهة المدلهمات، فلمّا ايقنت من نهايتها أسرعت إلى خزانتها واستخرجت حليها ومجوهراتها جميعاً، وسحقتها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي زوجة السلطان الأولى وفي هذه الرواية شك كبير كذلك؛ فكيف لشجرة الدر، وهي سجينة في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزنتها وتستخرج حليها، ثم تسحقها جميعاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي كما يقول المؤرخ[2]؟ وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها

---

[1] شجرة الدرُ قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـــ85.

[2] شجرة الدُر قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـــ86.

انتشار النبأ ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها، وتوقفت أعمال الشغب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت، تتهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد حيث كانت غريمتها أم على، زوجة أيبك الأولى قد أصبحت منها أم السلطان الجديد، وتمايلت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيبك وهجر معهما أبنهما علي. إن ساعة الإنتقام قد أزفت، وأمرت خادمات القصر بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة[1]، يقول المقريزي: فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها، سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام ــ وقد نتنت ــ وحملت في قفة، بتربتها[2]، قال عنها الذهبي: ودفنت بتربتها بقرب قبر السيدة نفيسة، وقيل: إنها أودعت أمولاً كثيرة فذهبت، وكانت حسنة السيرة، هناك لكن هلكت بالغيرة[3]، وقال ابن العماد فيها: كانت بارعة الحسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء... نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خُطِبَ لها على المنابر، وملّكوها عليهم أياماً، فلم يتم ذلك، وتملك المعز آيبك فتزوج بها وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أمرها إلى أن قتلت[4]. وأما غريمتها أم السلطان الجديد، أم علي، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة، إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها، وعندما ماتت شجرة الدر، أمرت طهاة القصر

---

1 وسير أعلام النبلاء (199/23).

2 السلوك (494/1).

3 سير أعلام النبلاء (200/23).

4 شذرات الذهب (464/7).

بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يسمح بالإنتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، كما كميات ضخمة الخبز، يجري تسخينها إلى درجة الإحمرار وتغمر في اللبن والعسل، ثم تغطى بطبقة سمكية من اللوز والزبيب والصنوبر، وإلي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم في المطاعم في أيامنا هذه، وقد سميت بإسم أول من صنعتها، أم علي[1].

8 ـ سلطنة على ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز:

صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك صبياً في الخامسة عشر من عمره هو (نور الدين علي)) ابن سيدهم المعز آيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة 655هـ/1257م ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة إضطرابات عاصفة، استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك ــ في الأردن حالياً ــ غزو مصر مرتين، لكن الفشل كان من نصيبه[2]، بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض على الآتابك سنجر الحلبي وحبسه في الجب بقلعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز آيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان:.. وصار مدبر دولة الملك المنصور علي[3]. وكان جلسو

---

[1] شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـــ87.

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ80.

[3] المصدر نفسه صـــ81، السلوك (1 ــ 405).

السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت بإعتراف الجميع طوال ذلك العصر ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به اقواهم، واقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين آيبك ولم يشأ ((سيف الدين قطز)) أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه[1]، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، وإجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز،.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة[2]، وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر في

---

[1] المصدر نفسه صـــ81.

[2] النجوم الزاهرة (7 ـــ 43).

ذي القعدة 655هـ/1257م وفي ربيع الأول سنة 656هـ/1258م يقلق باله، بحيث خرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعة ((سيف قطز)) تم القضاء عل هذا الخطر الأيوبي بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى ((الملك المغيث عمر)) في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير ((عز الدين آيبك الرومي الصالحي))، والأمير ((سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بكتوت الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بلغان الأشرفي)) وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها[1]، وبذلك إزدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبى بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدا صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي ((نور الدين علي)) أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة.. ويلعب بالحمام مع الخدم[2]، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد إضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس[3]. وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى والاستعداد لمواجهة التتار، من ناحية ثالثة[4]، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر

---

[1] السلوك (1 ــ 411)، السلطان المظفر سيف الدين قطز صــ83.

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز صــ83.

[3] المصدر نفسه صــ83.

[4] السلطان المظفر سيف الدين قطز صــ84.

المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها وهكذا بدأت الحرب تطل بوجها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير ((سيف الدين قطز))، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفاقها على الجنود فأفتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار[1]. وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحافل التتارية الظالمة، لقد استغل قطز إجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[2]، وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمرا ء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي

---

[1] المصدر نفسه صـــ88.

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ89، النجوم الزاهرة (7 ــ 55).

غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة 657هـ/1259م وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما وإعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[1]. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر[2].

9 ـ ترتيب سيف الدين قطز للأمور الداخلية:

لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثوبه على المك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[3] والشام، وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم[4]، وأخذ يرضي أمراء

---

[1] السلوك (1 ــ 417)، النجوم (7 ــ 55).

[2] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ90.

[3] السنوك (1 ــ 417، 418)، السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ92.

[4] السلوك (1 ــ 418)، السلطان المظفر صـــ92.

المماليك حتى تمكن على حد تعبير المقريزي، وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه أسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطنية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبـــي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز والطواش شبل الدولة كافور لا لا الملك المنصور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم، وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار، لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقال قطز أيضاً: ... وأن أخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن

معي من العسكر نجدة لك عل القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[1]. وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت يأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم.

---

[1] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـــ92، 93، 94.

الفصل الرابع
معركة عين جالوت الخالدة
إنكسار المغول
المبحث الأول:
إحتلال المغول لبلاد الشام و الجزيرة:

أولاً: صمود ميا فارقين:

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد،فوجّهوا جيوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العام للعمليات في المنطقة هولاكو خان، لم يضيع التتار الوقت في عام 656هـ/ 1258م بعد سقوط بغداد، توجه هولاكو مباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينسمر ونصيبين، ومن ثم حرّان، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار والسير بإتجاه ميّافارقين وكلّف معه القائدين إيلكا نويان وسونتاي نويان، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد[1].

1 ـ آمد بمواجهة التتار:

في عام 655هـ / 1257م كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميّافارقين قد عاد من زيارة منكوقاآن التتار الأعظم، بعد أن قدم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب

[1] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 ـ 47).

ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد[1]، وفي عام 557هـ وبينما كان التتار يحاصرون ميّافارقين، وصل هولاكو إلى آمد واستدعى سيف الدين بن محلي نائب الكامل فيها، فخرج إليه،وطلب منهم هولاكو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هولاكو بتسليمها إلى ابني كيخسرو سلطان سلاجقة الروم المتوفي، وهما رُكن الدين وعز الدين ولما اقتسما البلاد أصبحت آمد مع رُكن الدين قلييج أرسلان، وفيها نوّابه مع نوّاب التتار، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدين[2].

2 ـ **تحدي ميّافارقين للتتار**:

وبعد عودة الملك الكامل من خان التتار إلى ميّافارقين أعلن العصيان على التتار، وحبس نوّابهم وخرج بإتجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف وقال له: إن هؤلاء التتار لا تفيد معهم مُدارة، ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الاموال من سنة أثنتين وأربعين ,إلى اليوم (656هـ)، فما الذي أثرت فيهم من خلوص المودة؟ فلا يغتر مولانا بكلام بدر الدين ــ صاحب الموصل، ولا بكلام رسولك ــ الزين الحافظي، فإنهما جعلاك خبزاً ومعيشة وأحذرك كل الحذر من رسولك فإنه لا يناصحك ولا يختارك عليهم، وغرضه إخراج ملكك من يدك وأنا فقد علمت أنني مقتول سواء أكنت لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خروج السلطان ــ الناصر ــ بعساكره لإنجاد المسلمين وأنا بين يديه، فإن أدركناه عليها فيها، ونعمت وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه أخذنا بثأره[3].

---

[1] المصدر نفسه (2 ــ 48).

[2] المصدر نفسه (2 ــ 48).

[3] العلاقات الدولية (2 ــ 50).

3 ـ **مشروع الكامل لمواجهة التتار**:

كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التتار، وقد تجلت في المشروع الذي قدمه للملك الناصر الايوبي عند زيارته له في دمشق، وهو مشروع هجومي وليس دفاعي:

أ ـ أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها هو الهدف الأكبر للتتار وإنهم بعده سيتوجهون إلى الجزيرة والشام.

ب ـ تأكد الكامل أن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية بكل رموزها ومعانيها وممالكها وإماراتها.

ج ـ لكل ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من الناصر يوسف التوجه بجيشه وسيكون الكامل معه إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع بغداد.

د ـ كان يبدو من كلام الكامل ثقته ـ إلى حد ـ ما بالنصر، فإن لم يمكن نجدة الخليفة وإنقاذه فالثأر له.

س ـ قام الكامل بتحذير الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع التتار، ومن خيانة رسول الناصر إلى التتار وزيره الزين الحافظي ((فقد جعلوك خبزاً ومعيشة))[1].

لقد كان الكامل واحداً من الملوك القلّة الذين تجرّؤوا على مجرّد التفكير بالمقاومة وربما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف فقد قتل التتار الملوك المستسلمين والخاضعين والمقاومين على السوء، وهذا ما أثبتت الأيام صحته[2].

4 ـ **ردّ الناصر على مشروع الكامل**:

ما إن علم الملك الناصر بتوجه الكامل المتمرد على التتار نحوه

---

[1] الاغلاق الخطيرة لابن رشد، نقلاً عن العلاقات الدولية (2 ـ 51).

[2] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 ـ 51).

حتى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصالح نور الدين بن المجاهد والملك الاشرف بن المنصور صاحب حمص، فإنهم كانوا متفقين مع التتار وقال الزين الحافظي للناصر: متى بلغ هولاكو خروجك إليه جعله سبباً إلى قصد بلادك والمصلحة اعتذارك إليه، وردّه، فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجم الغفير، فخرج إليه، وتلقّاه وأنزله بدار السعادة[1]، إن ما نستنتجه من ما دار في مجلس الملك الناصر هو أن أعوان التتار يشكلون حزباً له وجوده حتى في حاشية الملوك، ولكنّهم قلة، وأن معظم الناس كان مشاعرها ضد التتار، وتميل للمقاومة مهما كانت النتائج، لقد استمع الملك الناصر ولم يوافق على مشروع الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة، أما الملك الناصر، فكان ردّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على أرض، إذ عرض على الكامل أن يرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هولاكو، فأجابه الكامل قائلاً: جئتك في أمر ديني تُعوّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليك ارسلتُ لك عسكراً. فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ، إذ لا وصول له إلي[2]، لقد مثل الكامل إرادة الجهاد والمقاومة مهما كلف الثمن، واختار الشهادة بعزة إن لم يكن النصر،أما الملك الناصر، فقد عبّر عن جبنه وتخاذله وحيرته وتردده وانعدام قدرته على اتخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار، وبقي الكامل في دمشق حتى سمع سقوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب، حيث التقى به ابن شداد وقال له: أصبت في قصدك الملك الناصر، وما أصبت في رجوعك، هلا قصدت مصر؟ فيرد الكامل:

---

[1] الاغلاق الخطيرة لابن رشد نقلاً عن العلاقات الدولية (2 ــ 52).

[2] الاغلاق الخطيرة (2 ــ 52).

لقد خفت على قلب الملك الناصر، فيشير عليه ابن شداد أن يخرج حريمه من ميّافارقين، ويستخلف نوّاباً، ويعود للملك الناصر، لعل تنهض عزيمته. ويتضح لنا من هذا الحديث بين الكامل وابن شداد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوقوف في وجه التتار قد خطرت على بال الكامل، لكنّه لم ينفذها حتى لا يغضب الناصر في وقت هو بأمس الحاجة إليه، كما نتبين أن ابن شداد كان مطلعاً على الوضع العام، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه فنصح الكامل بإخراج حريمه من ميّافارقين، وعرف أن الناصر متخاذل خائف يحتاج لاستنهاض عزيمته[1].

5 ـ سقوط ميّافارقين واستشهاد الكامل:

بعد أن تمّ للمغول الاستيلاء على اربل، أمر هولاكو الأمراء يشموت وايلكا نويان وسونتاي بالتوجه إلى مدينة ميّفارقين،ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى الملك الكامل الايوبي صاحبها يدعونه إلى الخضوع، والطاعة لهم ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم، إلا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود حيث رد عليهم قائلاً: إنني لن أنخدع بكلامهم المعسول، ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حيا[2]، ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل، إتفق الأمراء المغول على مهاجمة ميافارقين، وإنتزاعها بالقوة من يد حكامها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنوية، بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعاً وأعلنوا له أنهم رهن إشارته، وعلى

---

[1] جهاد المماليك صـــ 53.

[2] جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـــ 75.

إستعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذي بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار، واستطاع مسلمو ميافارقين أن يصمدوا واستبسلوا في القتال[1]، وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد، وكان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها، ولكن هذا لم يحدث لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمه ولا أدوية، لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم ـ التتار ـ على إخوانهم وأخواتهم وأبناهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين والواقع أنني أتعجب من رد فعل الشعوب، أين كانت الشعوب؟

ـ لم يكن الشعوب تملك حريتها وقرارها بل كانت خاضعة لإرادة حكامها.

ـ كانت هناك عمليات ((غسيل مخ)) مستمرة لكل شعوب المنطقة فلا شك أن الحكام ووزراءهم وعلماءهم كانوا يقنعون الناس بحسن سياستهم وبحكمة إدارتهم.

ـ من لم يقنعه العلماء والخطب والحجج فإقناعه يكون بالسيف، لقد تعودت الشعوب على القهر والبطش والظلم من الولاة[2].

أقبل المغول على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين، اشتركت فيه فرق أرمينية ومسيحية شرقية وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول على اقتحامها مدة طويلة، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول ودوخاهم وأوقعاهم في الدهشة والحيرة، إذ كان لبسالتهما وأحكامهما الرماية سبباً في إنزال أفدح

---

[1] جهاد المماليك صـــ76.

[2] قصة التتار صـــ178.

الخسائر في الجيش المغولي، حتى اضطر هولاكو الذي أدرك عجز قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرقتو، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكيا نويان، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات، حتى هلك أكثر سكان المدينة[1]، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام 658هـ 1260م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل التّتار ميّافارقين"فوجدوا جميع سُكّنها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل الأيوبي؛ فعنَّفه هولاكو وأمر بتقطيعه[2]، وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك في سنة 657هـ/1259م[3]، حتى وصل دمشق، فعلَّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه وقتل المغول كل من وجدوه في ميّافارقين وهدموها، وهذا يدل على شدة حنق المغول من الملك الكامل، ومن مقاومته لهم وربما كان أيسر ما كلفتهم إياه هو الخسائر البشرية والمادية فهي ــ بلا شك ــ ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحربية المرعبة لأن مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضد التّتار، وأصبح الكامل بموته قدوة ومثالاً للتضحية والشهادة[4]. وكذلك مدينة ميافارقين التي تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة"وان" فقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة

---

[1] جهاد المماليك صـــ76.

[2] المصدر نفسه صـــ76.

[3] المصدر نفسه صـــ76.

[4] العلاقات الدولية (54/2).

والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق وعلى الشمال الشرقي من سوريا[1].

6 ـ **ماردين**:

بعد أن تمكن هولاكو من انهاء الأمر في ميافارقين أشار على امرائه بالزحف على مدينة ماردين، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة، إذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها لذلك عمد هؤلاء القادة إلى اتباع نهجهم التقليدي بارسال الرسل إلى صاحبها الملك السعيد، بالتهديد والوعيد إلا أن الملك السعيد نجم الدين ايلغازي الارتقي، أبى الانصياع إلى أوامرهم ورد عليهم قائلاً: كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين، ثم قتلتموهم بعد أن اطمئنوا إلى عهدكم وامانكم، فإني الآن لا اثق بكم، وأن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والاسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد[2]وضرب الحصار الشديد على ماردين وعلى كل فإن هولاكو استطاع خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد وحران والرها وسروج وعدد كبير من مدن وحصون اقليم الجزيرة، ومن ثم قرر هولاكو إرجاء أمر ماردين ريثما يصفى حسابه مع الشام، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب فاستولى عليها في المحرم من عام 658هـ /1259م وعاد الحصار من جديد واثناء الحصار توفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة فهلك أكثرهم فتولى الحكم ابنه الملك المظفر، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر والمغول وتم الصلح مع المغول وكان هولاكو قد أرسل بكوهداي أحد كبار أمراء المغول إلى ماردين وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر وزوجه الأخير أخته وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى

---

[1] جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ77.

[2] الاغلاق الخطيرة (3 ـ 566 ـ 568)، جهاد المماليك صـ 84.

هولاكو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا إليه، فاجتمع به هولاكو وأكرمه، ثم قال له: بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك،فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي، فإني لا آمن أن يحرفوك عني، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي[1]، فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلاده وفي الطريق ارسل هولاكو في طلبه يأمره بالعودة إليه ثانية فعاد إليه يرتجف خوفاً، فلما اجتمع به قال له هولاكو: إن اصحابك أخبروني أن لك باطناً مع صاحب مصر، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم، ثم عيّن لذلك أمير يدعى ((أحمد بغا)) وأعادهما إلى ماردين، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد وميافارقين، كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث ابقى المغول قوة لحفظ المعابر[2]، وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين وما أن غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب اصحاب الملك السعيد، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين، ولم يكن لاي من هؤلاء ذنب يذكر، ولكن قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر[3]. وغدت مدينة ماردين ولاية مغولية، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية وتحركاتهم العسكرية، ويقدمون لهم المال والإمدادات العسكرية ويضربون السكة باسمهم ويخطبون لهم وحقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود وهو السيطرة على منطقة

---

[1] جهاد المماليك صـــ 84.

[2] المصدر نفسه صـــ 84.

[3] المصدر نفسه صـــ84.

ديار بكر واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي[1].

ثانياً: السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام:

أقدم الملك الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب ودمشق الذي يعد أعلى الأمراء الايوبيين شأناً في بلاد الشام على اعلان الخضوع لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، فقد استجاب لأمر هولاكو، فأنفذ إليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف معه عدد من الأمراء فلما وصل العزيز إلى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعية لهولاكو، طلب منه العزيز على لسان والده أن يرسل إليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الاراضي المصرية، من أيدي المماليك[2].

1 ـ رد هولاكو على الملك الناصر:

رأى هولاكو أن عدم إستجابة الملك الناصر يوسف لأوامره، بالخروج إليه بنفسه، يعد تمرداً على أوامره، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا يناسب مقامه، ولم يكتف بعدم الاستجابة لطلبه هذا، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر إليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون ألف فارس، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز إلى أبيه ومعه رسالة ذكّر فيها من صنوف العذاب والدمار والهلاك[3] وجاء فيها: الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز "قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه

---

[1] المصدر نفسه صـــ 87.

[2] السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـــ69.

[3] جهاد المماليك صـــ69.

الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تمَّ أمر دنا نقصه

تَوَقَّ زوالاً إذا قيل تَم

إذا كنت في نعمة فارعها

فإن المعاصي تُزيل النِّعم

وكم من فتى بات في نعمة

فلم يدر بالموت حتى هَجَم

إذا وقعت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك، وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (شاهنشاه روي زمين) أي ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى"، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم إنهزموا بحريمهم إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها[2].

أين النجاة ولا مناص لهاربٍ

ولى البسيطان الثرى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت

في قبضتي الأمرا والوزراء[3]

---

[1] كان هذا هو الإسم التتاري لمصر.

[2] السلوك (1 ــ 506).

[3] المصدر نفسه (1 ــ 506).

هذا طرف من الحرب النفسية التي كانت التتار يشنونها ضد أعداهم[1].

2 ـ إستنجاد الناصر بالمماليك:

رفض الملك الناصر دعوة هولاكو وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب، حيث .أقدم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على إرسال رسول من قبله هو الصاحب كمال الدين بن العديم إلى المماليك في مصر يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام، وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف، أدرك هولاكو ـ على ما يبدو ـ فشل سياسة التشدد التي إتبعها مع الملك الناصر، والتي أدت به إلى الارتماء في أحضان المماليك في مصر، وبدأ هولاكو يفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق، ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والأيوبيين، إذ يذكر المقريزي أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق، بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالإيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر، وختم كتابه هذا بقوله: وإن إخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار[2].

3 ـ سقوط حلب:

كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية، فقد أصدر هولاكو أوامره لقواته بعبور نهر الفرات، ومهاجمة بلاد الشام،

---

[1] سيف الدين قطز صـــ86 قاسم عبده.

[2] جهاد المماليك صـــ70.

ووصل الخبر بذلك إلى حلب وكان يحكمها الملك المعظم تورانشاه نائباً عن الملك الناصر، فجحفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق، وعظم الخطب على من بداخلها، وقبل وصول القوات المغولية إلى حلب، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها، إلا أن الملك المعظم الأيوبي رد علي بقوله: ليس لكم عندنا إلا السيف[1]، ثم احترز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة، بأسوارها المحكمة البناء وقلعتها المنيعة، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية[2]. وفي العشرة الأخيرة من ذي الحجة سنة 657هـ نوفمبر 1259م، قصد المغول مدينة حلب ونزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا إلى قريتي حيلان والحاري وهما قري حلب، ثم سيروا فرقة من عسكرهم بإتجاه حلب، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقة، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأماكن، وقد ركبوا جميعهم لإنتظار عسكر حلب، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة وأصبح الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب، وعدم الخروج منها[3]، وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبة حلب، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم، فلما شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكراً وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكامنه فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد، والعدو في أثرهم، ولما حازوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي إندفعوا جميعاً نحو المدينة والعدو مستمر في مطاردتهم، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام، ونازل المغول حلب ذلك

---

[1] المختصر في أخبار البشر (3 ـ 201)، جهاد المماليك صـ89.

[2] النجوم الزاهرة (3 ـ 201)، جهاد المماليك صـ89.

[3] جهاد المماليك صـ89.

اليوم إلى آخره، ثم رحلوا عنها إلى أعزاز فتسلموها بالأمان[1].

أ ـ الإضطرار إلى التسليم:

عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من 658هـ/يناير 1260م وأحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامة، وعرضه أربعة أذرع، وبنوا حائطاً بإرتفاع خمس أذرع، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب أسوارها ومهاجمتها من كل الجهات، حتى اضطرـ إلى التسليم في التاسع صفر من 658هـ/يناير 1260م، ولم ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا الدور وسبوا النساء والأطفال، ثم إستباحوا المدينة خمسة أيام عاثوا فيها فساداً حتى إمتلأت الطرقات بجثث القتلى، ويقال إنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من إلتجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين، ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود بفرمانات كانت بأيديهم وقيل أنه سلم بهذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس[2]

ب ـ هدم أسوار المدينة وقلعتها ومساجدها:

لجأ الملك المعظم تورانشاه إلى القلعة ومع جمع كثير من حلب، واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر[3]، ويبدو خيانة حدثت في جيش الملك المعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ومعرفة مواطن الضعف فيها، ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها، الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكل

---

[1] النجوم الزاهرة (7 ـ 75 ـ 77)، جهاد المماليك صـ90.

[2] السلوك للمقريزي نقلاً عن جهاد المماليك صـ90.

[3] المختصر في أخبار البشر صـ201، جهاد المماليك صـ91.

سهولة، ودخل هولاكو بعد ذلك إلى القلعة وخربها، وهدم أسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها، حتى غدت بلدة موحشة، بعد أن كانت تعد من أزهى مدن الشام، وخرج إليهم الملك المعظم تورانشاه، ويذكر المقريزي أن هولاكو لم يتعرضه بسوء لكبر سنه[1]، ولا يستبعد أن يكون الملك المعظم قد أصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة أو بمرض لم يعد يرجى برءه، أو أن هولاكو قد دبر قتله سراً، بدليل ما ذكره المقريزي نفسه من أن الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيام قلائل[2].

جـ ـ غنائم لحلفاء هولاكو من النصارى:

لم يشأ هولاكو أن تمر فرصة إستيلائه على حلب دون أن يكافئ حليفه، هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيمند السادس الصليبي أمير أنطاكيا الذين ساعداه في ذلك العمل، حيث قام بإعطاء ملك الأرمن جزءاً من الأنفال، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم، كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من إمارته، وعبر هيثوم عن إبتهاجه بذلك بإحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه إنتقاماً من المسلمين[3]. وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول، وحقق هولاكو بذلك ما لم يستطع تحقيقه الأمراء الصليبيون والأباطرة البيزنطيون وحطم حصناً عظيماً من حصون الإسلام، وغدت هذه المدينة، التي كانت تعتبر بحق من أروع وأزهى مدن الشام خربة يائسة، وعين عليها هولاكو حاكماً من قبله[4]، وقد أثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين، الفزع والوجل في نفوس المسلمين

---

[1] المقريزي السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـــ91.

[2] السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـــ91.

[3] تاريخ الدولة المغولية في إيران صـــ141 عبد السلام فهمي.

[4] جهاد المماليك صـــ92.

ببلاد الشام، فوصل إلى هولاكو بحلب كثير من أمراء المسلمين، ليعلنوا ولائهم وخضوعهم، ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي، صاحب حمص، الذي سبق أن إنتزع منه الناصر إمارته، فأعادها إليه هولاكو، على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قبل هولاكو، ولما رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا لقائد حامية حلب، إعتبر هولاكو ذلك إهانة له وإنتقاصاً من مكانته، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم وسبي نسائهم وأطفالهم ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعاً[1].

4 ـ **دمشق**:

بعد سقوط حلب أرسل هولاكو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الإثنين السابع عشر من صفر سنة 658هـ/ فبراير 1260م وهم يحملون فرماناً منه تأمين المدينة وأهلها مقابل تسليمها، وقرئ هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر[2].

أ ـ موقف بيبرس البندقداري:

وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق وعلى راسهم الأمير زين الدين الحافظي، بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو، لتجنيب دمشق وأهلها ما حل بحلب من الهلاك والدمار والخراب، ولكن ذلك الرأي لم يجد التأييد الكامل من أهل دمشق، حيث رفضه البعض[3]وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس، وصاح في وجه زين الدين قائلاً: أنتم سبب هلاك المسلمين، ويبدو أن الملك الناصر كان على رأي زين الدين الحافظي، فحاول بعض أتباع بيبرس من طائفة المماليك البحرية، قتل الملك الناصر، وتولية حاكم آخر عالي الهمة، نافذ الرأي، يستطيع جمع الناس للجهاد في

---

[1] المصدر نفسه صـ92.

[2] المصدر نفسه صـ93.

[3] المصدر نفسه صـ94.

سبيل الله وقيادتهم في ميدان القتال لصد العدوان المغولي والدفاع عن الإسلام وأهله، إلا أن بيبرس تخلى عن دمشق وذهب مع جماعة من المماليك البحرية إلى غزة، حيث استقبله أميرها أحسن إستقبال، وفيها سير بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على إعطاه الأمان ونجح في المصالح مع قطز الذي وعده الوعود الجميلة، ثم سافر إلى بيبرس إلى مصر وانضم إلى قيادة قطز وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمعركة عين جالوت وقيادة الجيوش الإسلامية وتحيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها[1].

ب ـ تسليم دمشق:

خرج الملك الناصر من دمشق ومعه جمع من أتباعه يريد غزة وترك دمشق في حالة يرثى لها، وقصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها حضرة هولاكو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق، وأظهروا الطاعة والخضوع له، وسلموا المدينة، وأمر هولاكو قاده كيتوبوقا إلى دمشق لإختبار أهلها، فاستقبله أهل المدينة وطلبوا منه الأمان، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاكو وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال وولى عليها هولاكو جماعة من المغول وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها[2]، وأما قلعة دمشق فقد استعصت على المغول، ورفض من بداخلها التسليم لهم، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ومعه مرسوم بأن نائب السلطة لدمشق والشام كلها، وتم حصار القلعة وضربها بالمنجنيقات وخرب من القلعة مواضع وطلب من بداخلها الأمان، ودخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز والدفائن وأحرقوا مواضع كثيرة منها، وهدموا عدداً كبيراً من

---

[1] جهاد المماليك صـــ95.

[2] جمع التواريخ (2 ــ 307 ــ 308)، جهاد المماليك صـــ96.

أبراجها، وأتلفوا سائر ما بها من الآلات والعدد[1].

جـ. تسليم حماه:

أما مدينة حماه فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى برزة ليتجهز مع الملك الناصر، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حلب أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاكو، يسألونه العطف، وسلموا له البلد، فأعطاهم الأمان، وجعل عندهم شحنة من قبله، أما قلعة حماه فيبدو أن ما حل بحلب وأهلها وقلعتها من الأهوال فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول[2]. وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه، وغيرها من البلدان المجاورة، أصبح إستيلاءهم على بقية مدن الشام مسألة وقت، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال والفزع والخوف، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين، ففي الأسابيع القليلة التالية، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة إتمام الإستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في إنتخاب الخان الجديد[3]، السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف غزة، وبيت جبريل، والصلت، وبعلبك وبانياس وغيرها، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ما قدروا عليه، ثم عادوا إلى دمشق، فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن[4].

---

[1] دول الإسلام للذهبي نقلاً عن جهاد المماليك صـــ97.

[2] المختصر (3 ــ 201)، جهاد المماليك صـــ97.

[3] جهاد المماليك صـــ97.

[4] أخبار البشر (3 ــ 202)، جهاد المماليك صـــ98.

ت ـ موقف النصارى في الشام:

جاءت سيطرت المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام، إذ أنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل[1]، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري، ولعل وصية منكو خان لأخيه هولاكو التي نصت على إستشارة هولاكو لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك، وقد أدى وجودها في ركاب زوجها هولاكو إلى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول، إذ المعروف أن النساطرة إزداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا إلى حد قيادة الجيوش المغولية، فكيتوبوقا كان من عنصر النايمان النساطرة، وكان من الطبيعي أن يتآخى هؤلاء النساطرة مع الجماعات الأرمينية واليعاقبة وغيرهم التي تكاثر عددها في كبرى مدن الشام[2]، وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في إقتحام مدن الشام، وهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك أرمينية هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قرون ثلاث أمراء مسيحيين هم: كيتوبوقا وهيثوم وبوهيمند يشقون بمواكبهم شوارعها[3]، ويصح أن نؤكد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام إتخذ طابعاً صليبياً، وقد ذكر أن هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاشليق الأرمني ومنحه البركات، ولما كان هيثوم الأول ملك أرمينية

---

[1] المغول للعريني صـــ248.

[2] المغول صـــ248 للعريني.

[3] المصدر نفسه صـــ248.

الصغرى في إتصاله مع المغول يتحدث بإسمهم وإسم صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا الصليبي فإن هذه الحملة قد إتخذت صفة حملة صليبية أرمينية ـ مغولية[1]، والواقع أن سقوط المدن الثلاث الكبرى، بغداد وحلب ودمشق في أيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وترتب على سقوط دمشق في أيدي المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد والشموخ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة، ولم يخف القائد المغولي كيتوبوقا نفسه ما يكنه من الميل نحو هؤلاء المسيحيين وتردده إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى هولاكو وأحضروا من عنده ((فرماناً)) ينص على الاعتناء بأمرهم ودخلوا به البلد وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بإرتفاع دينهم وانتضاع دين الإسلام، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين وأبواب المساجد وألزموا المسلمين في حوانيتهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أهانوه وأقاموه غصباً، وطافوا وهم يحملون الصلبان ويدقون النواقيس في الشوارع إلى كنيسة مريم، وقام بعضهم أثناء المسيرة بإلقاء الخطب فبجل دين المسيح وانتقص دين الإسلام، وضجر المسلمون من ذلك وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم إلى نائب هولاكو بالقلعة، فلم يستجب لشكواهم وأخرجهم من القلعة بالضرب والإهانة، وأخذت نائب هولاكو موجة من الإهتمام بالنصارى ـ فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم، فاشتدت ثائرة المسلمين، للانتقام لمقدساتهم، فقاموا باحراق كنيسة مريم، وخربوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة[2].

ويمكن القول أن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية، الذي أثمر استيلائهم على بلاد الشام، وتحطيم استحكاماتها، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم، كان أحد العوامل التي

---

[1] المصدر نفسه صـ242.

[2] جهاد المماليك صـ 102، البداية والنهاية (17 ـ 398).

دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر واستنفار كامل قواهم، ومن ثم إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت[1].

5 ـ نهاية السلطان الناصر الأيوبي:

أصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جنده ومماليكه هذه الحال، قرروا تنحيته باغتياله أو القبض عليه، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز لشهامته[2]، وعلم الناصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً بالليل إلى قلعة دمشق، فأسقط بيد مماليكه الناصرية، وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزة[3]، وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدى أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتتار لا يهدؤون وقد انضم إليهم ـ علناً ـ الأشرف بن المجاهد، فأعادوا له حمص وأعمالها وكذلك الملك السعيد بن عبد العزيز، حيث أطلقه هولاكو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقلعتها التي تعرف بالصبيبة[4]، فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد تضلَّلت العسكر، وتصرمة، وقلت الحرمة، وطمع كل أحد، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل، وسار الملك الناصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المظفر قطز للقاء التتار، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، وأهلها على الاسوار يشتمونهم ويدعون عليهم ويقولون: تركتمونا طعمة للتتار، لا كتب الله عليكم السلامة[5]، وعبر الزين الحافظي إلى دمشق

---

[1] جهاد المماليك صـ 102.

[2] السلوك للمقريزي (1 ـ 512)، جهاد المماليك صـ 74.

[3] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 ـ 74).

[4] المصدر نفسه (2 ـ 74).

[5] المصدر نفسه (2 ـ 74).

وأغلق أبوابها وسيّر الناصر طلبه، ليجتمع به، فامتنع عن الخروج إليه وجمع أكابر دمشق، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاكو[1]، وسار الناصر ومعه المنصور محمد صاحب حماه، فوصل نابلس، حيث ترك بها حامية، ولما وصل غزة، انضم إليه مماليكه الفارون وتصالح مع أخيه غازي، وعلم الناصر في غزة أن التتار قد احتلوا نابلسن فقصد العريش، وأرسل يخبر قطز ويسأله الاجتماع لمواجهة التتار، ويبدو ان جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر((فاستراب الناصر باهل مصر))[2]، وكان قد بلغ قطية((فخاف الناصر دخول مصر فيُقبض عليه))[3]، فسمح الناصر لمن يريد من مرافقيه دخول مصر، فحزم المنصور محمد أمره ودخل المنصور والعسكر مصر، فالتقاهم قطز، واحسن للمنصور، وأعطاه سنجقاً ودخلوا القاهرة[4]، وأما الملك الناصر، فقد أعمته الحيرة فيما يفعل؟ واين يتوجه؟وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز، ثم عدل إلى ناحية الكرك، فتحصن به، ولكنه قلق، فركب نحو البرية، واستجار ببعض أمراء الأعراب[5].وربما بسبب الطمع، أو نيل الخطوة لدى التتار، قام واحد من مرافقيه وخدمه هو حسين الطبردار الكردي[6]، بالتوجه إلى إحدى سرايا التتار التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر ((فقصدته التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموال، وخرّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي وقتلوا

---

[1] اخبار الأيوبيين ابن العميد صـــ 51، العلاقات الدولية (2 ــ 74).
[2] العلاقات الدولية (2 ــ 75)ن نقلاً عن تاريخ ابن خلدون.
[3] المختصر (3 ــ 201)، العلاقات الدولية (2 ــ 75).
[4] عقدة الجمان للعيني (1 ــ 232)، العلاقات الدولية (2 ــ 75).
[5] البداية والنهاية (13 ــ 233)، العلاقات الدولية (2 ــ 75).
[6] هو الحارس الشخصي للسلطان.

منهم خلقاً وسبوا نسلهم ونساءهم وقبضوا على الملك الناصر وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد وابنه العزيز محمد بن يوسف وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين الذي سيّره بدوره إلى هولاكو وأقام الناصر عند هولاكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت، فقام هولاكو بقتل الناصر ثم قتلوا بقية من كان معه ولم ينج من نقمة هولاكو إلا العزيز محمد بن الناصريوسف لصغر سنه حيث بقي عند التتار حتى مات[1].

---

[1] العلاقات الدولية (2 ــ 76)، شفاء القلوب صـــ 420.

المبحث الثاني:
مقدمات معركة عين جالوت وسير أحداثها

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في ايدي المغول وحلفائهم ان عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الاراضي المصرية، وقد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الاهوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك وأن الشيء الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم، وإعادة تنظيم جموعهم ومن ثم بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك والواقع أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة[1].

أولاً: **احتلال مصر هدف استراتيجي للمغول**:

إن المتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين أن مصر هدفاً استراتيجياً للمغول وذلك لعدة اسباب منها:

1 ــ سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

2 ــ لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر،فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.

3 ــ الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الاهمية، فهي في قلب العالم القديم، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

---

[1] جهاد المماليك صـــ 105.

4 ــ احتلال مصر بوابة لشمال افريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير، قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

5 ــ القوة البشرية في مصر، والطاقات الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

6 ــ مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية، وحمية دينية، وتجمع للعلماء والفقهاء الفارين من هول المغول، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي[1].

6 ــ رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك، ثم أن القرار باحتلال مصر أخذه امبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري الإمبراطورية المغولية.

ثانياً: خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف الإسلامي:

بات سيف الدين قطز يدرك ادراكاً تاماً أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزوالمغولي للممالك الإسلاميةالذي استشرى خطره، وأن يثبت انه بحق أهل للثقةالتي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك[2]، ولكي تتوحد الصفوف أمام الازمة اتخذ سيف الدين قطز الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:

جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول وأجمع الحاضرون على أن

---

[1] جهاد المماليك صــ 105،106.

[2] المصدر نفسه صــ 207.

الملك المنصور علي بن المعز أيبك الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية لم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الاخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر، لذا قرروا عزل السلطان الصغير[1]، وقال للحاضرين: إني ما قصدت(أي من السيطرة على الحكم) إلا نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك.فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالامر لكم، اقيموا في السلطة من شئتم[2]. فاستطاع قطز أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة وفوق ذلك أعلن بوضوح أنه سيجعل الأمر في الناس، يختارون من يشاءون دون التقيد بعائلة معينة أو مماليك بذاتهم[3]، وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال وأن الانتصار لهذا الدين ورغبته في قتال التتار إعلى بكثير من رغبته في الملك وقد جعل الله نصر الامة على يديه، وليس من سنة الله ــ عز وجل ــ أن يكتب نصر الامة على يد المنافقين، والفاسدين قال تعالى:"إن الله لا يصلح عمل المفسدين" ((يونس:آية:81)).ومع أن قطز ــ رحمه الله ــ قد استخدم الاخلاق الرفيعة، والاهداف النبيلة في تجميع القادة والعلماء حوله، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الادارة وعن أخذه بأسباب النصر واختيار الفريق المساعد له وابعاد من يراه مناسباًفعزل الوزير((ابن بنت الاعز)) المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر، وولىّ بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو((زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع)) وحفظ الامانة ووسد الأمور إلى أهلها، وأقر قائد الجيش في مكانه وهو ((فارس الدين أقطاي الصغير الصالح)) مع أنه من المماليك البحرية الصالحية، إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية وأمانة وصدق وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة،

---

[1] المصدر نفسه صــ 105.

[2] قصة التتار صــ 245.

[3] المصدر نفسه صــ 246.

وهذا ذكاء سياسي من قطز فهو بذلك يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا، ويبث الإطمئنان في نفوسهم، وهذا ــ ولا شك ــ سيؤدي إلى إستقرار الأوضاع في مصر، كما أنه سيجعل للمسلمين تستفيد من الخبرات العسكرية النادرة للماليك البحرية، كما قام قطز بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا علىسلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر، وعلم قطز أن الناس إن لم يشغلوا بالجهاد شغلوا بأنفسهم، ولذلك فبمجرد أن إعتلى على عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يجهزا الجيش، ويعدا العدة وينظما الصفوف، فانشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو، لقد ساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي، وإنشغل الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر[1].

الخطوة الثانية: العفو الحقيقي:

أصدر السلطان قطز قراراً بالعفو العام (الحقيقي) عن كل المماليك البحرية، لقد مر بنا كيف أنه قد حدثت فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (652هـ)، عندما قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين آيبك، ثم شجرة الدر، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية ــ وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس ــ فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمرا الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير، فلما إعتلى قطز عرش مصر أصدر قراره الحكيم بالعفو عن المماليك البحرية وبدعوتهم إلى

---

[1] جهاد المماليك صـ248.

العودة إلى دولتهم[1]، وإستطاع قطز أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول[2]، وكان سيف الدين قطز قد أدرك أهمية كسب ركن الدين بيبرس لصف المقاومة لأمور منها:

أ ــ الكفاءة القتالية العالية جداً، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس، والحمية الإسلامية لهذا القاد الفذ.

ب ــ الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس، والذي سيحاول قطز أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية.

جـ ــ ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس، وأنه إن ظل هارباً فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس في صفه، ويعظم قدره ويستغل قدراته وإمكانياته، وبذلك يضمن إستقرار النفوس وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من الدخول في معارك جانبية لا معنى لها.

لذلك لما قدم بيبرس إلى مصر بعد إستقدام قطز له، عظم قطز من شأنه جداً وأنزله دار الوزارة وعرف له قدره وقيمته وأقطعه (قليوب) وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه فيما بعد، فنلاحظ من صفات قطز القيادية، العفو عند المقدرة وإنزال الناس منازلهم، والفقه السياسي الحكيم، والحرص على الوحدة، وقد إستطاع سيف الدين قطز أن يستفيد من طاقات المماليك البحرية وإمكانياتهم وتقوية

---

[1] قصة التتار صـــ249.

[2] جهاد المماليك صـــ106.

الجيش بهم[1]. وفتح أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي، فدخل جموع الخوارزمية الفارة من وجه المغول لمصر، ورحب بهم سيف الدين قطز، وكذلك جموع الشام، ومعه الملك المنصور صاحب حماه[2] وغيرهم.

الخطوة الثالثة:

حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية، فقد كانت العلاقة بين المماليك والأيوبية متوترة إلى حد كبير، بل أن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام أو على الأقل تحييد أمراء الشام، ليخلو بينهم وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره، فتواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي وعرض عليه أن يكون تابعاً للناصر ثم أن قطز ــ رحمه الله ــ علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة أو في أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر والشام، قال قطز في أدب جم وخلق رفيع: وإن إخترتني خدمتك وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره[3]. لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءات النبيلة من قطز، وآثر التفرق على الوحدة، فماذا كانت النتيجة؟ سقوط حلب ودمشق، ووقوع الملك الناصر في الأسر ثم قتله بعد عين جالوت، ولم يكتف قطز بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل

---

[1] قصة التتار صــ253.

[2] جهاد المماليك صــ106.

[3] قصة التتار صــ255.

راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماه والتحق بعض جيشه بقطز، وأما المغيث عمر صاحب الكرك بالأردن فقد آثر أن يقف على الحياد، وقد حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصده قطز في المرتين، وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الإستجابة تماماً لقطز، وفضل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكم باسم التتار، وأما الأخير وهو الملك السعيد ((حسن بن عبد العزيز)) صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل إنضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين، وهكذا استطاع قطز أن يكسب أمير حماه المنصور وانضم إليه جيش الناصر، وحيَّد إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك، وبذلك يكون قد إنضم الكثير من الجنود الشاميين مع سيف الدين قطز[1].

الخطوة الرابعة:

أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم، لتخوفه من إنضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الإسلامية بإجتياز بلادهم وشرا ما تحتاجه من المؤن، والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعن أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر إستعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا

---

[1] قصة التتار صـــ258.

عليه[1]، واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم، وجعلته في مأمن من ذلك الجانب، وتجنب خطر إشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة[2].

الخطوة الخامسة: **تحكيم الشريعة في أموال الحرب**:

كانت النفقات للإعداد كبيرة، من تجهيز الجيش، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد طاحنة، وليس هناك وقت لخطة خمسية أو عشرية، والتتار على الأبواب وقد وصلوا غزة والدولة تحتاج للأموال، فجمع سيف الدين قطز مجلسه الاستشاري ودعا إليه إلى جانب الأمراء والقادة والعلماء والفقهاء وعلى رأسهم سلطان العلما الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأوا يبحثون عن حل لتجهيز كتائب المسلمين، واقترح سيف الدين قطز، أن نفرض ضرائب لدعم الجيش[3]. إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام تحفظ على هذا المقترح ولم يوافق عليه إلا بشرطين واصدر هذه الفتوى: إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة)، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب، وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات والآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما

---

[1] السلوك (1 ــ 430)، جهاد المماليك صـــ108.

[2] جهاد المماليك صـــ109.

[3] قصة التتار صـــ281.

في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات فلا[1]. فقد بين الشيخ العز بن عبد السلام، بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي بتجهيز الجيش ليس أكثر من ذلك[2]. لقد قبل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ببساطة وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال وضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش، فقرر قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار[3]. فجمع بذلك الأسلوب الفريد للمال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه[4]. وكان هذا العمل الجليل من اسباب النصر في عين جالوت قال تعالى"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد، آية : 7) ونصر الله لا يكون إلا بتطبيق شرعه، والجيش المسلم الذي يبتعد عن شرع الله يكون بعيداً عن نصر الله عز وجل، إن ما قام به سيف الدين قطز في الاستمتاع لرأي الشيخ العز بن عبد السلام ثم تنفيذه ترتب عليه شحنة معنوية قوية شحذت همم الناس للجهاد

---

[1] بداع الزهور (1 ــ 302)، جهاد المماليك صــ110.

[2] قصة التتار صــ283.

[3] بدائع الزهور (1 ــ 305)، جهاد المماليك صــ110.

[4] الأيوبيون بعد صلاح الدين صــ439 للصلابي.

وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إذ يمكن القول أن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام، في ذلك الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية، أدت الدور نفسه الذي كانت الخلافة ستؤديه فيما لو كانت قائمة، إذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ما قرر عليهم من أموال، مستشعرين بأن ذلك وأجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف[1]، وكان الشيخ العز بن عبد السلام وعلماء مصر يحثون الناس في سبيل الله تعالى، ووعظ الأمراء والحكام وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى بذل الجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزَّت البلدة بالهتاف والتكبير، وصار كل مسلم يشتهي الوصول إلى المعركة، وهذا درس مهم في أهمية التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار[2].

ثالثاً: **رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز**:

أرسل هولاكو رسالة إلى سلطان مصر كلها تهديد ووعيد قال فيها: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم، باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم يتنعمون بانعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، وأسلموا إلينا امركم، قبل أن ينكف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرفق لمن شكى قد

---

[1] جهاد المماليك صـــ110.

[2] المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين الدكتور عبد الحليم عويس صـــ122 ـــ 125.

سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتلنا لاتنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة والهوان "فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير حق وبما كنتم تفسقون" "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خلفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم ان نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير المذلة ما لملوكم علينا من سبيل، فلا تطيلو الخطاب، واسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون مناجاها ولا عزاً ولا كافياً ولا حرازاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منا خالية، فقد انصفناكم إذ راسلناكم، وايقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هُلاوُن[1] قد أتى

بحدّ سيوف تُنضى وبواتر

يصير أعز القوم منا أذلة

ويُلحق أطفالاً لهم بالأكبر 1

---

[1] السوك للمقريزي(514،515/1) صيغة لاسم هولاكو.

1 ـ **مجلس شورى حربي**:

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القرون الطوال، كل المؤشرات كانت تقود إلى الإستلام للتحدي والإذعان لضروراته.. ولكنه الإيمان له منطق آخر، أنه لا يمنح القدرة عل الحركة في ظروف الشلل التام، فحسب، لكنه بصيرة تخترق حجب العمى والظلام، لكي تطل على الأفق يشع ضياء، وبالحركة القديرة، والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته، فتخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق[2]، قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم وجرى هذا الحوار:

قطز: ماذا ترتؤن؟

ناصر الدين قميري: إن هولاكو فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حكم العقل، أنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهولا يتورع عن إحتراز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل.

قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات الفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً، وقضى

---

[1] المصدر نفسه(515/1)، أبطال ومواقف صــ441.

[2] دراسات تاريخية عماد الدين خليل صــ84.

على جميع ما فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد، وينبغي أن تختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحد من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلا المغرب، وبيننا وبينهم مسافات بعيدة[1].

قميري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعودهم[2].

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقضيه رأيك.

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كتبغا ـ قائد المغول ـ متضامنين، فإذا إنتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في تلك الحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافة هذا الرأي، وكان على قطز أن يتخذ قراره وقد إتخذه فعلاً[3].

2 ـ النفير العام:

وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول، فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله صى الله عليه وسلم، وطالب الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد

---

[1] سيف الدين قطز قاهر المغول، نور الدين خليل صـــ112.

[2] المصدر نفسه صـــ114.

[3] دراسات تاريخية صـــ85.

منهم من إختفى يضرب بالمقارع، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية، حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية، ومن إنضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة 658هـ/يوليو1260م[1]، وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، وهنا يبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول وامتنعوا عن الخروج، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن إختار الجهاد يصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين[2]، وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله: "أنا ألقي التتار بنفسي" لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة، وانقضى الجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر[3].

3 ـ **قتل سفراء هولاكو**:

وكان أول إجراء قام به المظفر قطز ضد المغول هو إستدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالاً جافاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه، وكانت

---

[1] السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ120.

[2] المصدر نفسه صـ120.

[3] المصدر نفسه صـ120.

تلك الرؤوس أول ما علق على باب زويلة من المغول[1]. ويبدو أن قطز اعتبر الرسل محاربين وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم، حيث أن المغول قتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين، وبأعداد لا تحصى في سمرقند وبخارى وبغداد وحلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين، كما أن رسل التتار أغلظوا القول وأساؤوا الأدب وتكبروا عليه وكان الهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسية رفع معنويات الناس وإعلان الحرب على التتار وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل، وهذا يؤثر سلباً على التتار فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل هو قطع التفكير في أي حل سلمي للقضية والاستعداد الكامل الجاد للجهاد، فبعد قتل رسل المغول لن يقبل التتار باستسلام مصر حتى لو قبل بذلك المسلمون، كان هذا هو إجتهاد قطز والأمراء في قتل رسل المغول، ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام، حيث أن الرسل لا تقتل، لا رسل المسلمين، ولا رسل الكفار، ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام[2]، فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، يقول عبد الله بن مسعود: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي صلى اله عليه وسلم فقال لهما: "أتشهدان أني رسول الله؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما[3]، يعلق عبد الله بن مسعود على هذا الحديث فيقول: مضت السنة أن الرسل لا تقتل[4]. وهذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة

---

[1] تاريخ الدولة المغولية في إيران صـــ144، جهاد المماليك صـــ120.

[2] قصة التتار صـــ278.

[3] مسند أحمد، وسنن أبي داوُد، نقلاً عن قصة التتار صـــ279.

[4] قصة التتار صـــ279.

الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين[1]. وما حدث من سيف الدين قطز، مخالف لأحكام الشريعة والكمال لله وحده.

رابعاً: اليوم الفصل:

1 ـ مقدمات الصدام:

لم يعد أمام المظفر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى إختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها، وهنا تبدو لنا إستراتيجية جديدة إتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين إبتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم إنتظار لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين الذي يمتاز بقربه من المناطق الساحلية الذي كان يسيطر عليها الصليبيون، الذين أبدوا إستعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه، هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل[2]، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة، يكون القتال في منطقة منبسطة، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماة لأداء واجبهم عل الوجه الأكمل، كما أن إختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك، للاستبسال والتفاني في الجهاد وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه

---

[1] نيل الأوطار للشوكاني نقلاً عن قصة التتار صـــ279.

[2] الروض الزاهر لابن عبد الظاهر صـــ64، جهاد المماليك صـــ116.

الجيوش، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام، كما إختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة للتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة[1]، للتقليل من نشاطهم القتالي لكونهم لم يعتادوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت[2].

2 ـ **تحرك جيوش المسلمين**:

طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام[3]، وقال لهم: يا مسلمين قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة[4].

3 ـ **معركة غزة**:

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان 658هـ /يولية

---

[1] تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ12، جهاد المماليك صـ116.

[2] جهاد المماليك صـ116.

[3] المصدر نفسه صـ121.

[4] نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ 263.

1260م واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية في غزة وكانت هزيمة قاسية لهم، واكتشف المغول أن هناك من المسلمين من يتحرك من خلال خطط عسكرية، وأبعاد استراتيجية، وأنه لا زال من المسلمين من يحمل السيوف للدفاع عن دينه وأرضه وشرفه وكرامته، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك بالنسبة للمسلمين، فقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة التي كانت تقول: من قال لك أن التتار يهُزمون فلا تصدقه، وكان لهذه الموقعة أثر ايجابي على جيش المسلمين وكان لها أثر سلبي هائل على جيش التتار[1]. واصبحت غزة ملكاً للمسلمين وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول كما يمكن القول أن هذا الانتصار الذي تحقق للمسلمين كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت للقاء المغول في موقع أفضل خاصة وأن تلك الهزيمة التي مني بها جيش الأمير المغولي بأيدر لم تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جموده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت وكان هذا الانتصار من الأسباب التي جعلت الصليبيين تحرص على خطب ود المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين[2]، ولما رحل سيف الدين قطز من غزة سلك طريق الساحل فاجتاز مدينة عكا وهي يومئذ بيد الفرنج، فلما عاينوه، وأرسلوا له الهدايا والتحف والضيافات، وألتقاه ملوكها فأعرضوا عليه أن يأخذ معه نجدة فلاطفهم السلطان وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وما له حاجة بنصرتهم وقال لهم: والله العظيم متى تبعهم منهم فارس أو راجل ــ يريد أذى عسكر المسلمين ــ قتلتكم قبل ملتقاي

---

[1] قصة التتار صـــ 301.

[2] جهاد المماليك صـــ 121.

التتار وقد عرفتكم ذلك، عند ذلك كتب الملوك إلى اتباعهم بما سمعوه[1]،ورفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صبغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصبغة إسلامية خالصة، كما أن هذا يشير إلى رغبة قطز ومشروعه الجهادي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم[2].

4 ـ معلومات استخبارية مهمة:

قاد السلطان قطز جيشه واقترب من عين جالوت، وبينما هو في الطريق جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات استخبارتية لسيف الدين قطز، مرسل من قبل صارم الدين أيبك وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه، أم قبل ذلك مضطراً وهو يعد العدة لينفع المسلمين فهذا بينه وبين الله عز وجل، ولكن في موقعة عين جالوت قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز ـ العلومات التالية:

أ ـ جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

ب ـ ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

---

[1] نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـــ 263.

[2] جهاد المماليك صـــ 122.

ج ــ أن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته،ومع صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين..أي أن الرسالة تقول أن الاشرف الأيوبي قد راجع نفسه وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم[1]. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أوتهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان 658هـ وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء[2].

5 ـ **الاشتباك مع المغول**:

كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحديد مكانه، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـ / سبتمبر 1260م حيث ألتقى الجمعان وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ايذاناً ببدء الهجوم[3]، كان الجيش المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس، ولما لبث كتبغا أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة

---

[1] قصة التتار صـ313.

[2] المصدر نفسه صـ 313.

[3] جهاد المماليك صـ 122.

وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت[1] وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، ثم اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة[2]، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته((وأسلاماه)) وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره، ولم تنقضي سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان،وسحقت زهرة القوات المغولية، ومر العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار،والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((وأسلاماه)) ثلاث مرات: يا الله انصر عبدك قطز على التتار)) فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت ايديهم بالغنائم[3]، واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة فلول المغول حتى افامية فوجدهم قد تجمعوا بها ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم اموالاً طائلة وخيولاً كثيرة[4].

6 ـ شجاعة القائد المغولي:

ورغم الهزيمة القاسية التي مُني بها المغول في هذه المعركة فإن

---

[1] دراسات تاريخية صـــ 87.

[2] جهاد المماليك صـــ 123.

[3] دراسات تاريخية صـــ 88.

[4] جهاد المماليك صـــ 124.

أحد المؤرخين المسلمين وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني، لم ينكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة، فعندما اقترح عليه أحد اعوانه الإنسحاب أجاب: علينا أن نموت هنا، هذه هي النهاية ويعيش الخان ويسعد[1]، وفي رواية: لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهروب مع الذل والهوان، وسيصل رجل واحد، صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً: إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه، وينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور، فليدم اقبال الملك، مادامت نفسه الشريفة آمنة سالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والاتباع أمر سهل يسير[2]، كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الاسر، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ودار بينهما حواراً بداه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله: أيها الرجل الناكث العهد ها انت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الابطال والعظماء بالوعود الكاذبة، وهدمت البيوتات العريقة بالاقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشرك. وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج، فأجاب قائلاً: أيها الفخور المغتر، لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا، فأنا إذا قُتلت على يديك فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك، فلا تُخدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغرور العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى

---

[1] سيف الدين قطز قاهر المغول صـــ 138.

[2] جامع التواريخ (2 ــ 314)، جهاد المماليك صـــ 124.

ديار مصر، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك، إن لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا، فأفرض أنه نقص واحد منهم، فقال له قطز: لا تفخرإلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة[1]. فرد عليه كيتوبوقا: إني كنت عبداً للملك ما حييت ولست مثلك ماكراً وغادراً... بادر بالقضاء عليّ بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تأنيبك. فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده، ولما بلغ هولاكو خان نبأ نعي كيتوبوقا، وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف أسفاً شديداً على وفاته، واشتعلت نيران غضبه وقال: أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه[2]. وبالرغم مما يعرف به رشيد الدين من محاباة للمغول، فإنه لا يمكن أن ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، وخبيراً بالحروب وافتتاح الحصون، وكان هولاكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به، وبموته استراح الإسلام منه، حيث كان شر عصابة على الإسلام وأهله[3]. وعلق نور الدين خليل على شجاعة القائد المغولي والقصص المنسوبة إليه فقال: وننظر إلى تلك الروايات ببالغ الريبة، بل والإنكار، فكيف حصل الهمذاني على رسالة شفهية حملها مجهول بلغة مغولية، بطبيعة الحال، هذا إن كانت هناك رسالة أصلاً وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى، لا شك أن تلك الروايات محض اختلاف وتصور خيال، حتى وإن رددها المؤرخون الواحد تلو الآخر، سواء مؤرخو العرب أو الغرب[4].

---

[1] جامع التواريخ (2 ــ 315 ــ 316)، جهاد المماليك صـــ 125.

[2] المصدر نفسه (2 ــ 315 ــ 316)، المصدر نفسه صـــ 125.

[3] النجوم الزاهرة (7 ــ 91)، المغول للعريني صـــ 361.

[4] سيف الدين قطز قاهر المغول صـــ 141.

7 ـ تحرير دمشق وبلاد الشام:

لم تنته مهمة الملك المظفر بعد ما زال هناك تتار في دمشق، وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً من عين جالوت إلي الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير وكان مما جاء في هذه الرسالة: أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله، استطالوا على الايام وخاضعوا بلاد الشام واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الاصيل، وصار اليوم كأمس ونُسخت آية الليل بسورة الشمس إلى أن تراءت العين بالعين واضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضوا ويترك في بطن كل من المشركين شلوا، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم((وما ربك بظلام للعبيد))[1]. وصل الخبر لأهالي دمشق قال ابن كثير: واتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون ويأسرون وينهبون الاموال فيهم ويستفكون الاسارى من أيديهم قهراً ولله الحمد والمنن على جبره الإسلام

---

[1] قصة التتار صـــ 338 صبح الأعشى(7 ـــ 260 ـــ 262).

ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتها البشائر من القلعة المصورة وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكُبت أعداء الله النصارى واليهود والمنافقون وظهر دين الله وهم كارهون ونصر الله دينه ونبيه ولو كره الكافرون، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها، فأحترقت دور كثيرة للنصارى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان، كما كان من عبدة الصُلبان، وقتلت العامة في وسط الجامع شيخاً رافضياً، كان مصانعاً للتتارعلى أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف الكنجي، كان خبيث الطوية ممالئاً لهم على أموال المسلمين وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" ((الأنعام:آية: 45))[1].

8 ـ وصول سيف الدين قطز إلى دمشق:

في اليوم الثلاثين من رمضان سنة 658هـ وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والاطفال، يستبلون البطل المظفر وهذه هي الفرحة الحقيقية قال تعالى:"قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"((يونس: آية: 58))، فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان، ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، لم يحدث شيء مما يقع عند دخولالمستعمرين البلاد واستقر الوضع بسرعة وحفظ الاعراض والنفوس والاموال لكل

---

[1] البداية والنهاية (17 ــ 402).

الساكنين من نصارى ويهود وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان مواليا لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة، وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر وهوله طعمه الخاص ومكانته المتميزة، لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين قال تعالى"وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم"((التوبة: آية: 40)).

لم يضيع قطز وقتاً بل ارسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية[1]، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفر المغول بحياتهم وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الاسرى وعرّجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه[2].

واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ــ رحمه الله ــ في سنة 648هــ وخُطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم[3].

---

[1] قصة التتار صــ 340.

[2] السلوك (1 ــ 518).

[3] قصة التتار صــ 341.

9 ـ ترتيب أمور الولايات الشامية:

شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي[1]، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي وبعث إليه الاشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له، كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة 635هـ ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر[2].

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفي اليوم السادس

---

[1] السلوك (1 ـ 518).

[2] السلوك (1 ـ 518)، مملكة حماه الايوبية عدنان سعد الدين صـ 100.

والعشرين من شوال 658هـ توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر[1] كان أجل سيف الدين قطز قد حان واقترب الرحيل من هذه الحياة وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله تعالى.

10 ـ **موقف هولاكو من الهزيمة**:

رغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو نفسه فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتوبوقا، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث، فتأثر لذلك وحاول أن يمحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بارسال حملة جديدة إلى الشام، في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك[2]، إذ لم يستطع التقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الاعظم في قراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الاعظم إلا أن اصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك ـ على ما يبدو ـ رفع معنويات هولاكو وجيوشه وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة 663هـ /1265م فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته[3].

---

[1] السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده صـ 141.

[2] جهاد المماليك صـ 131.

[3] جهاد المماليك صـ 132، جامع التواريخ (2 ـ 336).

11 ـ ما قيل من شعر في عين جالوت:

نظم شهاب الدين محمود قصيدة مدح فيها الأمير الظاهر بيبرس بسبب انتصار المسلمين في عين جالوت فقال:

سر حيث شئت لك المهيمن جار
واحكم فطوع مرادك الاقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته
يارُكنه عند الاعادي ثارُ
لما تراقصت الرؤوس وحركت
من مطربات قسّيك الاوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى
بحرا سواك تقله الانهار
وتقطعت فرقاً ولم يك
طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشّت دماؤهم الصعيد فلم يطر
منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى
والتُربُ والآساد والاطيار
هذي منعت وهؤلاء حميتهم
وسقيت تلك وعمّ ذا الإيسارُ
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً
تبقى بقيت وتذهب الاعصارُ[1]

وقال شرف الدين الانصاري من قصيدة يمدح فيها الملك المنصور الثاني الايوبي صاحب حماه الذي كان مع جنده إلى جانب المظفر قطز في

[1] الادب العربي من الانحدار إلى الازدهار صـــ 166.

معركة عين جالوت:

رُعت العدى فضمنت شل عروشها
ولقيتها فأخذت فلّ جيوشها
نازلت أملاك التتار فأنزلت
عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كُماتها
حصد المناجل في يبيس حشيشها
روّيت أكباد القنا بدمائهم
لما أطال سواك في تعطيشها
أقدمت مقتحماً على نُشّابها
تكسو الجياد رِياشها من ريشها
دارت رحى الحرب الزُّبون عليهم
فغدت رؤوسُهُم حطام جريشها
وطويت عن مصر فسيح مراحل
ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها
من رُومها الاقصى إلى أُحبوشها
فرشت حماة لِوَطء نعلك خدّها
فوطئت عين الشمس من مفروشها
وكذا المعرّة إذ ملكت قيادها
دَهِشتَ سروراً سار في مدهوشها
لا زلت تُنعش بالنّوال فقيرها
وتنال أقصى الأجر من منعوشها[1]

---

[1] الادب العربي من الانحدار إلى الازدهار صـــ 157.

وقال بعض الشعراء في عين جالوت:

هلك الكفر في الشام جميعاً
واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الاروع
سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاء بعزم وحزم
فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا
دائماً مثل واجبات فروضه[1]

خامساً: **مقتل سيف الدين قطز**:

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع ــ على العالم الإسلامي ــ وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز[2]، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير[3]، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، بإقليم الشرقية بمصر وهناك أقيم الدهليز السلطاني((الخيمة السلطانية))، وفي الوقت نفسه بلغت توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس، وتجدد الخلاف القديم، وأخذ كل واحد منهم حذره وحيطته، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه

---

[1] الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي صـــ 114.

[2] مصر والشام في عصر الايوبيين، سعيد عاشور صـــ 186.

[3] بلدة القصير:

هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية.

من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان[1]، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدغان الرّكني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، فلما قرب إلى القصير بين الغرابي والصالحية، انحرف عن الدرب للصيد، فلما قضى وطره[2]، عاد قاصداً إلى الدهليز، سايره الأمير ركن الدين وأصحابه وطلب منه إمرأة من سبي التتار فأنعم له بها فأخذ الظاهر يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما رأوه قد قبض على يده، بادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس والقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس وهو الصحيح، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يملكوه ويسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، المعروف بالأتابك[3]، فبايعه وحلف له،ثم بلبان الرشيدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب بالملك الظاهر، ثم في الساعة الراهنة قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك له: لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل، فركب هو والأمير فارس الدين والأمير بدر الدين بيسري وبلبان الرشيدي وقلاوون الالفي وبيليك الخازندار وجماعة من خواصه، وقصدوا القلعة، فلقي في طريقه الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة عند

---

[1] في تاريخ الايوبيين والمماليك صـــ 203.

[2] وطره:

حاجته.

[3] نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـــ 267.

الملك المظفر، وكان خارج للقاء استاذه، فأعلموه بصورة الحال وحلّفوه فحلف وتقدم بين يديه إلى القلعة، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها فدخلها وتسلمها، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعوده وكسر التتار، فلما أسفر الصبح وطلع النهار وإذا مناد ينادي: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[1].

1 ـ أسباب مقتل قطز:

تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى مقتل سيف الدين قطز، ونحاول أن نناقش هذه الأسباب ونبين الأقوى منها:

أ ـ يقول ابن أيبك الدواداري:

وحكى لي والدي ـ عن مخدومه سيف الدين بلبان الدوادار الرومي قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام، تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم، فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الاحقاد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة[2].

ب ـ أما المؤرخ تقي الدين المقريزي:

فيقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب، فلم يرض، فأضمرها في نفسه، ليقضي الله أمراً كان مفعولا[3].

---

[1] نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ 168.

[2] كنز الدرر (8 ـ 60)، في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ 204.

[3] السلوك (1 ـ 519)، في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ 204، الظاهر بيبرس، بيتر توراوصـ 88.

ج - أما بيبرس الدواداري:

وهو أقربهم إلى الاحداث فيقول: وذلك أنه ((قطز)) رحل من دمشق عائد إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن استاذه ما فيها لقتلهما الفارس اقطاي، واستبدادهما بالملك وإلجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها، وإنما إنحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هي[1]

وقد رجح الدكتور قاسم عبده قاسم السبب الذي ذكره المؤرخ بيبرس الدواداري واعتبره السبب الرئيسي لما حدث، فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشية، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن المهم أن نتذكر أن رابطة الخشداشية التي كانت تجمع المماليك، كانت رابطة قوية للغاية، ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز، أو بسببه من ناحية أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة في منفاهم من ناحية ثالثة[2].

وقال الدكتور أحمد مختار العبادي: أما أسباب مصرع قطز فلا شك

---

[1] زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (9 ــ 73)، في تاريخ الايوبيين والمماليك، قاسم عبده قاسم صـــ 205.

[2] في تاريخ الايوبيين والمماليك صـــ 206.

أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية، والواقع أن تلك الاسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية، وقتله زعيمهم أقطاي، إذ صار مماليك أيبك وهم المعزية ومنهم قطز، أصحاب النفوذ والسلطان في مصر، واستمر العداء بين العزية والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الإتحاد بدليل قول العيني أن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزي، لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له[1]، فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، ولم تبق هناك ضرورة للإتحاد، ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي، وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال: فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد[2]، وروى ابن أياس في هذا الصدد، ولما تم أمر بيبرس في السلطنة، رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفين في البلاد، كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزي أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس، عقب عودته إلى القاهرة، فقتل بعضهم، وسجن ونفي البعض الآخر[3]. وهذه النصوص وأن دلت على شيء، فإنما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية[4].

---

[1] عقدة الجمان، نقلا عن في التاريخ الايوبي والمملوكي للعبادي صـــ 162.

[2] السلوك (1 ــ 521).

[3] بدائع الزهور (1 ــ 99 ــ 100)ن في التاريخ الايوبي والمملوكي صـــ 163.

[4] في التاريخ الايوبي والمملوكي صـــ 163.

2 ـ الطريق إلى عرش المماليك:

كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية ــ القتل، وسفك الدماء، فقد اعتلت شجرة الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الايوبيين في مصر، كما أنها هي وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة، وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك، وتطبيقاً لمبدأ الحكم لمن غلب، الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة، كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك، ورجح الدكتور قاسم عبده قاسم أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من ألحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام، لقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك[1]، ولم تكن هناك مؤسسات شورية قوية في اختيار الحاكم، وغاب الفقه السياسي في الإسلام المتعلق باختيار السلطان، أو الملك أو الحاكم، لقد حاول السلطان قطز ارجاع الأمر إلى نصابه، ولكنه قتل قبل تحقيق ذلك، وبعد أن أستطاع أن يدحر المغول ويحرر بلاد الشام.

3 ـ نتائج مقتل قطز:

انتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول، دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك، بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له ((يا خوند إجلس أنت في مرتبة السلطنة)) وكأن عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان القتيل، وهكذا مرة أخرى

---

[1] في تاريخ الايوبيين والمماليك، قاسم عبده صــ 206.

ترسخ مبدأ ((الحكم لمن غلب))[1]، ويبدو أن هناك إجماع من المماليك البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس، وأما النتائج التي ترتبت على هذه المأساة هي:

أ ــ فكانت على الناحية السياسية تكريساً للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش وكانت تلك هي ((سنة المماليك في دولتهم)) ولم يحدث طوال مائتي وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلا، لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجاً للظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذي ظهر واضحاً منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجرة الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز، كما تكرر في سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك[2].

ب ــ مرحلة جديدة في تاريخ المماليك: وأما النتيجة الثانية الهامة، فتتمثل في الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية، بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة((بفضل الله))، ثم انجازاته السياسية والإدارية والعسكرية، فقد كانت السنوات العشر السابقة، مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين، ثم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الاثنان الآخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة

---

[1] المصدر نفسه صـــ 208.

[2] المصدر نفسه صـــ 209.

عشر عاماً، ومن ناحية أخرى، كانت دولة سلاطين المماليك في السنوات العشر الأولى من عمرها، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد، لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل ـ النافع ـ لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين[1].

جـ ـ زيادة الاعتماد على المماليك: وكانت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم في الصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت، فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة، وستمائة مملوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك واما السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم، وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثة عن السلطان السابق أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاء وغيرها[2]، وهكذا تكرست الطائفية يبين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز[3].

4 ـ **قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام عليه**:

يروى أبو المحاسن أن قطز: بقي ملقى بالعراء فدفنه، بعض من كان في خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً ...وكان كثير الترحم

---

[1] في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـ209.

[2] المصدر نفسه صـ209.

[3] المصدر نفسه صـ210.

عليه والدعاء على من قتله، فلما بلغ بيبرس ذلك أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان وعفى أثره ولم يعف خبره[1]، وقال المقريزي: ودفن بالقصير، فكانت مدّة ملكة أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القارفة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود، ويقال إن أسمه محمود بن ممدوح وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع في دمشق ثم انتقل إلى القاهرة[2].

إن قيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر ولا بكثرة المال، ولا بأبهة السلطان، إنما تقاس بالأعمال الخالدة التي تغير من وجه التاريخ، فمن قطز إذا لم يتمسك بالإسلام ويدافع عنه؟ ولا شك أن التاريخ كان سيُغفل اسمه كما أغفل اسماء الكثيرين الذين كانوا كغثاء السيل، بل كانوا وبالا على شعوبهم وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلة والأعمار المديدة ولا شك أن حفر الاسم في سجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل[3]، فالتغيير يعتمد على نوعية الرجال المغيرِّين، مع مراعاة السنن وفقه المصالح والمفاسد والسياسية الشرعية وفقه قيام الدول وسقوطها ومعرفة مسار حركة التاريخ في منحنياته المتعددة، لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى أن يضيع النصر الكبير وتنهار الأمة من جديد، لقد قال بعد موت قطز وهو يبكي بشدة: رحم الله شبابه، لو عاش طويلاً لجدد للإسلام شبابه[4]، وقال: ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز

---

[1] النجوم الزاهرة(7/86 ـ 87).

[2] السلوك(1/520).

[3] قصة التتار صـــ366.

[4] المصدر نفسه صـــ367.

ـ من يعادل قطز ـ رحمه الله ـ صلاحاً وعدلاً[1]. إلا أنني مع محبتي لسيف الدين قطز، واعترفي بجهوده العظيمة في خدمة الإسلام ودخوله نادي عظماء الأمة، فإنني أخالف شيخنا العز بن عبد السلام وأرى أن نور الدين محمود الشهيد فاقه صلاحاً وإصلاحاً وعدلاً وجهاد، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي عن عصر الدولة الزنكية لقد كان سيف الدين قطز من خيار ملوك الترك وله اليد البيضاء في القيام لدفع العدو عن ديار المسلمين[2] الشامية والمصرية.

5 ـ ردة فعل المغول لمقتل قطز:

لما بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن أقليم الجزيرة، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وابراج قلعتها واضحت مكشوفة فادرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها، وارسل نجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم، إلا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول وانهم اتجهوا إلى منبج، ويبدو أن المغول ارادوا عدم اضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة658هـ/نوفمبر 1260م وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي بايدر الذي استطاع اقتحام المدينة واخراج

---

[1] المصدر نفسه صـ367.

[2] جواهر السّلوك في أمر الخلفاء والملوك لإبن إياس صـ115.

من بها من المسلمين إلى قرية قرنبيا شرقي حلب وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وايقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية، واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف الملك السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم فتراجع إلى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها، وفيها رأى توسيع الرقعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف اعطاء نفسه فرصة كافية لحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ومعه اخوه الملك الأفضل علي ومعها عساكر حماه، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص وفي حمص اعاد الجوكندار تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى وجهزها بالعدة والعتاد استعداد لمنازلة المغول، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة 659هـ/ديسمبر 1260م حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه[1]ـ بالقرب من الرستن ابلى فيها المسلمون بلاء حسناً رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم، وفر بايدر من المعركة فيمن، سلم من جنده وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى سلمية حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماة مرة ثانية واقاموا عليها يوما واحداً، ثم رحلوا عنهاإلى أفامية، التي كان قد سبقتهم إليها فرقة من جيش المسلمين اقامت بالقلعة، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة التي اضطر العدو إلى ترك افاميه والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة

---

[1] جهاد المماليك صـ129.

المملوكية في مصر والشام، حيث سارع بارسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام، ولما سمع المغول بمقدم ذلك الجيش دخلهم الهلع والخوف فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق وطهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي[1]، واستطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذه المحن العظيمة وأثبت التاريخ بوقائعه وشواهده، أن هذه الأمة أصلب ما تكون عودة وأشد ما تكون قوة وأعلى ما تكون همة، عندما تحيط بها الشدائد، وتحل بساحتها الأزمات وتتبلد في سمائها الغيوم، فهي حينئذ تستجمع قواها وتستشير كوامنها، وتظهر ذخائرها وتقف في مواجهة الهجمات الغازية، والمحن القاسية، بإيمان صلب، وصبر جميل، وثبات نبيل وتوكل على الله حتى يجعل الله لها من عسرها يسراً ومن ضيقها فرجاً، ومن مأزقها مخرجاً ومن ظلام ليلها صبحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، وبهذا أثبتت الأمة عراقتها وأصالتها وأنها قادرة على أمتصاص الهزائم واجتياز المحن والشدائد العظام والوصول إلى بر الأمان في النهاية بسلام[2].

سادساً: أسباب إنتصار المسلمين في عين جالوت:

1 ـ القيادة الحكيمة:

أكرم الله الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة، بالسلطان سيف الدين قطز وكان رجلاً صالحاً، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى الشرب ولا شيئاً مما يتعاطاه الملوك[3]، وكان شجاعاً وبطلاً، كثير الخير، ممالئاً للإسلام وأهله وهم يحبونه[4]، وكان مقداماً حازماً حسن التدبير، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة، تتصف بصفات فذة، فقد جاءت مواهبه

---

[1] النجوم الزاهرة(7/104 ـ 106).

[2] تاريخ من المتفرى عليه للقرضاوي صـــ210.

[3] البداية والنهاية (17 ـ 405).

[4] المصدر نفسه (17 ـ 411).

موافقة لحاجات الأمة[1]، شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب وكان مهيأً نفسياً منذ نعومة أظفاره في أن يكون قائداً فذاً، يشار إليه بالبنان، ويكون صاحب شأن في مجريات الأحداث في مصر والشام، وكان يعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر بها وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول الذين أذاقوا خوارزمشاه ومن معه شراً ووطأوا بلادهم وساموهم سوء العذاب، وكان له من الصفات الجسمية ما يؤهله لأن يكون قائداً، فهو قوي البنية، مستدير الوجه، عريض الكفين، ممتلئ الجسم، أشقر، كث اللحية، وكان من البارزين في الفروسية والحاذقين في إستخدام الرمح، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثلث حتى إذا كان الرمح بين كتفي قطز أبطله وغرز رمحه في صدره لا محال[2]، ولما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك إتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية منها: الترحيب بالهاربين من المماليك، وتناسيه الضغائن والأحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم، وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قادرة على محاربة المغول وذلك سنة 657هـ/1259م، وتحضير الإمكانيات وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية ومحاولة التحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه[3]، لقد كان سياسياً إستراتيجياً مخططاً أكثر منه مقاتلاً إذ إستطاع في مدة بسيطة أن يسوس بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الأمن والسلامة والاستقرار، وأن يهيء له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الأمور الإدارية، ويعين الحكام الإداريين للمدن التي إحتلها

---

[1] سيف الدين قطز، قاسم عبده صـ164.

[2] معركة عين جالوت صـ124.

[3] المصدر نفسه صـ126.

واستردها التتار[1].

إنما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله عز وجل، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، والفطرة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلالها والعيش الصعب الذي أهله للصبر والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، والتربية التي خضع لها، وتمت عقيدته ورسخ إيمانه، وهذب نفسه، وأصلح باله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهانة بالموت، ومن الإقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكامل في الله بالنصر عليهم[2]، وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وضد الأمراء الهاربين إلى الكرك، وضد الأمراء الذين حاولوا إغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت، على أنه قائد حرب إستراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالوضوح والدقة، والنظر الثاقب، وجلاء الهدف، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول، وهو حازم وقت الشدة ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه، ومتفهم لقدرة عدوه ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه، ويدقق المعلومات ويحافظ على مرؤوسيه ويستميلهم بأسلوبه الجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطيهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء، وكان منظماً قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة والميسرة بالإلتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الأجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو، مما جعله يتمكن من عدوه،

---

[1] فوات الوفيات (268/2) معركة عين جالوت صـــ126.

[2] شذرات الذهب نقلاً عن معركة عين جالوت صـــ127.

ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة الميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول، ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشئون الإدارية في الجيش المملوكي، إذ إستطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة بخاصة فيما يتعلق بحركتيها وخفتها، وقد ظهر ذلك جلياً عندما حدد لصاحب حماه كيفية ونوع الإمداد، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لا يثقله الطعام الكثير المتنوع فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة عسكرية[1] ومما يشار إليه أن قطز كان متديناً عفيفاً، صاحب تقوى وورع، وهذه الصفة أكسبته الشجاعة والإقدام في الحروب، وجعلته يستبسل ويقدم روحه رخيصة، ويستهين بالموت، وبخاصة عندما قتل حصانه، واستمر في القتال دون جواد، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة[2]، وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها:

أ ـ وضوح الرؤية ونقا الهوية:

كان على إعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، ولذلك إهتم قطز بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة وعظم دور العلماء وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصري، ولخص ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة ((وا إسلاماه)) ولم يقل: ((وا مصراه))، أو ((وا ملكاه))، أو ((وا عروبتاه))، لقد كانت الغاية واضحة والهوية إسلامية تماماً، ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سبباً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق[3].

ب ـ الدعاء سلاح فتاك:

حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في

---

[1] عين جالوت صـــ128.

[2] المصدر نفسه صـــ128.

[3] قصة التتار صـــ353.

مواجهة الأعداء كما قال: حتى تدور الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم[1]، وكان هذا العمل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين، حتى أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان قطز يثبت الناس وينحاز إلى بعض نواح الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتى يقوي من عزيمته ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة[2].

جـ ـ الحرص على الشهادة:

في معركة عين جالوت، قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خونت لم لا ركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتى عدَّ خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام[3]. فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دلَّ على تواضعه وعدم إهتمامه بحفظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام، والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو إبتغاء

---

[1] الفتوح الإسلامية عبر العصور صـ347.

[2] المصدر نفسه صـ347، الطريق للقدس محسن محمد صـ175.

[3] الفتوح الإسلامية عبر التاريخ صـ348.

رضوان الله تعالى والجنة[1].

س ـ رؤيا صادقة:

كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره، وكان يحدث بها أصحابه، حيث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيه[2]. فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف، لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي صلى الله عليه وسلم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت، فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعاً قوياً له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى[3]، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم.

ش ـ القدوة:

كان سيف الدين قطز متواضعاً وضرب أفضل الأمثلة لجنوده ولأمته في كل الأعمال، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، كان سيف الدين قدوة في أخلاقه وفي نظافة يده وفي جهاده وفي إيمانه، وفي عفوه، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز، لقد نزل ـ رحمه الله ـ بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم فكان حتماً أن يقاتلوا

---

[1] التاريخ الإسلامي (16 ـ 388).

[2] المصدر نفسه (16 ـ 391).

[3] المصدر نفسه (16 ـ 392).

معه[1].

ع ـ عدم موالاة أعداء الأمة:

لم يوال سيف الدين قطز التتار أبداً مع فارق القوة والإعداد بينهما، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع إحتياجه لذلك، لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ـ كما يدعون ـ ولايت الحروب، فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً، بل إرتكبوا أخطاء مركبة، فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو وإعتباره صديقاً خطأ ثالث، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الله ثم تمسكه بشرعه سبحانه وتعالى[2]، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المادة، آية : 51).

لقد كان سيف الدين قطز من القيادات الحكيمة التي إستطاعت أن تأخذ بعوامل النصر وتتعامل مع أسبابه، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية، وبعد المعركة قرر المظفر قطز مواصلة الجهاد فجمع جيشه وأمراءه ونزل إلى الأرض، ومرغ وجهه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على هذا النصر، ووقف فيهم خطيباً، وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله أنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويموئذ يفرح المؤمنون بنصر الله[3].

---

[1] قصة التتار صـــ355.

[2] المصدر نفسه صـــ356.

[3] من أجل فلسطين حسني أدهم جرار صـــ102.

2 ـ توسيد الأمر إلى أهله:

قام سيف الدين قطز بتوسيد الأمور إلى أهلها واهتم بالكفاءة والأمانة، قال تعالى: "إن خير من استأجرت القوي الأمين" (القصص، آية : 26)، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن إعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إذا ضُيعت الامانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة[1]. فإذا تولى الأمور رجال لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بواسطة أو قرابة أو رشوة إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد[2]، أما سيف الدين قطز، فقد اسند الأمور إلى أهلها، واختار قادة جيشه وأركانه وكان لهم الفضل بعد الله تعالى في الانتصار على المغول على المستوى التكتيكي والاستراتيجي[3]، ومن أشهر هولاء القادة الذين ساهموا في النصر:

أ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري:

كان في معركة عين جالوت رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة، طارد بيدرا قائد طليعة الجيش المغولي إلى أرض فامية، ظهرت عليه النجابة والفطنة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً وقربه وقدمه الملك الصالح نجم الدين ايوب على الجمدارية الذين كانوا عنده وحضر معه معركة دمياط وأبلى فيها بلاء حسناً ظهرت عبقريته العسكرية وشجاعته الفائقة، لا يزال الكره يملأ قلبه والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه وأسروه وعندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وباعوه فشروه إلى أن وصل إلى البند قداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح

---

[1] البخاري، قصة التتار صـــ357.

[2] قصة التتار صـــ357.

[3] عين جالوت صـــ123.

وكان من أبطال معركة المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين والأيوبيين والتي انتصر فيها الجيش الأيوبي الذي كان في أكثره من المماليك ورأى بنفسه أنه يمكن الانتصار على هؤلاء وغيرهم وأنه بإمكان المماليك، لو نظموا ودربوا، أن ينتصروا على كل طامع وغاصب. وقد تميز، بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين التركيز على هذه الدراسة وبنفس الوقت كان يحب الاساتذة وخبراء الحرب ويميل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجو الملائم للتدريس وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الامور المتعلقة بالسياسة والحرب، وقد تمتع بصفات قيادية فذة، وكان يأخذ بالحذر والحيطة لكل الامور، واتخاذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء، والخبرة الطويلة والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاها في الحروب الحقيقية[1]، كان من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت.

ب ـ الأمير فارس أقطاي المستعرب:

أتابك الجيش والذي تولى تجهيزه وإعداده والأشراف على كل أموره، وفوق كل ذلك، فقد كان هو بنفسه من الرجال الموثوق بدينهم، واخلاقهم وشجاعتهم وكفاءتهم في الأعداد والتنظيم والتعبئة[2]، كان مقداما شجاعاً وذا معرفة بالحروب وكان قطز يعول عليه كثيراً، وكان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز ومحبوباً من قبل مرؤوسيه[3].

---

[1] معركة عين جالوت صـــ128 ـ 136.

[2] من أجل فلسطين، حسني أدهم جرار صـــ98.

[3] معركة عين جالوت صـــ136.

جـ ـ سنجر الحلبي:

كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور علي بن آيبك سنة 655هـ/1257م، وكان نائب المظفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت، ولما جاءه خبر مقتل قطز واستلام الملك الظاهر ومبايعته هرب إلى بعلبك وضيق عليه ثم ألقى القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة[1].

د ـ أقوش الشمس الأمير جمال الدين:

كان جندياً قوياً، وأميراً موصوفاً بالشجاعة والإقدام والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشداشيا عند الأمير بدر الدين البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات الإرتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، شكل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول، حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد العام للجيش المغولي انقض عليه وأصابه وطرحه أرضاً وأسر كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسر قائده خارت قواه وضعفت معنوياته، وبهذا فقد حقق أقوش نصراً لجيشه، بل كان منعطفاً تاريخياً ثم ولي فيما بعد نيابة حلب وبقي فيها حتى توفي[2].

هـــ ـــ هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش المماليك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت، فكانوا من أسباب النصر، لقد إهتم سيف الدين قطز بالكفاءات والقادة الآخرين فتعاطفوا معه والتفوا حوله وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء والعلماء، وعامة الناس

---

[1] الوافي في الوفيات (15 ــ 473) معركة عين جالوت صـــ137.

[2] النجوم الزاهرة (7 ــ 97) معركة عين جالوت صـــ138.

والتي من أهمها:

ـ التعاطف ويتحقق ذلك من خلال الإهتمام بالآخرين والوقوف إلى صفهم فيما يحدث لهم من خير وشر ومشاركتهم همومهم ومشاكلهم ومن خلال ذلك تم كسب ثقة القادة والعلماء وعموم الشعب.

ـ الصدق والصراحة، والكفاءة والعمل الجماعي المنظم والإنتماء للإسلام والقدرة على الاتصال بالآخرين، وكل هذه المقومات ساهمت في كسب الثقة في سيف الدين قطز[1].

3 ـ الجيش القوي:

يعتبر الجيش المملوكي في ذلك الوقت من أقوى الجيوش الإسلامية والفضل لله ثم للملك الصالح أيوب، الذي قام بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ووضع سياسة جديدة تقوم على إستخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل إسلافه الأيوبيين مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي للحملة الصليبية السابعة[2]، ورافق ذلك التطوير العسكري الإهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبح كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنتظم ومدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية[3]،، وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوبية بعد وصولهم للحكم

---

[1] انظر:

إدارة الجودة الشاملة للشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني، حيث تم الحديث عن أساسيات إدارة الجودة الشاملة ومقومات الحصول على الثقة صـ213.

[2] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ151.

[3] الأيوبيون بعد صلاح الدين الصَّلاَّبي صـ360.

وحافظوا عليها وقاموا بتطويرها، لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقياداته العسكرية والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيوش الإقليمية، والجيوش الإحتياطية بما فيها القبال العربية والتركمان والأكراد، وقدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود 40 ألف مقاتل[1]، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فارس وأغلبهم من المماليك وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت 15 ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت بإتجاه فارس مع هولاكو وتوزعت بعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وإنتهاء بالشام وكان في إعتقاد القادة المغول إن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما إن له الخبرة في الحروب وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها، وقد أكد على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها، جامع التواريخ، وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان[2]،

4 ـ إحياء روح الجهاد:

كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد والحث عليه والترغيب وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الديار، والحرمة الإسلامية، القوة المعنوية يركز عليها في كل الجيوش فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثوقاً به والشئون الإدارية بحالة جيدة كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كالمكافآت والترقيات،

---

[1] النجوم الزاهرة (7 ـ 197)، معركة عين جالوت صـ165.

[2] معركة عين جالوت صـ166.

وإغداق الأموال، ولكن هذه الوسائل كانت موقتة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الإستشهاد، وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأججوها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من الجندي كامل طاقته وقدرته[1]، وإذا أردنا أن تحمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت لخصناها كما يلي:

ـ زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.

ـ الثقة في الله في تحقيق النصر.

ـ الانتقام من المغول الذين طغوا وبغوا في البلاد التي احتلوها والثأر لكل المظلومين والمقهورين.

ـ العقيدة التي أججت في المقاتلين روح التضحية والفداء وجعلتهم يقدمون على الموت وهو أحب إليهم من الحياة.

ـ الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها.

ـ تراخي العدو وعدم إكتراثه وعدم تطبيقه الأسس والمبادئ الحربية وعدم أخذ الحيطة والحذر[2].

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهما كانت طبقته وقوميته فهو عقائدي وبهذا الإنتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية إندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطز نادي بأعلى صوته ((وا إسلاماه)) فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك

---

[1] معركة عين جالوت صـ191.

[2] معركة عين جالوت صـ191.

لأن هذا النداء العقائدي أجج في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية، وجعله يقدم الإرادة حباً وتضحية وفداء واستبسالاً، على هذا النداء قاتل الجيش المملوكي قتال رجل واحد، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة[1].

5 ـ الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:

إن إنتصار المسلمين في معركة عين جالوت، لأنهم عرفوا كيف يتعاملوا مع سنة الأخذ بالأسباب، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل، وقوله تعالى: "واعدوا لهم من استطعتم من قوة ومن رباط الخيل..." (الأنفال، آية : 60)، لقد فهم قادة المماليك أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على إختلافها وتنوعها، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب والتعليم والتخطيط والتنظيم...الخ.

لقد إهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الإستعداد لها، وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعدودين ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وبفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، ولم تقتصر الفروسية على الوجهاء، بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر، ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي[2]، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب:

---

[1] معركة عين جالوت صـــ193.

[2] المصدر نفسه صـــ250.

أ ـ العمومية والشمولية:

إن التدريب كان يشمل المؤخرة، كما يشمل المقدمة، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات، والفرد كما في المجموعات، والجندي كالقائد، والبحرية كالقوات البرية، ولا يستثنى أحد، وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية، كألعاب السباق والمصارعة، وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش المملوكي إلى توازن قتالي بين صفوف قواته وإختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى ثقل الضغط والخرق، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاعٍ من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع وإستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود وثبات الدفاع[1].

ب ـ ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي:

كان المماليك يدربون على أصول العقيدة وأحكامها ونظرتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين إشتهروا بالتربية والتعليم، وكان يعلمونهم القرآن الكريم حتى أن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكذلك كانت علوم شرعية متنوعة في التفسير والحديث والسلوك واللغة، وبعد نجاحه في أمور العقيدة وإتمامه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدربين في أمور الحرب والقتال، فيتدربون على ركوب الخيل ويتدرجون من السهولة إلى الصعوبة،فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على القبق والضرب بالسيف والطعن بالرمح

---

[1] معركة عين جالوت صـــ151.

وإستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته قوياً في قتاله وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب[1] المتلازم.

جـ - التدريب بشكل متواصل:

إن المقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب ابدا، وإنما هناك الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة ويوصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والأحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو ماطراً أو بارداً أو حاراً[2]، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم التدريب كانت كثيرة وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلازمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع[3].

س - التخصص في التدريب:

لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي فكل مادة لها مدربون خاصون بها، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفوارس المبتدئين، كما كانوا يؤلفون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعده رميه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، على أن هذا التخصص

---

[1] المصدر نفسه صـــ252، الخطط للمقريزي(489/2).

[2] الخطط(489/2) معركة عين جالوت صـــ252.

[3] معركة عين جالوت صـــ252.

زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمتدربين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل اتقان وفنية عالية[1]، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الاولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً. والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية[2].

لقد دخل المماليك المعركة بعد إعداد وأخذ بالاسباب وحققوا نصراً ساحقاً على المغول، لقد اتخذ قادة المماليك مجموعة من الاجراءات والأعمال كان الهدف منها التأثير على القوات المغولية في عين جالوت وكان من أهم هذه الاجراءات:

- ــ الرد الفوري على الأنذار:
- درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه إنذار قتالي إلى زعيم البلاد أو قادتها يحمله مراسلون يتضمن الأعمال المجيدة التي قام بها الجيش المغولي والبطش الذي إستخدمه، والشدة التي عامل بها تلك الجيوش التي تصدت له، مذكراً ما حل بالمعاندين من دمار وخراب ثم يدعوهم إلى الاستسلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك إبتدأت المعركة على أشدها لا تبقي ولا تذر[3]، أما المماليك فقد كانوا يخشون لقاء المغول، ويتوجسون شراً من الاقتتال معهم، وقبل عين جالوت وصل رسل هولاكو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم البلاد، وفي هذا الإنذار من الوعد والوعيد وأهم ما يتضمنه الإستسلام، أو القتال، أو الجلاء عن البلاد[4]، إلا أن القيادة المملوكية

---

[1] المصدر نفسه صـــ253.

[2] المصدر نفسه صـــ254.

[3] المصدر نفسه صـــ301.

[4] معركة عين جالوت صـــ302.

ردت على هذا الإنذار بقتل الرسل وإعلان الحرب والاستعداد للمجابهة[1].

- ــ مجلس الحرب:
- إنعقد مجلس الحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيساً، وعضوية كل من أتابك العساكر وشيخ الإسلام وقضاة الإسلام وأمراء المئين، أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيان المشايخ، ومن مهمته النظر في مشروعية الحرب، وتعبئة الجنود، وإعلان النفير العام والتدريب، وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأموال اللازمة وتعيين أمير التجريدة العام والأمراء الذين بصحبته والذين يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات[2]، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وكانت المناقشة جادة ومسؤولة، وانفض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، وإستعداد مع هذا اللقاء الحاسم[3].
- ومن الإجراءات التي تم العمل بها، التحضير والإعداد للحرب، تحشيد الناس، والتوجيهات العملياتية، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليعة والتحييد والحرص على التفوق الكمي والكيفي والإعتناء والإخفاء والتمويه، وإختيار مكان المعركة وزمانها، ومنطقة التمركز، ومخادعة العدو ونصب الكمائن والمطاردة، والتضليل الإستراتيجي والمحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر، الترتيب القتالي، والتشكيلات القتالية، والقتال الإستراتيجي

---

[1] المصدر نفسه صــ302.

[2] المصدر نفسه صــ302.

[3] المصدر نفسه صــ303.

بالجيوش المتلاقية والبريد الحربي ووسائط الاتصال، ومراعاة ميزان القوى، والتصميم للوصول للهدف، وتحقيق النصر السياسي الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري[1]، وغير ذلك من الخطوات المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر.

6 ـ عبقرية التخطيط:

إشتهر قادة المماليك بالقدرة على التخطيط والتنفيذ، ومعرفة قوانين الحرب والمبادئ التي تلعب دوراً هاماً لبلوغ النصر وإذا أمعنا النظر في معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة لأدركنا تماماً أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد الحدود ولا سيما الظاهر بيبرس الذي إشترك في هذه المعركة بالذات وفي المعارك التي شهدها بنفسه فيما بعد:

أ ـ الاقتصاد في القوى:

لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة عين جالوت، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش، وبيبرس كان يقود الطليعة، وقد إشتبكت الطليعة ــ وهي جزء من الجيش ــ مع حامية غزة[2]، كما إشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي، كما إشتبكت الميمنة مع ما يقابلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاهها[3]، وكان قطز حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تتناسب مع القوات التي تقاتل ضده من الجيش المغولي، فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف القريب، وثالثة للبعيد، ورابعة للكمين، وخامسة لإعاقة وجذب قوى العدو[4]،

---

[1] المصدر نفسه صـــ303 ــ 331.

[2] دائرة المعارف الإسلامية (4 ــ 363)، معركة عين جالوت صـــ283.

[3] معركة عين جالوت صـــ283.

[4] نيل الرمان اليونيني (1 ــ 361)، معركة عين جالوت صـــ283.

وأما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقاتل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للعدو[1]، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح، إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل إتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي[2].

ب ـ تجميع وحشد الجيوش على الإتجاهات الرئيسية:

لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع سيف الدين قطز الجيش المصري وأرسل إلى الجيش الشامي وحشد الإمكانات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية يحث الميليشيات الشعبية والتفت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك بإتجاه مرج بن عامر، وسار بإتجاه الساحل بكتلة واحدة، فوحدة الجيش وقتاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر[3] وهو ما قد تم في عين جالوت.

جـ ـ الضغط على الأعداء:

كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت الرواسي أمامه، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وخرقت جبهته، وتعقبه الجيش المملوكي، ولم ينفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية[4]، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور،

---

[1] معركة عين جالوت صـ283.

[2] المصدر نفسه صـ283.

[3] المصدر نفسه صـ283.

[4] تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1 ـ 29)، معركة عين جالوت صـ285.

أهمها رفض الإنذار وقتل الرسل[1]، والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيراً في طلب المدد ليكون هناك توازن بين الجيشين[2]، وإجبار الجيش المغولي أن يفتح وأن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية[3]، والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها، وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الميسرة الذي كاد أن يتداعى[4]، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى قائد الجيش المغولي وقتله[5]، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب وظن بهروبه النجاة، ولكنه كان ملاحقاً كيف إتجه ومطارداً أينما سار[6].

ح ـ تحقيق المفاجأة:

أن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالإخفاء والتمويه وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، إنما قوة الجيش الرئيسية فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمساتر في مرج ابن عامر، وبصمود الجيش المملوكي وقتاله الذي وضع كتبغا في حيرة وتشكيلة القتال الجديدة/، وبنصب الكمائن، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المنهزمين وإبادتهم، وبالشدة والتنكيل

---

[1] جامع التواريخ (2 ــ 313)، معركة عين جالوت صـــ285.

[2] بدائع الزهور في وقائع الدهور (1 ــ 305)، معركة عين جالوت صـــ285.

[3] معركة عين جالوت صـــ285.

[4] السلوك والمعرفة نقلاً عن معركة عين جالوت صـــ285.

[5] النجوم الزاهرة (7 ــ 79)، معركة عين جالوت صـــ285.

[6] جامع التواريخ (2 ــ 316)، معركة عين جالوت صـــ286.

والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر[1].

س ـ وضوح الهدف:

كان قطز القائد الأعلى للجيش واضح الهدف، إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرسل[2]، هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتخطيط لهذا القتال، وإستخدام الرجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال[3] والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الإلتزام جانب الحياد[4].

ش ـ المناورة بالقوى والوسائط:

وزع قائد الجيش المملوكي القوي الوسائط قبل بدء القتال، ولأثناؤه ظهرت ضعف الميسرة، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي، كما إستطاع أن يقود الإحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية فيوقفها[5]، كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق الثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تسربت خارقة دفاع الجيش المملوكي، وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن

---

[1] معركة عين جالوت صـــ286.

[2] معركة عين جالوت صـــ287.

[3] أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (2 /290 ـــ 291).

[4] معركة عين جالوت صـــ287.

[5] النجوم الزاهرة (7 ـــ 79)، معركة عين جالوت صـــ288.

قوة العدو وضعفه وأماكن تمركز قوته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها، بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة[1].

ع ـ السرعة في الأعمال القتالية:

تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة وعقد مجلس الحرب وإتخذ إجراءات تحضيرية سريعة، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي فيهاجم الديار المصرية، ويغزو المماليك في عقر دارهم، ومن الأهمية بمكان أن نذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتفويت على قائد ((الجيش المغولي بيدرا)) كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي[2].

ص ـ المخابرات العسكرية.

بث قطز العيون واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حقد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع، بل إعتمد على قواته وشدته في الحروب ولم يأبه لما يجري حوله، ولم يقم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، ويأخذون منها الأخبار ويوصلونها إلى المماليك[3]، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيبرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي

---

[1] معركة عين جالوت صـــ288.

[2] المصدر نفسه صـــ288.

[3] معركة عين جالوت صـــ289، المغول للعريني صـــ259.

وتحركاته واسلحته وقادته[1]، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي ارسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافر، تصنت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الانساق وعن تحركات الجيش المغولي[2]، وكان من مصادر الاستخبارات المملوكية، عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام مخابراتية بالاضافة إلى نقل البريد الحربي، إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل والتحري من الاعمال الهدامة، أو الاشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز((صاحب الخبر والتحري)) الذي كان له خبرة واختصاص[3]، إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر، ولقد كانت الاسباب الصحيحة التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبنوا قرارهم على هذه معلومات صحيحة فكان القرار سليماً والنصر محققاً[4].

7 ـ بعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة:

شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد واكثروا فيها القتل والعذاب، ولابد له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات سياسية تضمن له النصر على اعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهور حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر، وبدأ التفكك الداخلي واضحاً عند استلام المماليك الاتراك، إذ حكمت إمرأة ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها، وتزوجت فيما بعد من عزالدين أيبك لتحصل على الاعتراف الخليفتي،

---

[1] تاريخ ابن الوردي (2 ـ 293)، معركة عين جالوت صـ 290.

[2] ذيل مراة الزمان (1 ـ 366)، معركة عين جالوت صـ 290.

[3] تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى صـ 38.

[4] معركة عين جالوت صـ 291.

واحتدم الصراع بينها وبين زوجها أدى إلى قتلهما، واستلم الحكم علي بن أيبك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه، ولما كان قطز هو نائب السلطان والوصي على الصبي وهو يعلم أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالامور العسكرية والسياسية، أن يتخلص من السلطان الصغير، فاستلم الحكم وهذا إجراء سياسي داخلي، اتخذه هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأو أنهم لا يستطيعون أن يؤثرون على المسيرة التي انتهجها قطز لاصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الحليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة 655هـــ /1257م، لكن قطز تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء وأوقع فيهم القتل وردهم على أعقابهم[1]، ولم يمكنهم أبداً من العبث بأمن الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب، المغولي، وظل صامداً يتابع توجيه السياسة وأصلاح البلاد وتخليصها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وإزداد الخطر رأى أنه من المناسب إعادة الصف بينه وبين الامراء الهاربين الذين حاربوه لتجتمع الكلمة وليستفيد من خبرتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش[2]، وهكذا كان الإجماع الداخلي على التصدي للعدو المغولي وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية[3]، وبعد ذلك إهتم بالوضع السياسي الخارجي وعمل على تحييد الصليبيين وعقد معاقدة صلح معهم وإستفاد من المرور بأراضيهم، ولم يقاتل على جبهتين، وقابل المغول في عين جالوت وانتصر

---

[1] النجوم الزاهرة (7 ــ 46،45)، معركة عين جالوت صـــ 332.

[2] تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور صـــ 264.

[3] معركة عين جالوت صـــ332.

عليهم، وإستمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة، فقد أرسل قطز رسلاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن إنتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام[1]. وهذا دليل على بعد نظره وحنكته السياسية.

8 ـ توفر صفات الطائفة المنصورة:

لم يظهر سيف الدين قطز من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق فيه كثيراً من صفات الطائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ ـ أنها على الحق:

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق وإتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما إستحقت الذكر والنصح وتمسكها بالحق، حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي إستمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

ـ الاستقامة في الإعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مجانبة البدع وأهلها فهم أصحاب السنة.

ـ الاستقامة في الهدي والسلوك الظاهر والباطن والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة،

ـ الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

---

[1] تاريخ مصر، أسكندر عمون صـ196، معركة عين جالوت صـ333.

ب ـ أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله، من الإعداد، والتخطيط، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

جـ ـ أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله:

والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه ((يقاتلون على الحق))[1]، أو يقاتلون على أمر الله[2]، وكان سيف الدين قطز وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتال أعداء الله من الكفار وغيرهم[3]، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت.

د ـ أنها صابرة:

فقد خص الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت كيف تسلح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستطع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم بأنهم: لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالون من خالفهم[4]، وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخزلين ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[5]، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، قد إنطبقت على جيش سيف

---

[1] سنن أبي داؤد، ك الجهاد رقم 2484.

[2] مسلم رقم 176، الضربات التي وجهت للإنقضاض على الأمة الجندي صـــ113.

[3] تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين صـــ473.

[4] رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد رقم 2376 وله طرق تقوية.

[5] صفة الغرباء، سلمان العودة صـــ205.

الدين قطز والمماليك الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت، إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ولا هو دعوة وإنما هو تحقيق وعمل وتحقيق للصفات الشرعية لهم، وعمل بالواجبات الشرعية عليهم، فمن حقق الصفات وقام بالواجبات كان من الطائفة المنصورة ولو كان وحده[1]، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" (الصف، آيات : 2 ــ 4).

9 ـ سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم:

قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد ــ ربما رأى الكثيرون في ذلك الوقت ــ إستحالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرري والذي حقق إبنه نور الدين جزئه الأول، وحقق صلاح الدين قسماً مهما من جزئه الثاني، ولذلك نرى إنتصار صلاح الدين في حطين تتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري، فلولا الله ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر[2]، الذي تم بفضل الله ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون، أو طائفة، وإنما جمعتهم الأخوة في الله والتي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، قال الشاعر:

---

[1] الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان صــ65.

[2] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 ــ 375).

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً

الشام فيه ووادي النيل سيان

وإينما ذكر إسم الله في بلد

عددت أرجاءه من لب أوطاني

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت، وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون فبتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[1]، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الغزاة من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين، ولكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم، وظل المسلم محباً لأخيه المسلم، ولسان حال كل منهم[2] يقول:

أبا سليمان قلبي لا يطاوعني

على تجاهل أحبابي وأخواني

إذا إشتكى مسلم في الهند أرقني

وإن بكى مسلم في الصين أبكاني

ومصر ريحانتي والشام نرجستي

وفي الجزيرة تاريخي وعنواني

أرى بخارى بلادى وهي نائية

وإستريح إلى ذكرى خراسان

فأينما ذكر إسم الله في بلد

عددت ذاك الحمى من صلب أوطان

---

[1] الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم صـــ23.

[2] المصدر نفسه.

شريعة الله لمت شملنا وبنت

لنا معالم إحسان وإيمان[1]

الادب والفنون في عهد المماليك

العصر المملوكي كان مفصليا في نشأة فن الزجل على اللسان العامي المصري، وبيرم التونسي اوصله الى القمة

كان لنشر كتاب "دار الطراز" للشاعر "ابن سناء الملك" في القرن العاشر الميلادي بمصر، أثره الفاعل في الساحة الإبداعية بمصر في حينه. فقد تناول تاريخ الموشحات الأندلسية وحلل خصائصها وتراكيبها ونماذجها. سرعان ما تفاعلت القريحة المصرية، وتفاعلت مع تلك الموشحات، نظرا لسهولتها وبساطة تراكيبها، فتفاعلت معها اللهجة المصرية، والمزاج المصري المرتكن إلى الشجن.

توقف الدارسون طويلا أمام تلك الظاهرة، وخرج كتاب "الزجل الأندلسي" للدكتور عبد العزيز الأهواني، وكتاب "فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي" للدكتور مجدي محمد شمس الدين. وقد خلص إلى أن "الزجل" وليد "الموشحات"، ثم راج وتطور حتى قمته على يد بيرم التونسي، بل ولد الشعر العامي المصري (الآن) من نسيجه، ووصل إلى منجزه المتميز على يد فؤاد حداد، صلاح جاهين، والأبنودي.

المتأمل للأدب العامي أو المكتوب باللهجة المصرية في العصر المملوكي، يلحظ أنه مختلف عما كتب قبله. ذلك لأن الأدب العامي في مصر تأثر بالفن الأندلسي، فكانت قصيدة "البليقة" أو هي الزجل الآن، كما أطالوا النظم في الموشح (على العكس من شكل الموشح الأندلسى التقليدي) حتى بلغ "ابن مكانس" أن كتب موشحا في واحد وخمسين بيتا..بينما فعلوا العكس في "البلاليق" أو الأزجال..بينما أطال أهل الأندلس في الأزجال

---

[1] الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان صـــ7.

وكتب "ابن قزمان" في زجل له اثنين وأربعين بيتا.

لم يكن تفاعل المصريين مع المنتج الأندلسي، تقليدا أو نقلا، بل أضافوا من روحهم وسماتهم الخاصة.. سواء في القالب، والمحتوى بإضافة روح الفكاهة والمرح.

وقد أضاف د.مجدي شمس الدين في كتابه، أن إطلاع المصريين ربما عن رافد عراقي وتواشيحه، ربما لكونها أيسر على المصريين من الانتقال إلى بلاد الأندلس. كما رصد الكاتب إعجاب "ابن خلدون" و"صفي الدين الحلي" بإبداع المصريين خلال تلك الفترة، بما تميز به "الأدب العامي" شكلا وموضوعا.

لقد عرفت الثقافة العربية لغة أدبية عامية أدبية يستخدمها العوام من الناس، ولغة فصحى وهي لغة الخاصة من الأدباء والمثقفين. وقد أورد "ابن عبد ربه" في كتابه "العقد الفريد"، في القرن السابع الهجري، بعض النماذج على تلك الازدواجية، كما في الأمثال الشعبية. الدلالة واحدة، إلا أن العامة ينطقونها بلغة غير الخاصة.

مثال: قول العامة "كلب طواف خير من أسد رابض"، ويقول الخاصة "لا يفترس الليث الظبي وهو الرابض".

ويروى "ابن الجوزي" أنه عندما قتل المسترشد في 529هجرية، خرج الرجال حفاة، والنساء منشرات شعورهن، وهن يلطمن ويغنين بالعامية غناء من نمط غناء البغداديات في مثل هذه المناسبات:

يا صاحب القضيب ونور الخاتم

... صار الحريم بعد قتلك مأتم

اهتزت الدنيا ومن عليها

... بعد النبي ومن ولى عليها

وجد الأدب العامي المعارض والمؤيد، خلال تلك الفترة، وربما حتى اليوم. ومع ذلك وجد من حاول التقريب بينهما، وهى دعوة "أبو هلال

العسكري – ت395 هجرية"، فيقول: "أما الجزل المختار من كلام العرب فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاورتها"، وقد أورد مثالا من أشعار "مرار النقعي" يقول: "فظل يدير الموت في مرجحته... تشف العوالي وسطها وتشول

وكائن تركنا من كرايم معشر... لهن على آبائهن عويل"

ثم علق قائلا: "فهذا وان لم يكن من كلام العامة، فإنهم يعرفون الغرض فيه، ويقفون على أكثر معانيه، لحسن ترتيبه، وجودة نسجه".

كما أشاد "ابن عبد ربه" (القرن الرابع الهجري) بنوع من الشعر أسماه "سجع القريض" وهو ما نطلق عليه الآن بالشعر الغنائي، فهو ما يكتب كي يلحن ويغنى، وقد سيطر عليه اللحن والموسيقى حتى خرج على الأوزان التقليدية.

وقد لاحظ المتابع أن تلك الدعوات المؤيدة للنظم باللغة العامية، توافقت مع ذيوع وانتشار كتاب "إلف ليلة وليلة"، مما شجع أيضا النظم باللغة العامية، حيث غلبت العامية على لغة كتاب إلف ليلة.

أما وقد اتسعت الدولة الإسلامية، فزاد اللحن واللكنة بين العامة، فأصبحت اللغة الملحونة بمعزل عن اللغة الفصحى. وكان القرن الخامس الهجري، حتى فشا الاضطراب في كلام أعراب الجزيرة، واستولت العامية على السن الغالبية. بينما أضحت الفصحى هي لغة العلماء في مدارسهم، والأدباء في نواديهم، وبعض الأمراء في دواوينهم.

حتى كان القرن السادس الهجري، وتطور فن الزجل على يد "ابن قزمان".. وتميز الشاعر بأن قدم لأزجاله، وعرض الأسس والقواعد الواجب مراعتها في كتابة الزجل..منها:اللحن والتجرد من الأعراب (قال إن الأعراب أقبح ما يكون في الزجل، وأثقل من إقبال الأجل!!).. ثم أضاف خصائص عامة له مثل السهولة والبعد عن التعقيد والمصطلحات..

وفى القرن نفسه (السادس) نشر كتاب "دار الطراز" الذي قدم

"الموشح" لابن سناء ولغيره، وأيضا بمقدمة هامة عن الموشح. وقوبل بالرفض من المحافظين، كما قوبل ابن قزمان.

لعل ما انتهى إليه البحث الأدبي: أن الأدب العامي راج في العصر المملوكي وأصبح له مكانته، وان لم يجد اتفاقا كاملا بالقبول بين النقاد. أهم مميزاته..له خصائصه الفنية المميزة له، مثل الصياغة بالعامية، كما أنه اقتحم قوالب الإبداع اللفظي في حينه من شعر وأمثال شعبية وأغاني وغيرها، بل والنثر القصصي. ثم أنه متحرر من قواعد النحو والإعراب، ومن عمود الشعر (وحدة الوزن، رتابة القافية، الخروج على البحور التقليدية).

أن الأصل في الأدب العامي..البساطة والسهولة، وكذا خصوصية الألفاظ أي المفردات وتراكيبها أيضا. كما أن الثروة اللغوية في الأدب العامي مصادرها: مفردات الفصحى الملحونة، الأساليب المولدة من اللهجات المختلفة، الألفاظ الأجنبية، بالإضافة إلى ألفاظ الفصحى الصحيحة.

وقال ابن خلدون: "تميز عند العوام الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب".

كما قال البعض: "أن العامية المصرية في تلك الفترة قاومت دخول المفردات الأجنبية، وان لم تخل منها..إلا أنها لم تسيطر عليها كما عند الأيرلنديين".

وقد انتهى البعض إلى أن الأدب العامي والفصيح لا يجتمعان على الدرجة نفسها من الرقي والتواجد..لابد أن يفسح احدهما للآخر حتى يروج وينشر..وهو ما برر به رواج الأدب العامي في عصر المماليك. فقد شجع الحكام الأدباء والشعراء العاميين لسهولة فهم أعمالهم عن فصحاء الشعر والنثر..فراج الأدب العامي.

ونطالع في مرحلة متأخرة من هذا العصر أسماء شعراء مثل البهاء زهير وابن مطروح، وهما من أصدق الشعراء تمثيلاً لروح العصر، إذ

اتسمت أشعارهما بالرّقة والعفوية، فضلاً عن تلك اللغة السهلة التي تقترب كثيرًا من لغة الحياة الدارجة، إلى ما لدى البهاء زهير من نزوع إلى الغزل الذي، وإن لم يعبر عن معاناة حقيقية، يعكس روح الدعابة وخفة الظل لديه.

كما نطالع شعر التصوف لعمر بن الفارض ولغيره من الشعراء، إذ كان الشعر الصوفي صدىً لتيار التصوف في هذا العصر.

وإذا كان الغزو الصليبي يشكل لهذا العصر أعمق الأحداث أثرًا في حياة الناس، خاصة في ديار الشام ومصر، فمن البدهي أن يترك هذا الغزو تأثيره على الشعر، إذ راح الشعراء يعبرون عن أحزانهم بهزيمة أو أفراحهم بنصر، مع رثاء المدن أو مدح السلاطين من بني أيوب. ولكن ينبغي الاعتراف بأن الشعر العربي، لهذه الحقبة، كان من الضعف بحيث لا نجد شاعرًا فحلاً في مستوى أبي تمام والمتنبي، وهما يعبران في قصائدهما الحماسية عن حركة النـــضال ضد الروم.

النثر. أبرز أشكال النثر في هذا العصر الفن القصصي، وقد حقق تقدمًا ملحوظًا، فلم يعد مجرد حكايات تراثية يرويها الأديب، ويُحدث فيها بعض التعديل، بل ظهر القصص الابتكاري. وتُعدّ مقامات بديع الزمان الهمذاني وتلميذه الحريري أوضح نماذج القصص الابتكاري الواقعي، ممزوجًا بصبغ تعليمي يتمثل فيما حوته المقامات من ألفاظ اللغة والألغاز والثروة البلاغية والنقدية

وإذا كان أدباء المتصوفة شاركوا في هذا العصر بأشعارهم، فقد شاركوا أيضًا بكتاباتهم التي تمثلت في تلك الابتهالات التي نجدها لدى أمثال أبي الحسن الشاذلي وتلميذه ابن عطاء الله السكندري

وإلى جانب القصص الشعبي عرف هذا العصر النثر الفكاهي الذي دار حول النقد الاجتماعي للعادات والتقاليد والنقد السياسي لممارسات بعض الحكام. وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش نموذج لهذا اللون من القصص الفكاهي، الساخر من قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي ونائبه بمصر إبان

الحروب الصليبية. فقد كان الرجل جادًا ملتزمًا في عمله إلى حد القسوة أحيانًا، مما جعل ابن ممّاتي يحمل عليه ويصوّره، في هذا الكتاب، بصورة ساخرة مبالغ فيها.

النقد الأدبي. ازدهر النقد الأدبي ازدهارًا كبيرًا في هذا العصر منتفعًا بما سبق من جهود النقاد. وأهم النقاد في هذا العصر أبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني والآمدي، وابن رشيق القيرواني وابن الأثير.

وإذا كان أبو هلال العسكري يمثل الاتجاه النظري في النقد، متأثرًا بشيخه قدامة بن جعفر، فإن القاضي الجرجاني في الوساطة، والآمدي في الموازنة، يمثلان الاتجاه التطبيقي في النقد الأدبي.

أما كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، فيعد أشمل مؤلف في دراسة الشعر، إذ لا يقتصر على النقد بل يتجاوزه إلى البلاغة وبعض الثقافات التراثية التي تُعدّ، بحق، مفتاحًا لدراسة الشعر العربي القديم، وبخاصة الجاهلي.

كما أن كتاب المثل السائر في أدب الشاعر والناثر لضياء الدين بن الأثير يُعدُّ نموذجًا للنقد الأدبي الذي يجمع بين الشعر والنثر.

من سقوط بغداد (656هـ) **إلى مطالع العصرالحديث**

وهو ما عرف في تاريخ الأدب بعصر الانحطاط، وهي تسمية جائرة. فقد واجهت الأمة الإسلامية في هذا العصر موجات ثلاثًا من الغزو: موجة الغزو الصليبي، وموجة الغزو المغولي الأولى بقيادة هولاكو، التي أسقطت بغداد، ثم بدأت تعد العدة لغزو مصر والشام لولا هزيمتها في عين جالوت، والموجة الثالثة هي موجة الغزو المغولي الثانية، وقائدها تيمورلنك من سلالة جنكيزخان، الذي مضى يخرّب غالب مدن العراق، كما خرّب حلب وأحرق دمشق. وقد كان لهذه الموجات الثلاث صداها البعيد في الأدب شعره ونثره.

ظل للماليك في مصر دولة حاكمة من سنة 648هـ، 1250م

إلى الفتح العثماني عام 922هـ، 1516م. وكان للماليك جولات عظيمة في الجهاد، كما لقُطز والظاهر بيبرس في معركة عين جالوت، فضلاً عن بطولات الظاهر بيبرس في حرب الصليبيين، وكذا بطولات خلفائه من بعده، كما شهد العصر المملوكي ازدهارًا في إنشاء المدارس وتأليف الموسوعات وازدهارًا في العلوم والفن المعماري، بينما ضعف الأدب شعرًا ونثرًا.

ثم كانت الخلافة العثمانية منذ عام 922هـ، 1516م وزوال دولة المماليك بمصر إلى العصر الحديث، مع نهاية القرن الثاني عشر ومطالع القرن الثالث عشر الهجري، وانبثاق النهضة الفكرية والأدبية في العالم العربي على تفاوت ــ في ذلك ــ بين أقطاره المختلفة. أما الأدب خلال تلك الحقبة فكان من أبرز معالمه ظهور تيارين: الأول، تيار الأدب الديني والثاني، تيار الأدب الشعبي.

أما في تيار الأدب الديني، فقد ازدهرت المدائح النبوية، موصولةً بجذورها في صدر الإسلام. ومع تيار المدائح النبوية يظهر أيضًا تيار الشعر الصوفي المتدثر بالتصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي وابن الفارض، وممن يمثل هذا التيار عبد الغني النابلسي (ت1143هـ).

وفي النثر تطالعنا حكم ابن عطاء الله السكندري (ت709 هـ) متأثرةً هي الأخرى بالتصوف، كما تطالعنا كتب ابن تيمية ورسائله، وكتب تلميذه ابن قيم الجوزية، وهي تمثل التيار السّلفي للأدب الإسلامي في هذا العصر. وكان من البدهي أن يعكس كل من الأدبين، الصوفي والسلفي، حركة الصراع بين هذين الاتجاهين.

أما في تيار الأدب الشعبي فقد انتشرت أشكال شعبية كالزجل الذي اتخذ من الدارجة لغةً له. ويبدو أن انشغال المشارقة بفن الزجل وتشقيقهم منه أشكالاً متعددة التلاوين، كل ذلك قد لفت انتباه ابن سعيد المغربي الأندلسي في رحلته إلى المشرق، فراح يسجل ألوانًا منه في كتابه المُشْرق في حُليِّ أهل المَشْرق. وتستوقفنا في هذا العصر شخصية ابن سودون الذي

عدّه الباحثون أهم شخصية شعبية في القرن التاسع الهجري، وله كتاب بعنوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، جعله في خمسة أبواب، الباب الأول في القصائد والتصاديق، أي المقدمات، وهي قصائد بالفصحى لم تخْلُ من اللفظ العامي يسوقه للفكاهة، والباب الثاني، في الحكايات البيداء الملافيق، والثالث في الموشحات الهبالية، كتبها بالعامية، والرابع في الزجل والمواليا، والخامس في الطُرف العجيبة والتحف الغريبة. واللافت للنظر أن الشعر الفصيح نفسه عند ابن سودون مثير للضحك بمعانيه وصوره، وببعض ما تخللت لغته الفصيحة من تعابير عامية.

أما النثر فلعله فاق الشعر أو ساواه في طابعه الشعبي، فما زالت سيرة عنترة شائعة سيارة بين الطبقات الشعبية في أسمارهم ومحافلهم

ومن صور النثر الشعبي في هذه الحقبة كتاب عنوانه: هزّ القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف لمؤلفه يوسف الشربيني، وهو لون من النثر الشعبي الساخر يتناول واقع الريف المصري في هذه الحقبة بما تخلله من جهلٍ وفقر.

وبينما يكون نثر السيرة الشعبية بطوليًا خياليًا،كان هز القحوف وأمثاله فكاهيًا واقعيًا.

تناولت هذه العجالة أبرز تيارين أدبيين في الشعر والنثر، ولكن ذلك لا يعني اقتصار الأدب عليهما، فإلى جانب تياري الشعر الديني والشعبي، عرف الأدب سائر الأغراض التقليدية للشعر، وبخاصة شعر الحماسة، الذي عبّر عن وجدان الإنسان العربي ومشاعره تجاه الأحداث الجسام ممثلة في تيارات الحروب الصليبية والغزو المغولي. ولكن الشعر العربي لم يستطع، لضعفه، أن ينهض بعبء التعبير عن هذه الأحداث، كما أن النثر التقليدي ظل موجودًا إلى جانب النثر الشعبي، إذ ظلت الخطابة والمقامة والرسالة قائمة في هذا العصر في لغة مسجوعة مصنوعة.

ولكن ينبغي أن نشير هنا ــ ونحن بصدد الحديث عن النثر، إلى

حقيقتين مهمتين: الأولى: ازدهار فَنَّيْ السيرة الذاتية والرحلة.

والثانية: أن كتب التاريخ والجغرافيا لم تخْل مواضع منها من النثر الإبداعي الوصفي الذي ينبض بالتجربة وقوة التأثير وجمال الصياغة، مما يدخلها في صميم النثر الإبداعي. وتُعدّ هذه المواضع مع ما ذكرناه من كتب السيرة الذاتية والرحلة، نقاط ضوءٍ ساطع في نثر هذا العصر الذي خَيَّمت عليه الصنعة والضعف.

الحركة التعليمية في مصر
في العصور الوسطى
المدرس بكلية اللغة العربية

إن مشكلة التعليم فى العصر الحديث من أهم المشاكل التى يعانيهم المجتمع المصري، اختلفت فيها الأراء، و افترقت المذاهب، و تعايرت النوايا.

و كلما أراد قوم أن يقيموا الدليل على خطأ الأخرين، و فساد ما يذهبون إليه رموهم بأنهم يعيشون بعقول أهل القرون الوسطى، و أنهم يصدرون عن مواردهم و ينظرون إلى الشعب كما كان ينظر إليه ولا ته حينذاك.

فإذا كانوا يعنون بأهل العصور الوسطى، تلك الدول التى حكمت مصر فى العصور المذكورة، و هى الفاطمية و الأيوبية و المملوكية؛ فانى أعتقد أن فى ذلك تجنياً كبيرا على أهل تلك العصور، و غمطا لجهودهم فى سبيل العلم و التعليم، و إنكارا لماسجله لهم التاريخ من حسنات و أياد بيض، و حفظوا بها سلسلة العلم موصولة الحلقات، متتابعة الخطوات.

و حقاً إن بيننا و بينهم فوارق جلية، فى انظر إلى التعليم، أوحى بها منطق العصر، و سياق الحوادث، و نظم الددولة، فلم تكن هناك ـــ مثلا ـــ سياسة تعليمية عامة يدوعو إليها الشعب، و ينفذها أولو الأمر، و لم تكن الحكومات تقوم بما تقوم به من التعليم، إلا على أنه منحة تمنحها الشعب، و صدقة تتصدق بها عليه، لا على أنه حق من حقوقه يؤدَّى إليه.

على أن هذه الاعتبارات، على وجاهتها و أهميتها، شكلية، بالنسبة إلى جوهر التعليم، ذلك التعليم الذى كانت سبله ميسرة، و طرقة معبدة، و أبوابه مفتحة، تشيد له الدور، و ترد عليها الأموال، و ترضد الأواقف، و يتأنق فى اختيار أساتذتها، و يوصى بطلابها.

و ما خبر الأزهر عنا ببعيد، فقد أسسه الفاطمينون، حين إسسوا قاهرتهم المجيدة، و جعلوا منه منازة للعلم، و مثابة للطلاب، و لا يطعن فيه أنهم اتخذوه منبرا عما و مركز اهاما، للدعاية الشيعية، فالمذهب الشيعى ــ و إن لم يلتئم مع ما عليه جمهور المسلمين فى مصر ــ لا ينبغى أن ننظر إليه كل هذا النظر الشزر، بل علينا أن ندرسه، و نتفهم كنهه، و نسبر غوره، و نكشف عن مكنون فلسفته، فاذا وصلنا إلى ذلك، بدالنا أنه ذو متات بالفكر و ثيق، و أنه لون من ألوان العلم، و أن دراستة فى الأزهر حينذالك، و إقامة داعى الدعاة للتبشير به، و استدارج العقول إليه، كان إحدى النزعات العلمية فى ذلك الحين، و إن تأبى عليه جمهور المصريين، و لا مبالغة إذا اعتبرناه المنهج التعليمى أو السياسة التعليمية التى أخذ ملوك الفاطميين أنفسهم بنشرها فى البلاد.

ولا ننسى أن الدول العربية ــ أو الإسلامية ــ التى قامت فى تلك العصور اتخذت من الدين دعامة كبرى تؤسس عليها، و تستند إليها، متوخية فى كثير من محاولاتها، النزوع الديني، والاتجاه الاعتقادي، لدى شعوبها و رعاياها، و لهذا كانت مغامرة كبرى من ملوك الفاطميين أن يحاولوا تشييع مصر، تلك البلاد التى كان مركز الشافعية بها و طيدا، و كانت مهجرا و مثوى لإمامها الجليل، حتّى و قرفى نفوس كثير من الشافعية أن البلاد بلادهم، و أنهم حكامها، و أنه لا بقاء فيها لحاكم غير شافعي، فكانت مغامرة جرئية لا قت مناهضات كثيرة و مقاومات عدة

و كان صلاح الدين الأيوب أنجح منهم سياسة و أثقب بصرا، إذ أنه سلك إلى استقامة ملكه مسالك عدة. فأقبل على تأييد مذهب الشافعية؛ و التمكين له؛ و إبادة آثار الفاطميين العلمية؛ و تلك نكبة بلا ريب يشعر بها كل حريص على نزاهة البحث العلمى ــ أيا كانت فكرته المذهبية ــ. غير أن صلاح الدين قدم لشعب و للمسلمين من الحسنات، ماقد يكفر عن هذه الزلة

(206)

و قد أسس فى القاهرة عداد من المدارس لنشر التعليم الديني، و دراسة المذاهب الأربعة، منها: المدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعي، و نصب فيها عددا من المدرسين و المصدرين، و المدرسة القمحية بجوار جامع عمر بن العاص، و كانت مخصصة لفقهاء المالكية، و المدرسة السيوفية بجوار سوق السيوفيين، و كانت مخصصة للأحناف، و غير ذلك.

و اقتدى بصلاح الدين وزيره القاضى الفاضل عبد الرحيم البيساني. فأنشأ المدرسة الفاضلية للقراءات و فقه الشافعية و المالكية، و آقتد به أيضا ملوك دولته من بعد مثل الملك العادل فقد أنشأ مدرسة عرفت بمدرسة ابن شاس، نسبة إلى القاضى تقى الدين بنه شاس أحد مدرسيها، و كانت للمالكية، و مثل الملك الصالح نجم الدين أيوب فقد أنشأ مدرسة الصالحية، بين القصرين، و كانت تتكون من أربع مدارس لكل مذهب مدرسة، و قيل إنها أول مدرسة أنشئت على هذا النمط.

و قد اتبع سلاطين الدولة المملوكية هذه السياسة فى نشر العلم. فكانوا يقيمون المدارس و يحتفلون بإفتتاحها، و يزودونها بالمكتبات النافعة الزاخرة بصنوف الكتب و نفائسها، و يقفون عليها الأوقاف، و يحسنون فى اختيار شيوخها، و ييسرون سبيل التعليم بها للطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم. و يجرون على هؤلاء و هؤلاء الأجور و المنح، و لا يفتأون يتوددون إليهم زلفى و تقربا إلى الله، أو حبا للظهور.

و طبعى أن تكون العلوم الدينية صاحبة الخطوة الموفورة بين مواد الدراسة فانه حتى التصوف أنشئو له الخوانق، و هيئواله الربط و الزوايا. و لذلك أسباب و طروف لا محل لسردها الآن. و يفيدنا فى هذا المقام أن فى عملهم هذا، نشرا للعلم و تيسيرا لطلبه، و معاونة لطلبه. و إذا كانوا يفعلون ذلك تقربا إلى الله، و يجرون الأرزاق على الطلاب، فبدهى أنهم لم يتقاضوا أجورا على التعليم، يرهقون بها الطلاب ــ إذا استثنينا دراهم معدودة كان

يجود بها آباء الصغار لمعلى المكاتب ــ.

(207)

و لا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا فى ذلك أكثر منا معرفة بواجبات الدولة إزاء ناشئتها و إزاء العلم.

و قد كانت دور التعلمى مفتمحة لكل راغب فيه، فلم يصدواعنها طالبا، كما كان يصد الطلاب فى العصر الحديث. و لم يبتدعوا لذلك التعلات المختلفة كما كان يحدث.

و حقا إنهم قصروا التعليم العسكرى على طبقات المماليك، التى كان مددها يتجدد من خارج البلاد. ولكن لم تكن لهم مندوحة عن ذلك، لأن منطق العصر كان يدعو هم إلى انتهاج هذا النهج، ليظلوا فى البلاد هم الطبقة الحاكمة، لهم كيانهم الأصيل الذى بدعوا به، و كان من أهم مقوماتهم، و هو المنحدر الذى انحدروا منه، بما فيه من رق و عتق، و لو أنهم اتجهوا إلى الشعب فاتخذوا منه جنودهم و عددهم من أول الأمر، لتمصروا و لتغير و ضعهم، و زالت عنهم هذا الصفة التقليدية، و أصبحوا ملوكا آخرين.

و مهما يكن من أمر، فقد أسسوا كثيرا من المدارس، و انتشر التعليم فى عهدهم فى كثير من مدن مصر، كالقاهرة و الاسكندرية و دمياط وقوص و أسيوط و أبو تيج و أخميم و سوهاج و غيرها، و قد أحصى ابن دقمان فى كتابه «الانتصار» من هذده المدارس و الجوامع و الخوانق و الرابط و الزوايا نحو خمس و مائة، و ذكر المقريزى فى خططه تواريخ كثير من هذه المدارس و أخبارها، و ما كان يدرس بها من العلوم، و تقلب الاحوال بها، و أبناء من اتصلوا بها من مؤسسين أو مدرسين أو نحوهم، و قد توفى ابن دقماق عام 808 هــ، و المقريزى عام 845 هــ، و من ذلك إلى نهايه العصر المملوكي، اسست مدارس غير ما ذكراه منها مدرسة قايتباى و مدرسة الغوري.

و يفهم من أخبار تلك المدارس أن العلوم الدينية كانت لها الاسبقية

فى العناية و بعدها علوم اللغة ثم العلوم الاخرى. و ذكروا أن المواد الدراسية فى الجامع الطولونى كانت التفسير و الحديث و الفقه على المذهب الاربعة و القراءات و الطب و الميقات. و أن الجامع الازهر كان أهم ما يدرس به، علوم الدين و المذاهب

(208)

الاربعة و الحديث و اللغة و الادب و الوعظ، و قال المقريزى عنه إنه فى سنة 818 هـ بلغ عدد المنقطعين فيه لطلب العلم نحو 750 رجلا من مختلف بلاد المسلمين. و قال: «فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة القرآن و دراسته و تلقينه و الاشتغال بأنواع الفقه و الحديث و التفسير و النحو، و مجالس الوعظ و حلق الذكر».

و يطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصى أخبار هذه المدارس و جهودها فى سبيل نشر العلم، و قد سعدت البلاد فى العصر المملوكي، بجملة مؤلفات ثمينة فى تاريخ الاعلام و رجال الطبقفات، و من حسن الحظ أننا نستطيع أن نستخلص منها أخبارا قيمة عن حالة التعليم و مواد الدراسة و رجال التعليم، ـــ و يفهم منها أن هذه المدارس كانت بمثابة الجامعات ـــ و إذا غضضنا النظر عن الشكليات الحديثة، و جدنا فيها كل المعانى الجامعية، و فقد كان فى كل مدرسة ـــ على وجه الاجمال ـــ عدد من الشيوخ، كل شيخ منهم أستارذ مادة من المواد المقررة، وقد يعينه فى عمله بعض المعيدين، و درسه مباح للطالب المنقطع لطلب العلم و مباح لغيره.

و اعتاد كثير من الطلاب أن يلازموا شيوخهم. فيلازم الطالب شيخا من شيوخه يقع كل منهما من نفس الآخر موقع القبول، يلازمه فى كل دروسه، حتى فى دروسه المنزلية، فيتردد على بيته من آن لآن، و قد لازم شمس الدين السخاوى شيخه شهاب الدين بن حجر العسقلاني، و أخذ عنه كثيرا من علمه، و أجيز منه برواية مصنفاته، و كان ابن حجر يرسل إلى تلميده هذا ليفد إليه فى داره أذا كان قد تهيأ لإلقاء درسه على طلابه.

و كان بعض الطلبة يطوفون على كثيرين من الشيوخ، حسب اختيارهم، فيلتمسونهم فى دروسهم و لو تباعدت أماكن هذه الدروس. و روى أن محيى الدين النووى ــ رأس الشافعية فى زمانه ــ كان و هو طالب يتلقى اثنى عشر درسا فى اليوم و الليلة، و رواه الذهبى فى تذكرة حفاظه.

و اشتد حرص الطلبة على الرحلة فى طلب الحديث الشريف، فطافوا لأجله بالمدن المصرية على حفاظه ورواته، و رحلوا إلى البلاد الشامية والحجازية و غيرها

(209)

لهذا تعدد المشايخ للطالب الواحمد حتى ليبلغ عددهم أحيانا العشرات بل المئات، و عنى بعضهم بإخراج معجم لشيوخه، يترجم فيه لكل منهم، و ينوه بمقدار علمه و فضله و ما أفاد منه. و فى هذا ما فيه من معانى تقدير الطالب لأستاذه و وفائه له، و هويدلنا ضمنا على مبلغ ما كان بين الطالب و شيوخه من محبة و ثقة و ملابسة طوية، و كل هذا يصور لنا الجو التعليمى الذى كانوا يعيشون فيه.

و حرص الطالب كذلك على استجازة شيوخهم فى الحديث و غيره، حتى فى علوم اللغة و الأدب، فاجازوهم و كتب بعضهم إجازاتهم أدبى بديع طريف، فكانت هذه الاجازات بمثبة الشهادت الجامعية الحديثة. و لعلها تشبه أرقى أنواع هذه الشهادت.

و امتد حرص الطلبة على الأخذ عن الشيوخ أخذا معنعنا و اصلاً بسنده إليهم حتى فى الخط. و من الطريف ما ذكر شمس الدين السخاوى فى كتابه «الضوء الامع» فى ترجمة ابن الصائغ، فقد قال ما ملخصه: «إن ابن الصائغ تعلم الخط المنسوب من النور الوسيمى تلميذ غازى و لازمه حتى أتقن قلم النسخ و فاق عليه، و أحب طريقة ابن العفيف فسلكها وتعلمها من أبى على محمخ الزفتاوى المصرى ثم صارت له طريقه منزعة من طريقتى

غازى و ابن العفيف، و ابن العفيف أخذ الخط عن أبيه، عن الولى العجمي، عن شهدة الكاتبة، عن ابن أسد، عن على بن البواب، و ابن اسمساني، عن مشايخها عن ابن مقلة...» و هذا التسلسل فى الأخذ، هو مايسمونه بالخط المنسوب.

و لم تمنح الاجازات جزافا و اعتباطا، بل بعد طول اختبار للطالب و دقة معرفة به، و بمحصوله من العلم.

و كان أمر التدريس يوكل إلى حذاق المعلمين، و مهرة الشيوخ ممن ذاع فضلهم، و اكتمل علمهم. و نذكر على سبيل المثال: تقى الدين بن دقيق العيد، فقد درس فى المدرسة الصلاحيه و الكاملية المعروفة بدار الحديث. و ابن رزين،

(210)

درّس بالمدرسة الظاهرية وابن الملقن ــ درّس بالبقرية و السابقية ــ و قوام الدين الاتقاني، درسّ بالصر غتمشية ــ و ابن حجر المسقلانى بالمؤيدية ــ و ابن خلدون بالأزهر. و غير هم كثيرون، و ما من مدرس من هؤلاء إلا و هو ضليع فى علمه. و كان من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ منصب القضاء الأكبر، غير انهم كانوا يتأبون على المناصب والقضاء، خشية الفتنة أو الزلل، بينما هم يتزاحمون على التعدى للتعليم، و هم يعتقدون أنه أفضل قربة يتقربون بها إلى الله، و أنه فرض عليهم للعلم يجب أداؤه.

و كانت دروسهم جدلا أو إملاء، غير أن الجدل كان أوسع نطاقا، و أبعد آفاقا، فولد فى كثير من الطلاب روح النقد، و حسن الموازنة و سلامة الاستدراك، و الاقتدار على المناظرة.

و كان على الطالب ــ قبل أن ينقطع لطلب العلم بهذه المدارس ــ أن يمر بمكتب من المكاتب يحفظ فيه القرآن، و يتعلم الكتابة و القراءة. ثم يأخذ نفسه بحفظ عدد من كتب العلوم الختلفة التى ينوى دراستها، ليكون حفظه سندا له، و قوة على استحضار نصوصها، و مناقشتها، و فهمها، و

نقدها، و الاستدراك عليها ــ و كان عليه بعد حفظها أن يسمعها لبعض شيوخه، ليتثبت من حفظها، و كان هذا بمثابة اختبارله ــ على أن بعض الشيوخ كان يختبر طلابه، إذا زايلوا مكانبهم، ليندمجوا فى حلقته، فقد روى السبكى فى طبقاته عن الحافظ شمس الدين الذهبى «أنه عند ما قدم إلى القاهرة، و دخل إلى شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد ــ و كان المذكور شدير التحرى فى الاسماع ــ قال له: من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: بم تعرف؟ قال: بالذهبي. قال : من أبو طاهر الذهبي؟ فقال له: المخلص. فقال: أحسنت. فقال: من أبو محمد الهلال؟ قال: سفيان بن عيينة. قال: أحسنت، اقرأ، و مكنه من القراءة عليه حينئذ، إذ رآه عارفاً بالأسماء».

و كانت لهذه المدارس و امكاتب جميعا آداب تُراعى، و تقاليد تتبع، كلها ترمى إلى تقديس العلم و احترام المعلم و رعايه المتعلم، و يضيق المقام هنا، لو ذهبنا نعدد هذه

(211)

الآداب و التقاليد، و لعل ما جاء فى كتاب «تذكرة السامع و المتكلم، فى أدب العالم و المتعلم» للقاضى الأديب المصرى البارع بدر الدين بن جماعة المتوفى عام 733 هـــ و كتاب «المدخل» لابن الحاج نزيل القاهرة و المتوفى بها عام 737 هـــ، ماينوه بها أو ببعض ما كان متبعا منها.

من هذا و ذاك نشعر بجلال الحركة التعليمية فى تلك العصور، و بأنها كانت أنبل مستوى فى بعضى مظاهرها و معانيها و مراميها، مما سمونا إليه نحن الآن.

و لعل من المناسب هنا أن نشير إلى أن لبلاد المصرية حينذاك رحبت عن كريم نفس، و اطمئنان ضمير بالوا فدين إليها من الغرباء شيوخا و طلابا معا، فقد كانت هى المنابة الآمنة بين العالم الإسلامى القلق المضطرب شرقا وغربا. فوطأت لهم فى كنفها، و أفسحت فى رحابها، فوجدوا فيها الدعة و الطمأنينة، و الراحة و السكينة، و لقوا المراح البر، و

المرتزق الثر، و الحظوة الطيبة لدى السلاطين و الأمرء، و العلية و العامة.

و كانت مصر تصدرفى سياستها تلك عن روح دينية عالية، و أخوة إسلامية سامية، فهمت حقيقة الدين، و ما يدعو إليه من إيثار و مودة و تاون حتى يصبح المسلمون قاطبة بنعمه الله إخوانا، و قوة و يداً على من عاداهم، و فى ذلك ما فى من العزة.

و أعتقد أن من محاسن التعليم فى العصر الحديث، صدور مصر فى سياسته عن تلك الروح القديمة، و ذلك المبدأ القويم الذى اعتنقته فيما سلف، فلقد أصبح الطالب الشرقى يجد من معونة الدولة و تيسيرها له سبيل التعليم ما لا يجده الطالب المصرى أحيانا، إلى هذا الحد بلغ بها الإيثار والود، و إنها لسعادة كبير أن توفق الجارات الشرقية إلى فهم هذه الروح فهما دقيقا، حتى تقدر ما تنشده مصر من أخوة عامة حق قدره، و تعمل على توطيد هذه الأخوة.

و بعد، فلعل هذه العجالة تلقى ضوءا ــ ولو يسيرا ــ على الحركة التعليمية فى مصر، إبان عصورها الوسطى التى يسمونها «المظلمة» يقنعنا بأن نعدل عن اتهامها بل بأن نعرف لها فضلها، و نترفق فى الحديث عنها، و نحن بصدد العلاج لمشكلة التعليم؟

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأخلصوا النية لله وحده وجددوا دعوة الجهاد معاً[1]، فهذا سيف الدين قطز بأقواله وأفعاله يبرهن على ذلك، فبعد معركة عين جالوت وقف خطيباً وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قليلكم على كثير عدوكم، إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن أشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله إنه ذو القوة المتين، واعلموا انكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد اعدائه من سائر

---

[1] جهاد المماليك صـــ 289.

بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله[1]، والواقع اننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال ندرك أن الدافع الاساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للذود عن ممتلكات المسلمين، ولما كان ذلك لا يتأتى إلا بتوحيد كلمة المسلمين، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك، فبدأوا جهودهم بتجميع الفلول الإسلامية التي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدها داخل الأراضي المصرية، وخرج السلطان قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام، ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين، ذلك الجهاد الذي كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونه ركناً من أركان الإسلام[2]، وخلاصة القول أن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التراكمية التي سبقتهم وبنوا عليها وجددوا الدعوة للجهاد وتحرير أراضي المسلمين من المشاريع الغازية المغولية والصليبية.

10 ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم:

كانت من القيم الراسخة في دولة المماليك، قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين، فطول أيام الايوبيين في مصر، ومنذ أن رسخ صلاح الدين المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية، وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس والحكام على السواء، حتى أنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم، وقام العلماء بإنكار ذلك وكتابة الرسائل المعادية للملكة وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة الدر ولا

---

[1] من أجل فلسطين صـــ102.

[2] جهاد المماليك صـــ290.

أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء[1]، وكان من طبيعة العلماء في ذلك العصر النزول في ساحات القتال وتحريض الناس على الجهاد كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام 648هـ، وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام، وكان مقرباً ومحبباً لسيف الدين قطز، وأخذ بترشيده وفتاويه ونفذ ذلك وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد ما يلزم الحرب، فعقد سيف الدين قطز مجلساً للمشورة في قلعة الجبل وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان السؤال حول أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائص الذهبية ونحوها من الزينة وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم[2]، وانقضى الاجتماع ويفهم مما تقدم أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل شيء أو دفع ضريبة إلا إذا أقرها علماء الإسلام، وأصدروا الفتاوى بجوازها، وهذا يعني الخضوع للشريعة، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء، بل راح الأمراء ورجال الدولة يقدمون ما يملكون وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسائهم وأموالهم، وأقسموا لم يتركوا شيئاً، وذلك طواعية دون إرغام أو تهديد وإنما إستجابة لرأي الشريعة، ولما كانت هذه الأموال لا تقوم بالمطالب إستعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساووا جميعاً، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب، ومن ثم كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت

---

[1] قصة التتار صـ360.

[2] الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد صـ120.

في تحقيق الإنتصار[1]، وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم ويقدر وينفذ فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ويطلب مشورتهم في النوازل وكان العلماء والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في توعية الشعب بالأخطار المحيطة به ويحرضون الناس على طلب الشهادة، والإستجابة لنداء الجهاد، فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار، فكان ذلك الإنسجام والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد، كيف يتعامل مع أموال العامة، حتى تصبح حلالاً لا ظلم ولا عدوان فيها، مع الإستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز.

11 ـ الزهد في الدنيا:

لما تحدثنا عن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، ذكرنا منها، حب الدنيا وكراهية الموت، وكيف كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلميين وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً ورضوا بأن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وقد رأينا، محمد بن خوازم، وجلال الدين بن خوارزم والناصر لدين الله، والحليفة العباسي المستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبي، كيف كانت نهايتهم أما قطز وشعبه، فقد فطنوا لهذا المرض، وزهدوا في الدنيا وكان سيف الدين قطز قدوة ومثلاً حياً بين الناس، فقد باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار، ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه، إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عائلي أو إجتماعي أو أمن أو أمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته

---

[1] المصدر نفسه صـــ121.

وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه فإن أحداً لن يلومه؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد وتمنى الموت بين صليل السيوف وأسنة الرماح فزهد في هذه الدنيا الفانية وكانت حياته تطبيقاً عملياً كاملاً لكلماته[1]، فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه وجنوده وشعبه وتحركوا لأحد الحسنين فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت.

12 ـ **صراعات داخل بيت الحكم المغولي**:

وصلت الأخبار إلى هولاكو بوفاة أخيه الأكبر منكو خان وتنازع أخوية الآخرين "قوبيلاي" "واريق بوقا" على ولاية عرش المغول فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقره الرئيسي مدينة مراغة ليكون قريباً من مجرى الحوادث في منغوليا، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعته الحاجة إلى ذلك، وبالرغم من أن هولاكو هو الابن الرابع لتولوي خان من حقه أن ينافس أخويه في تولي ذلك المنصب، غير أنه لم يولي ذلك المنصب اهتماماً، ولعل ذلك راجع إلى ما تهيأ له من النجاح والظفر في ايران والعراق والشام[2]، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الأمور ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر ارقيق بوقا وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول ومن ناحية أخرى لاننسى ما كان من ازدياد العلاقات سوءا بين هولاكو وابناء عمومته خانات القبيلة الذهبية

---

[1] قصة التتار صـــ359.

[2] المغول في التاريخ للصايد صـــ198.

"القبجاق"[1]، الذين باتوا يهددون ممتلكاته ــ وهذا صرفه عن مدّ الامدادات اللازمة للمغول في بلاد الشام، وكذلك لم يستطع قيادة جيش كبير للانتقام من هزيمة معركة عن جالوت ورد الاعتبار والهيبة للمغول ــ إذ أن بركة خان زعيم القبيلة الذهبية كان يميل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاكو وحاشيته يعملون جاهدين على ارضاء المسيحيين واستمالتهم إليهم وتطور الأمر ببركة إلى أن اعتنق الدين الإسلامي، وتعرض هولاكو للتقريع والتأنيب من قبله وصار بركة يتهدده بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح ضحيتها ألوف من المسلمين، وما أنزل بهم من دمار وخراب، فضلاً عما تعرض له الخليفة العباسي من الهوان وتجرئه على قتله، لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما، بل ذهب بركة خان إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قام باضطهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك رداً على ما سلكه هولاكو من سياسية تعسفية تجاه المسلمين بقصد اذلالهم، ويبدو أن هولاكو أراد أيضاً حداً لتصرفات التهكم والانتقام التي مارسها بركة ضده، فحاول أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز، ولكن بركة أعد لذلك الأمر عدته، واستطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاكو هزيمة ساحقة[2]، وهناك أسباب أخرى ذكرت في دفع هولاكو للعودة إلى عاصمته بالمشرق فإن الذي يهمنا قوله هو أن ذلك الحدث المفاجيء كان تحولاً خطيراً، غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي جعلت هولاكو لم يعد إلى فارس بمفرده، بل

---

[1] القبجاق:
فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض النهر ارتش وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر ارتل "الفلجا" في جنوب روسيا الحالية فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماه القبيلة الذهبية.

[2] جهاد المماليك صـــ113.

عاد ومعه جموع من عساكره[1]، وهذا مما ساهم في تحقيق النصر في معركة عين جالوت.

13 ـ سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة:

قال تعالى:"ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون" "ابراهيم، آية: 1" وقال تعالى:"إن ربك لبالمرصاد" "الفجر، آية:14" إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، لقد عاث التتار في الأرض فساداً، وتحقق لهم الفوز في غالب معاركهم، واجتاحوا الشرق بأكمله، وتصوروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم، أنه ليس أمامهم إلا مصر وبعدها يكونون قد ملكوا أزمة الأمور[2]، وقد انتابهم غرور عظيم مع ظلم وطغيان وأنذر إلى ما جاء في رسالتهم لقطز:.. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرفق لمن أشتكى، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع[3]. وهذا يعني الغرور الذي لاحد، وحان وقت الخلاص منهم بقدرة السميع العليم وأراد أن تكون هزيمتهم بل مصرعهم وإنهاء ملكهم في الشام على يد السلطان سيف الدين قطز[4].

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالنجاح السياسي، ويؤثر في الجانب الاقتصادي، ويتأثر به وهكذا وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن

---

[1] المغول للعريني صـ257، جهاد المماليك صـ114.

[2] الطريق إلى بيت المقدس صـ141.

[3] السلوك للمقريزي (514/1).

[4] الطريق إلى بيت المقدس صـ141.

نقول هذه فقط لا مزيد عليها فقد يأتي غيرنا ويزيد عليها، ومطلوب منا التفكر والتأمل والتدبر لنستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين في قيام الدول وسقوطها، وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قيادة التمكين، وفقهاء النهوض وعوامل صناعة التاريخ لنستخدمها لنصرة الله عز وجل، ودينه القويم قال تعالى:"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون" "يوسف، آية:111".

سابعاً نتائج وآثار معركة عين جالوت:

ترتب على انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت نتائج وآثار كثيرة منها:

1 ـ **تحرير بلاد الشام من المغول**:

كان لوصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثر على أهل دمشق وهرب نواب التتار وأصبحت دمشق بدون حكومة لضبط الأمن، وما قام به المسلمون في دمشق من قتل الخونة والعملاء ومن كاد للإسلام وللمسلمين أثناء وجود حكم التتار للمدينة، لم يكن عملاً متطرفاً أو تعصباً ضد النصارى أو اليهود، بدليل أن العقوبات الشعبية لحقت بكل العناصر حتى المسلمين وكما قال المقريزي: ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم[1]، وهذا دليل على أن ثورة المسلمين كانت ضد الخونة ومن تعاون مع الأعداء وهذا الأمرمن حق المسلمين تأديب من بغى على أهل الإسلام، وبالفعل تمّ تطهير دمشق من المغول واذنابهم والخونة معهم، وواصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة فلول التتار بعد عين جالوت، واستمر المسلمين في تطهير بلاد الشام وفلسطين وشرق تركيا من المغول، ولم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين، بعد ذلك

---

[1] الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د.فايد صـ123،122.

واختفى القهر والظلم والبطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم[1].

2 ـ تحقق الوحدة بين الشام ومصر:

ومن أهم نتائج هذه المعركة، إعادة الوحدة بين شطري الجبهة الإسلامية، مصر وبلاد الشام، وهي الوحدة التي تعرضت لمحنة التمزق والانقسام منذ مقتل الملك المعظم تورانشاه في المحرم سنة 648هـ والمعلومات التاريخية تفيد أن المظفر قطز كان يدرك أن انتصار المسلمين في عين جالوت لن يؤتي ثماره إلا بتحرير الشام من سيطرة المغول، ومن ثم فإنه جعل هذه الغاية شغله الشاغل، فبمجرد أن تحقق له النصر في عين جالوت، بعث برسالة عاجلة إلى أهل دمشق، يخبرهم ويطمئنهم، وبذل جهده في توحيد الشام بمصر[2]، وعادت الوحدة من جديد وليس ثمة غير الوحدة من طريق في ماضينا وفي حاضرنا، إنه السير على منهج قادة الجهاد، كعماد الدين ونور الدين وجاء صلاح الدين وبنى على جهدهم انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين وحرر القدس وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم، ودفعهم إلى إحدى اثنتين، الإذعان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا.. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت الدويلات الإسلامية كالزنكية والايوبيين والخوارزمية، والسلاجقة، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تقوم بتوحيد الشام ومصر[3].

---

[1] قصة التتار صـ 345، التتار والمغول د.محمود السيد صـ132.

[2] الجبهة الإسلامية د.حامد غنيم صـ 424، دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك د.نعمان جبران صـ278.

[3] دراسات تاريخية صـ91.

3 ـ خمود القوى المناوئة للمماليك:

قضى المماليك على ما تبقى من الايوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة، فقد ارسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة 659هـ / شباط 1260م جيشاً إلى الشوبك فاحتلها[1]، وبعد عدة أشهر أرسل جيشاً آخر إلى الكرك لإظهار قوته[2]، وفي شهر ربيع الآخر سنة 661هـ /شباط1262م توجه الملك الظاهر إلى دمشق وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة إستطاع على أثرها أن يقبض عليه ويسجنه في سجن القاهرة ثم قتله[3]، وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الأسلحة بما فيها الصناع والوحدات الفنية والهندسية وضرب الحصار على المدينة، فاستسلمت وأعادها إلى حكم المماليك[4]، وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي إستطاع الظاهر القضاء عليها، ولم يكتف الظاهر بملاحقة الأيوبيين، وسلاطينهم، بل طاردهم وتعقب فلولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة، وذلك بتسريح كل أمراء وضباط وجنود وخدم الأيوبيين، وذلك إعتقاداً منه في توظيف الجيش، وجعله مختصراً فقد على أولئك الضباط والجنود الموالين، فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين، وتخلص من الأمير سيف بين نجم الأيوبي[5]، وضايق على الدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشرقي من سوريا، وتضم الموصل، والجزيرة ونصيبين وماردين، وكان على الموصل الملك الصالح ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، وفي نهاية المطاف قضى الملك

---

[1] الروض الزاهر صـ48، معركة عين جالوت صـ394.

[2] معركة عين جالوت صـ394.

[3] المصدر نفسه صـ394، ذيل مرآة الزمان (2 ـ 300).

[4] معركة عين جالوت صـ395.

[5] المصدر نفسه صـ396.

الظاهر بيبرس على الدولة البدرية وضمها إلى الدولة المملوكية وضغط الجيش المملوكي بشدة على قوى الإسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصياف المنطقة الغربية في حمص وحماه وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلاع والحصون، وقبل أن يتهيأ الإسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم إستولى في نهايته على مصياف ثم توالت هجماته حتى إستولى على قلاعها، وانتصر عليهم إنتصاراً ساحقاً[1].

4 - إنتصار الإسلام على الوثنية:

ليس من المبالغة القول إن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية، والسياسية والعقيدية والحضارية عموماً، لقد كان إنتصار المسلمين يعني إنتصار الإسلام على الوثنية، والتحضر على الجاهلية، والقيم على الإنفلات[2]، وفي معركة عين جالوت نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل، الأخذ بالأسباب، والإيمان الواثق العميق بالله، وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها، وبدون تحقق هذا التقابل، فلن يكون نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش، فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت[3]، وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية يقول: تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسير تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما يتخذ في عين جالوت من قرار، فما

---

[1] معركة عين جالوت صـــ396.

[2] دراسات تاريخية صـــ89.

[3] المصدر نفسه صـــ90.

أحرزه المماليك من إنتصار إنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له، فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلادي المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من إستئصال شأفتهم، فأنهم لم يعودوا يألفون العنصر الحاكم ولو إنتصر كتبغا المسيحي، لإزداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة المحن الكبيرة في العصر السابق عن الإسلام[1]، لقد كانت موقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذن ظن المعاصرون أنهم قوم لا يغلبون[2].

5 ـ **حدث حاسم في تاريخ البشرية**:

إن إنتصار المسلمين في معركة عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره، إذ أن ذلك الإنتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده، بل أنقذ العالم الأوربي والمدينة الأوربية من شر ذلك الغزو، فلو تم للمغول، إكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بسهولة من سلوك الطريق التقليدي إلى أوربا عبر صقلية وجبل طارق، لذا فإنه لا يختلف إثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة[3].

6 ـ **روح جديدة في الأمة**:

كان لإنتصار المسلمين في معركة عين جالوت من العوامل التي ساهمت على إنتشار الإسلام وقتئذ،فقد بعث هذا الإنتصار روحاً جديدة في

---

[1] المصدر نفسه صـــ4، عين جالوت فتحي شهاب الدين صـــ34.

[2] نهر التاريخ الإسلامي صـــ456.

[3] جهاد المماليك صـــ356، مصر في العصور الوسطى محمود محمد صـــ246.

المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين إرتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في إيران، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي حتى كللت متاعبهم بنجاح باهر، أثمر إعتناق المغول في غرب آسيا الدين الإسلامي، بعد أن ثبت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي إبتلى بها الدين المسيحي وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها[1].

وسيأتي الحديث عن دخول المغول في الإسلام مفصلاً بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن الملك الظاهر بيبرس.

7 ـ إنحسار المد المغولي:

بعد هزيمة عين جالوت حاول المغول عدة محاولات لإستعادة مجدهم، ورد إعتبارهم وإرجاع سمعتهم الحربية التي تلطخت بالعار مع الجيش المملوكي، فقد شنو عدة غارات وسيروا الحملات العسكرية لكي ينالوا من المماليك، فالحقد يملأ قلوبهم، والانتقام يتميز غضباً في نفوسهم، أنهم كانوا اقوى جيوش العالم، والآن أصيبوا بالضعف والوهن وزالت هيبتهم[2]، وإستطاع المسلمون أن يتغلبوا في عين جالوت على الهزيمة النفسية التي كانوا يعانون منها، وخروج من الإحباط الشديد وعلموا أن الأمل في الله لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها بلا شك إلى زوال[3]، قال تعالى : "لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد" (آل عمران، آية : 196 ـ 197).

---

[1] المصدر نفسه صـــ357.

[2] معركة عين جالوت صـــ381.

[3] قصة التتار صـــ344.

8 - فشل التحالف بين الصليبيين والتتار:

ترتب على إنتصار المماليك في عين جالوت أن ضعف أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضد المسلمين وذلك بسبب ظهور قوة دولة المماليك الإسلامية التي تمكنت من إبعاد الخطر المغولي إلى حدود العراق، بل حاول المماليك غزو العراق وإستخلاصه من التتار[1].

9 - إضعاف الوجود الصليبي:

كان لإنتصار المماليك في معركة عين جالوت دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام، فالذي لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم والذي حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة، فسارع زعماؤهم ـ بعد أن أدركوا أن نهايتهم آتية لا محالة ـ بالتقرب إلى السلطان بيبرس، وطلب مراحمه، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والإتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام، وتمكن من أحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية، الأمر الذي عجل بإقتلاع جزورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام[2].

10 - مدينة القاهرة:

لم تقتصر عين جالوت على النواحي السياسية بل تعدت إلى النواحي الحضارية، حيث جنبت مصر ويلات الغزو المدمر القاهرة لما تعرضت له بغداد ودمشق، وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والدمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية، وبقية القاهرة مكاناً هادئاً آمناً يهرع إليه العلماء

---

[1] الجها الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد صـــ126.

[2] جهاد المماليك صـــ357، المظفر قطز العسيلي صـــ126.

والأدباء والفنانون حتى إكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية، التي برهنت على ما إكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شئون السياسة والحرب، وإتضحت في علاقاتهم الخارجية والدولية الواسعة الإنتشار وفي إصلاحاتهم وإداراتهم الداخلية الحازمة[1].

11 ـ **ميلاد دولة المماليك الفتية**:

في الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطيء البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد، وإذا كانت إنتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة 648هـ/1250م هي صرخة الميلاد للدولة المملوكية، فإن معركة عين جالوت ــ التي حسرت المد المغولي ــ كانت تأكيداً للدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي[2]، وتمكنت الدولة الجديدة ــ بقيادة السلطان الظاهر بيبرس ــ أن تغير مصير المنطقة في أكثر من إتجاه إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل إتجاه، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيراً مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود، ويتأكد هذا القرض من خلال الحقيقة القائلة: أن المغول الذين غزو المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن إعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

---

[1] جهاد المماليك صــ357.

[2] ماهية الحروب الصليبية صــ192.

12 ـ الدور الرمزي للخلافة العباسية:

تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية، فقد كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/1261م بمثابة الحل السعيد الذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هائل في تصفية الوجود الصليبي، وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى إسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الإعتقال[1].

13 ـ تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته:

إزداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت وتعددت تشكيلاته القتالية، ففي أعقاب المعركة وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاث جيوش، أحدهما في مصر وثانيهما في دمشق وثالثهما في حلب، ولقد أطلق على الجيش الذي يقوده القائد الأعلى جيش الزحف، ويبلغ عدده أربعين ألف مقاتل، وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر مائة وخمسين ألف مقاتل ثم تطور هذا الجيش، فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات إحتياطية ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل حجمه إلى ثلاثمائة وسبعة وخمسين ألفاً، وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير على نوعية الأسلحة والاختصاصات المتعددة في الجيش، وتم بناء الجسور والقناطر والترع، كما كان سلاح النفط والنيران في مقدمة الأسلحة التي أصابها التطوير، إذ تنوعت المواد الخارقة وإستخدمت على نطاق واسع وغير ذلك من أنواع الأسلحة[2].

هذه أهم نتائج وآثار معركة عين جالوت على العالم الإسلامي والإنسانية.

---

[1] المصدر نفسه صـــ193.

[2] ....

وذكر المقريزى فى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الأول 24 / 167 كتب قائلاً : " قال جامع سيرة الوزير اليازوري: وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ولم يكن في مخازن الغلات شيء فاشتدّت المسغبة بمصر وكان لخلوّ المخازن سبب أوجب ذلك وهو أنّ الوزير الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء في أيام أبي البركات الوزير كان يبتاع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم وتجعل متجرًا فمثل القاضي بحضرة الخليفة المستعين باللّه وعرّفه أنّ المتجر الذي يقام بالغلة فيه أوفى مضرّة على المسلمين وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن في المخازن وتتلف وأنه يقيم متجرًا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغيره في المخازن ولا انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك فأمضى السلطان له ما رآه واستمرّ ذلك ودام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدّة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانًا للمتجر وآخر من عمله الظاهر برقوق.

وأما الشب: فإنّ معادنه بالصعيد وكانت عادة الديوان الإنفاق في تحصيل القنطار منه بالليثيّ يبلغ ثلاثين درهمًا وكانت العربان تحضره من معادنه إلى ساحل أخميم وسيوط والبهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل في الخليج ويشترى بالقنطار الليثيّ ويباع بالقنطار الجرويّ فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطاريًا بالجروي بسعر أربعة دنانير كل قنطار إلى ستة دنانير ويباع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارًا بالجرويّ سعر ستة دنانير ونصف القنطار ولا يقدر أحد على ابتياعه من العربان ولا غيرهم فإن عثر على أحد أنه اشترى منه شيئًا

أو باعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه وقد بطل هذا.

وأما النطرون: فيوجد في البرّ الغربيّ من أرض مصر بناحية الطرّانة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بالفاقوسية شيء دون ما يوجد في الطرّانة وهو أيضًا مما خطر عليه ابن مدبر من الأشياء التي كانت مباحة وجعله في ديوان السلطان وكان من بعده على ذلك إلى اليوم وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه في كل سنة عشرة آلاف قنطار ويُعطى الضمان منها في كل سنة قدر ثلاثين قنطارًا يتسلمونها من الطرّانة فتباع في مصر بالقنطار المصري وفي بحر الشرق والصعيد بالجرويّ وفي دمياط بالليثي.

قال القاضي الفاضل: وباب النطرون كان مضمونًا إلى آخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفًا وخمسمائة دينار وحصل منه في سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وثمانمائة دينار وأدركنا النطرون إقطاعا لعده أجناد.

فلما تولى الأمير محمود بن عليّ الإستادارية وصار مدبر الدولة في أيام الظاهر برقوق حاز النطرون وجعل له مكانًا لا يباع في غيره وهو إلى الآن على ذلك.

وأما الحبس الجيوشي: فكان في البرّين الشرقيّ والغربيّ.

ففي الشرقيّ: بهتين والأميرية والمنية وكانت تسجل هذه النواحي بعين وفي الغربيّ: سفط ونهيا ووسيم وهذه النواحي حبسها أمير الجيوش بدر الجمالي على عقبه هي والبساتين ظاهر باب الفتوح فلما مات وطال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبًا للفائدة ثم أدخلت في الديوان.

قال ابن المأمون في تاريخه: وجميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية مع البلاد التي لهم لم تزل فلما توفي الخليفة الآمر بأحكام اللّه وجلس أبو عليّ بن الأفضل بن أمير الجيوش في الوزارة أعاد الجميع إلى الملاك لكون نايبه في ذلك الأوفر.

فلما قتل واستبدّ الخليفة الحافظ لدين اللّه أمر بالقبض على جميع

الأملاك وحلّ الأحباس المختصة بأمير الجيوش فلم يزل يأنس به لأنه غلام الأفضل والوزير في ذلك الوقت وعز الملك غلام الأوحد بن أمير الجيوش يتلطفان ويراجعان الخليفة مع الكتب التي أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء إلى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم ثم ارتفعت الحوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافظي.

ولما خدم الخطير والمرتضى في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة في وزارة رضوان بن ولخشي أعاد البساتين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها إليه من الاختلال ونقص الارتفاع.ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة أفتى فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس فقبضت النواحي وصارت من جملة الأموال السلطانية فمنها ما هو اليوم في الديوان السلطانيّ ومنها ما صار وقفًا ورزقًا أحباسية وغير ذلك.

وأما دار الضرب: فكان بالقاهرة دار الضرب وبالإسكندرية دار الضرب وبقوص دار الضرب ولا يتولى عيار دار الضرب إلاّ قاضي القضاة أو من يستخلفه ثم رذلت في زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود المصرّين على الفسق مع ادّعائهم الإسلام وكان يجتهد في خلاص الذهب وتحرير عياره إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة وكانت بمصر المعاملة بالورق فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب في سنة بضع وعشرين وضرب الدرهم المدوّر الذي يقال له: الكامليّ وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ومن الفضة الثلثين ولم يزل يضرب بالقاهرة إلى أن أكثر الأمير محمود الإستادار من ضرب الفلوس بالقاهرة والإسكندرية فبطلت الدراهم من مصر وصارت معاملة أهلها إلى اليوم بالفلوس وبها يقوّم الذهب وسائر المبيعات وسيأتي ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند ذكر أسباب خراب مصر.

وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير فقلّ في زماننا لقلة الأموال ودار الضرب اليوم جارية في ديوان الخاص.

وأما دار العيار: فكانت مكانًا يحتاط فيه للرعية وتصلح موازينهم ومكاييلهم به ويحصل منها للسلطان مال وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة وقد ذكرت في خطط القاهرة من هذا الكتاب.

وأما الأحكار: فإنها أجر مقرّرة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ما صار دورًا للسكنى ومنها ما أنشئ بساتين وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية وقد بطل ذلك من ديوان السلطان وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافًا على جهات متعدّدة.

وأما الغروس: فكانت في الغربية فقط عدّة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدّان مقرّر معلوم وقد بطل ذلك من الديوان.

وأما مقرّر الجسور: فكان على كل ناحية تقرير بعدّة قطع معلومة يجبي منها عن كل قطعة عشرة دنانير لتصرف في عمل الجسور فيفضل منها مال كثير يحمل إلى بيت المال وقد بطل هذا أيضًا وجدّد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت في أسباب الخراب.

وأما موظف الأتبان: فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان وقسم للمقطع وقسم للفلاح فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار فيحصل من ذلك مال كثير وقد بطل هذا أيضًا من الديوان.

وأما الخراج: فإنه كان في البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية: أشجار لا تحصى من سنط لها حرّاس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار.

وكان يستخرج من هذه النواحي مال يقال له: رسم الخراج ويحتج في جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي وتنتفع به من أخشاب السنط في عمائرها ومقرّر آخر كان يجبي منهم يعرف بمقرّر السنط فيصرف من هذا المقرّر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار وعلى

المستخدمين في ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول لكنهم إنما يقطعون الأطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط ويقال لهذا الذي يقطع حطب النار فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر اعتبرت عليهم وقوبل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج الثمن على ما في الرسالة وكانت العادة أنه لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية وقد بطل هذا جميعه واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسي هذا من الديوان.

وأما القرظ: فإنه ثمر شجر السنط وكان لا يتصرّف فيه إلا الديوان ومتى وجد منه مع أحد شيء اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع ويؤخذ من ثمنها الربع عندما تصل إلى ساحل مصر بعدما تقوّم أو يُنادى عليها وكان فيها حيف كبير وقد بطل ذلك.

وأما ما يستأدى من أهل الذمّة: فإنه كان يأخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع في مصر والإسكندرية وأخميم خاصة دون بقية البلاد ضرائب بتقرير في الديوان وقد بطل ذلك أيضًا.

وأما مقرّر الجاموس ومقرّر بقر الخيس ومقرّر الأغنام: فإنه كان للسلطان من هذه الأصناف شيء كثير جدًّا فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب في نظير ما يتحصل منه في كل سنة من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير ومن اللاحق بحق النصف من الراتب وأقل ما تنتج كل مائة خمسون إلى غير ذلك من ضرائب مقرّرة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشعاري وعلى النحل وقد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان وإعراضه عن العمارة وأسبابها وتعاطي أسباب الخراب.

وأما المواريث: فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من

أجل أنّ مذهبهم توريث ذوي الأرحام وأنّ البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه فلما انقضت أيامهم واستولت الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية وهي التي يستحقها بيت المال عند عدم الوارث فتعدل فيها الوزارة مرّة وتظلمْ أخرى.

وأما المكوس: فقد تقدّم حدوثها وما كان من الملوك فيها والذي بقي منها إلى الآن بديار مصر يلي أمره الوزير وفي الحقيقة إنما هو نفع للأقباط يتخولون فيه بغير حق وقد تضاعفت المكوس في زمننا عما كنا نعهده منذ عهد تحدّث الأمير جمال الدين يوسف الإستادار في الأموال السلطانية كما ذكر في أسباب الخراب.

وأما البراطيل: وهي الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها فأول من عمل ذلك بمصر: الصالح بن رزيك في ولاة النواحي فقط ثم بطل وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحياناً وعمله الأمير شيخون في الولاة فقط ثم أفحش فيه الظاهر برقوق كما يأتي في أسباب الخراب.

وأما الحمايات والمستأجرات: فشيء حدث في أيام الناصر فرج وصار لذلك ديوان ومباشرون وعمل مثل ذلك الأمراء وهو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الأهرام اعلم أنّ الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدًّا منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هُدمت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش وبنى بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة.

وأعظم الأهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانيها والسبب في بنائها وقالوا في ذلك أقوالًا

متباينة أكثرها غير صحيح وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفي ويكفي إن شاء الله تعالى.

نظام الجيش أثناء حكم المماليك

ذكر المقريزى نظام الجيش فى أثناء حكم المماليك فى كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار - الجزء الأول - 21 / 167 فقال :

عساكر مصر في الدولة التركية على قسمين

أجناد الحلقة :

وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاون فإنها بلغت على ما رأيته في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلة عدّتها سواء منها الألف والواحد فإنها لا تنفع ولا تدفع وأما المماليك فإنها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لأنْ يباشر القتال ألف أو دونها وهي اليوم قسمان: أجناد الحلقة والمماليك السلطانية.

والمماليك السلطانية :

والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهرية، وناصرية، ومؤيدية والمؤيدية ما بين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد

وإن خوفي ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيّد أبي النصر شيخ خلد الله ملكه يتلاشى إلى أن يؤيد الله الملك بابنه الأمير صارم الدين إبراهيم شدّ الله به أزره فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من ملوك مصر في الدولة الإسلامية قبله.

والشبل في المخبر مثل الأسد وابن السريّ إذا سرِي أسراهما.

ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده بأبِهِ اقتدى عدي في الكرم ومن

يشابه أبه فما ظلم إن الأصول عليها ينبت الشجر.

ثم لما ملك الأشرف برسباي صارت المماليك سبع طوائف: ظاهرية وناصرية ومؤيدية ونوروزية وحكمية وططرية وأشرفية كل طائفة منها مباينة لجميعها فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدّتهم وأمنت على السلطان غائلتهم ولم يخف ثورتهم لتفرّقهم وإن كانوا مجتمعين وتباينهم وإن كانوا في الظاهر متفقين.

قيادة الجيش المملوكي والسلاطين

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : " دار النيابة: كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاون في سنة سبع وثمانين وستمائة سكنها الأمير حسام الدين طرنطاي ومن بعده من نواب السلطنة وكانت النوّاب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وأبطل النيابة وأبطل الوزارة أيضًا فصار موضع دار النيابة ساحة فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره في نيابة السلطنة فلم تكمل حتى قبض عليه فولي نيابة السلطنة الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره في نيابة السلطنة فلم تكمل حتى قبض عليه فولي نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخر وقبض عليه فتولى بعد نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر في أيام لملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون فجلس بها في يوم السبت أوّل صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة في شباك دار النيابة وهو أوّل من جلس بها من النوّاب بعد تجديدها وتوارثها النوّاب بعده وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومي الأثنين والخميس في الموكب تحت القلعة فيسيرون هناك من رأس الصوة إلى باب القرافة ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة وينادى على الخيل بينهم وربما نودي على كثير من آلات الجند والخيم والجركاوات والأسلحة وربما نودي على كثير ن العقار ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة على ما

تقدّم ذكره فإذا مثل النائب في حضرة السلطان وقف في ركن الإيوان إلى أن تنقضي الخدمة فيخرج إلى دار النيابة والأمراء معه ويمدّ السماط بين يديه ما يمدّ سماط السلطان ويجلس جلوسًا عامًا للناس ويحضره أرباب الوظائف وتقف قدّامه الحجاب وتقرأ القصص وتقدّم إليه الشكاة ويفصل أمورهم.

فكان السلطان يكتفي بالنائب ولا يتصدّى لقراءة القصص عليه وسماع الشكوى تعويلًا منه على قيام النائب بهذا الأمر وإذا قُرئت القصص على النائب نظر فإذا كان مرسومه يكفي فيها أصدره عنه وما لا يكفي فيه إلا مرسوم السلطان أمر بكتابته عن السلطان وأصدره فيكتب ذلك وينبه فيه على أنه بإشارة النائب ويميز عن نوّاب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بكافل المملكة الشريفة الإسلامية وما كان من الأمور التي لا بدّ له من إحاطة علم السلطان بها فإنه إما أن يُعلمه بذلك منه إليه وقت الإجتماع به أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه وكان ديوان الإقطاع وهو الجيش في زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ولا اجتماع إلاّ به ولا يجتمع ناظر الجيش في زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ولا اجتماع إلا به ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان في أمر ن الأمور فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاون النيابة صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان واستمرّ ذلك بعد إعادة النيابة وكان الوزير وكاتب السرّ يراجعان النائب في بعض الأمور دون بعض ثم اضمحلت نيابة السلطنة في أيام الناصر محمد بن قلاون وتلاشت أوضاعها فلما مات أعيدت بعده ولم تزل إلى أثناء أيام الظاهر برقوق وأخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخيّ وبعده لم يل النيابة أحد في الأيام الظاهرية ثم إن الناصر فرج بن برقوق أقام المير تمراز في نيابة السلطنة فلم يسكن دار النيابة في القلعة ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ولم يل النيابة بعد تمراز أحد إلى يومنا هذا وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثاني وكانت سائر نوّاب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه في غالب ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما

يراجع السلطان وكان يستخدم الجند ويخرج الإقطاعات من غير مشاورة ويعين الأمر لكن بمشاورة السلطان وكان النائب هو المتصرّف المطلق التصرّف في كلّ أمر فيراجع في الجيش والمال والخبر وهو البريد وكلّ ذي وظيفة لا يتصرف إلاّ بأمره ولا يُفصل أمرًا معضلًا إلا مراجعته وهو الذي يستخدم الجند ويرتب في الوظائف إلاّ ما كان منها جليلًا كالوزارة والقضاء وكتابة السرّ والجيش فإنه يعرض على السلطان من يصلح وكان قل أن لا يجاب في شيء يعينه وكان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه في رتبة النيابة وكلّ نوّاب الممالك تخاطب بملك الأمراء إلاّ نائب السلطنة بمصر فإنه يسمى كافل الممالك تمييزًا له وإبانة عن عظيم محله وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط وإنما كانت النيابة تطلق أيضًا على أكابر نوّاب الشام وليس لأحد منهم من التصرف ما كن لنائب دمشق إلاّ أن نيابة السلطنة بحلب تلي رتبة نيابة السلطنة بدمشق وقد اختلت الآن الرسوم واتضعت الرتب وتلاشت الأحوال وعادت أسماء لا معنى لها وخيالات حاصلها عدم.

عادات وتقاليد الجيش المملوكي

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : "جيوش الدولة التركية زيّها وعوايدها اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معدّ لديوان الجيش وأدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون في أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش وكانت لهذه الديوان عوايد قد تغير أكثرها ونُسي غالب رسومه وكانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو في أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان.

وجندها مختلط من أتراك وحركس وروم وأكرد وتركمان وغالبهم من المماليك والمبتاعين وهم طبقات وأكابرهم من له إمرة مائة فارس

وتقدمة ألف فارس ومن هذا القبيل تكون أكابر النوّاب وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين.

ثم أمراء الطبلخاناه ومعظمهم ن تكون له إمرة أربعين فارسًا ولا يعدّون في أمراء العشراوات.

ثم جند الحلقة وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان كما أنّ مناشير الأمراء من السلطان وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده ثلثان فلا يُمكن الأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحدًا من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم وكان الأمير لا يُخرج أحدًا من أحناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضي إخراجه فحينئذ يُخرجه نائب السلطان ويُقيم عند الأمير عوضه وكان لكل أربعين جنديًا من جند الحلقة مقدّم عليهم ليس له عليهم حكم إلاّ إذا خرج العسكر لقتال فكانت مواقف اوربعين مع مقدمهم وترتيبهم في موقفهم إليه ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر أمراء المئني المقدمين من السلطان مائتي ألف دينار جيشية وربما زاد على ذلك وأما غيرهم فدون ذلك يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار وما حولها.

وأمّا الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار وأما العشراوات فأعلاها سبعة ألاف دينار إلى ما دونها وأما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار وهذا القدر وما حوله إقطاعات أعيان مقدّمي الحلقة ثم بعد ذلك الأجناد بابات حتى يكون أدناهم مائتين وخمسين دينارًا وسيرد تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى وأما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

وأما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا بل تكون على الثلثين مما ذكرناه ما خلا نائب السلطنة بدمشق فإنه يُقارب إقطاعه أعلى إقطاعات أكابر أمرا ء مصر المقربين.

وجميع جند الأمراء تُعرض بديوان الجيش ويُثبتُ اسم الجندي

وحليته ولا يستبدلُ أميرهُ به غير إلا بتنزيل من عوض به وعرضه.

وكانت للأمراء على السلطان في كل سنة ملابس ينعم بها عليهم ولهم في ذلك حظ وافر ويُنعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ومن عداهم بخيول عري ويميز خاصتهم على عامتهم وان لجميع الأمراء من المئين والطبلخاناه والعشراوات على السلطان الرواتب الجارية في كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت.

ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة في كلّ سنة.

وكذلك لجميع مماليك السلطان وذوي الوظائف من الجند وكانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق حتى يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة ثم منم من ينتقل إلى إمرة عشرة أو إلى إمرة طبلخاناه بحسب الحظ واتفق للأميرين طرنطاي وكتبغا أنّ كلًا منهما زوج ولده بابنة الآخر وعمل لذلك المهم العظيم ثم سأل الأمير طرنطاي وهو إذ ذاك نائب السلطان الأمير بيلبك الأيدمريّ والأمير طيبرس أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاون في الإنعام على ولده وولد الأمير كتبغا باقطاعين ي الحلقة فقال لهما: والله لو رأيتهما في مصاف القتال يضربان بالسيف أو كانا في زحف قدّامي أستقبح أن أعطي لهما أخبازًا في الحلقة خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز ولم يجب سؤالهما هذا.

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إذا مات الجنديّ أعطى إقطاعه لولده فإن كان صغيرًا رتب معه من يلي أمره حتى يكبر فكان أجناده يقولون: الإقطاعات أملاكنا يرثُها أولادنا الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها. وبه اقتدى كثير من ملوك مصر في ذلك.

ولأمراء المقدمين حوائص ذهب في وقت الركوب إلى الميدان ولكلّ أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى في شهر رمضان ولسائرهم الأضحية في عيد الأضحى على مقادير رتبهم ولهم البرسيم لتربيع دوابهم ويكون في تلك المدجة بدل العليق المرتب لهم وكانت

الخيول السلطانية تفرّق على الأمراء مرّتين في كل سنة مرّة عندما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله في الربيع عند اكتمال تربيعها ومرّة عند لعبه بالأكرة في الميدان.

ولخاصة السلطان المقربين زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلى بعضهم في السنة مائة فرس ويفرّق السلطان أيضًا الخيول على المماليك السلطانية في أوقات آخر وربما يُعطى بعض مقدّمي الحلقة ومن نفق له فرس من المماليك يُحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق فيُعطى بدله.

ولخاصة السلطان المقرّبين أنعام من الإنعامات كالعقارات والأبنية الضخمة التي ربما أُنفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار ووقع هذا في الأيام الناصرية مرارًا كما ذكر عند ذكر الدول من هذا الكتاب ولهم أيضًا كساوى القماش المنوّع ولهم عند سفرهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأنزال وكانت لهم آداب لا يخلون بها منها أنهم إذا أدخلوا إلى الخدمة بالإيوان أو القصر وقف كل أمير في مكانه المعروف به ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يحدّث رفيقه في الخدمة ولا بكلمة واحدة ولا يلتفت إلى نحوه أيضًا ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يجتمع بصاحبه في نزهة ولا في رمي النشاب ولا غير ذلك ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه.

واختلف زي الأمراء والعساكر في الدولة التركية وقد بينا ما كان عليه زيّهم حتى غيره الملك المنصور قلاون عند ذكر سوق الشرابشيين وصار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التترية والكلاوات فوقها ثم القباء الإسلاميّ فوقها وعليه تشد المنطقة والسيف.

ويتميز الأمراء والمقدّمون وأعيان الجند بلبس اقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك وتكون أكمامها أقصر من القباء التحتانيّ بلا تفاوت كبير في قصر الكم والطول وعلى رؤوسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطيّ الأحمر وتضرّب ويلف فوقها عمائم صغار ثم زادوا في قدر الكلوتات وما

يُلفُ فوقها في أيام الأمير بلبغا الخاصكيّ القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين وعرفت بالكلوتات الطرخانية وصاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية فلما كانت أيام الظاهر برقوق بالغوا في كبر الكلوتات وعملوا في شدّتها عوجًا وقيل لها كلوتات جركسية وهم على ذلك إلى اليوم.

ومن زيهم لبس المهماز على الإخفاف ويُعمل المنديل في الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن ومعظم حوائص المماليك فضة وفيهم من كان يعملها من الذهب وربما عُمِلَتْ باليشم وكانت حوائض أمراء المئين الأكابر التي تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص يُرصّعُ ذهبها بالجواهر.

وكان معظم العسكر يلبس الطراز ولا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس الطراز إلا من له إقطاع في الحلقة وأما من هو بالحامكية أو من أجناد الأمراء فلا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس طرازًا وكانت العساكر من الأمراء وغيرهم تلبس المنوع من الكمخا والخطاي والكبخي والمخمل والإسكندراني والرب ومن النصافي والأصواف الملونة.

ثم بطل لبس الحرير في أيام الظاهر برقوق واقتصروا إلى اليوم على لبس الصوف الملوّن في الشتاء ولبس النصافي المصقول في الصيف.

وكانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند فإذا وقف قدّامه من يطلب الإقطاع المحلول ووقع اختياره على أحد أمر ناظر الجيش بالكتابة له فيكتب ورقة مختصرة تسمى المثال مضمونها حيز فلان كذا ثم يكتب فُوقه اسم المستقَر له ويناولها السلطان فيكتب عليها بخطه يكتب ويعطيها الحاجب لمن رُسم له فيقبِّلُ الأرض ثم يُعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهدًا عندهم ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشري ديوان الإقطاع وهم كتاب ديوان الجيش فيرسمون علاماتهم عليها ثم تُحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات فيكتب المنشور ويُعلّم عليه السلطان كما تقدّم ذكره ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش بعد المقابلة على حجة أصله.

واستجد السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سماها البحرية وهي أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاي في أيام المعز أيبك بقيت أولادهم بمصر في حالة رذيلة فعندما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ورسم أنّي كونوا جالسين على باب القلعة وسمّاهم البحرية وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية.

وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالمملكة مدخل في تأمير أمير عوض أمير مات بل إذا مات أمير سواء كان كبيرًا أو صغيرًا طولع السلطان بموته فأمر عوضه إما ممن في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة أو ممن هو في مكان الخدمة أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه.

وأما جند الحلقة فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه وكتب المثال على نحو من ترتيب السلطان ثم كتب المربعة وجهزها مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليهم في ديوان الإقطاع ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها يُكتب فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع ثم يكتب عليها المنشور كما تقدّم في الجند الذين بالحضرة وإن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد.

ومن مات من الأمراء والجند قل استكمال مدّة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ثم إمّا يُرتَجَعُ منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها ولم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاون البلاد كما تقدم في أوّل هذا الكتاب عند الكلام على الخراج ومبلغه فأبطل عدّة جهات من المكوس وصارت الإقطاعات كلها بلادًا والذي استقرّ عليه الحال في إقطاعات الديار المصرية مما رتبه الملك الناصر محمد بن قلاون في الروك الناصريّ وهو عدة الجيوش المنصورة بالديار المصرية أربعة وعشرون ألف فارس تفصيل

ذلك: أمراء الألوف ومماليكهم ألفان وأربعمائة وأربعة وعشرون فارسًا تفصيل ذلك: نائب ووزير وألوف خاصكية ثمانية أمراء وألوف خرجية أربعة عشر أميرًا ومماليكهم ألفان وأربعمائة فارس.

أمراء طبلخاناه ومماليكهم ثمانية آلاف ومائتا فارس تفصيل ذلك: خاصكية أربعة وخمسون أميرًا وخرجية مائة وستة وأربعون أميرًا ومماليكهم ثمانية آلاف فارس.

كشاف وولاة بالأقاليم خمسمائة وأربعة وسبعون تفصيل ذلك ثغر الإسكندرية واحد والبحيرة واحد والغربية واحد والشرقية واحد والمنوفية واحد وقطيا واحد وكاشف الجيزة واحد والفيوم واحد والبهنسا واحد والأشمونين واحد وقوص واحد واسوان واحد وكاسف الوجه البحريّ واحد وكاشف الوجه القبليّ واحد. ومماليكهم خمسمائة وستون.

وأمراء العشراوات ومماليكهم ألفان ومائتا فارس تفصيل ذلك خاصكية ثلاثون وخرجية مائة وسبعون أميرًا ومماليكهم ألفان.

ولاة الأقاليم سبعة سبعون أميرًا تفصيلهم: أشمون الرّمان واحد وقليوب واحد والجيزة واحد وتروجا واحد وحاجب الإسكندرية واحد واطفيح واحد ومنفلوط واحد ومماليكهم سبعون فارسًا.

مقدّموا الحلقة والأجناد أحد عشر ألفًا ومائة وستة وسبعون فارسًا تفصيل ذلك: مقدّموا المماليك السلطانية أربعون مقدّموا الحلقة مائة وثمانون نقباء الألوف أربعة وعشون نقيبًا مماليك السلطان وأجناد الحلقة عشرة آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثن فارسًا تفصيل ذلك: مماليك السلطان ألفا مملوك أجناد الخلقة ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارسًا.

عبرة ذلك الخاصكية الألوف والنائب والوزير كلّ منهم مائة ألف دينار وكلّ دينار عشرة دراهم الارتفاع ألف ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال كلّ أردب واحد من القمح بعشرين درهمًا والحبوب كلّ أردب منها بعشرة دراهم ومن ذلك الكلف مائة ألف درهم والخالص تسعمائة ألف

درهم.

الألوف الخرجية كل منهم خمسة وثمانون ألف دينار كلّ دينار عشرة دراهم الإرتفاع ثمانمائة ألف وخمسون ألفًا بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه من ذلك الكلف سبعون ألف درهم والخالص لكلّ منهم سبعمائة وثمانون ألف درهم

نظام تنشئة العبيد المماليك إسلامياً وإعدادهم للحرب

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : " الطباق بساحة الإيوان: عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية حتى أن الملك المنصور قلاون كان يخر في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم وختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتى رأى فيه عيبًا اشتدّ على المشرف والاستادار ونهرهما وحلّ بهما منه أيّ مكروه وكان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئًا يذكرون به ما بين مال وعقار وأنا عمّرت أسوارًا وعملت حصونًا مانعة ولي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك وكانت المماليك أبدًا تقيم بهذه الطبقات لا تبرح فيها فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة ي النهار ولا يبتوا إلا بها فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ثم أنّ الملك الناصر محمد بن قلاون سمح لم بالنزول إلى الحمام يوماص في الأسبوع فكانوا ينمزلون بالنوبة مع الخدّام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بني قلاون وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشيّ برسم الكتابة فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إلى من القرآن الكريم وكانت كلّ طائفة لها فقيه بحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات

والأنكار وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئًا من الفقه وأقرأه فيه مقدّمه فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كلّ طائفة معملم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلى لعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جند ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم فينقل إذن إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبةً بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتدّ ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا ولهم أزمّة من الخدّام وأكابر من رؤوس النوب يفحصون على حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلّمه القرآن أو الطواشيّ الذي هو مسلّم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنبًا أو أخلّ برسم أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه وبلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطباق في السحَر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة فيبعث من يكشف عن سبب جنابته كان من إحتلام فينظر في سراويله هل فيه جنابة أم لا فغن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كلّ مكان فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جارة أو تعدّى وكانت لهم الإدرارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم على من قصدهم.

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعى الحال في ذلك بعض الشيء

إلى أن زالت دولته في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة واخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوايد ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لكلّ واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم ن الفوس فصار غذاؤهم في الغاب الفول المصلوق عجزًا عن شراء اللحم وغيره وهذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحوّل ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقرّ رأي الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يُتلفهم بل يُتركون وشؤونهم فبدّلت الأرض غير الأرض وصالت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرًا وأشحهم نفسًا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم عراضًا عن الدين ما فيهم إلاّ من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وافسد من ذئب لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسواء إيالة الحكام وشدّة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتى أنه ما من شهر إلاّ ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه وبلغت عدّة المماليك السلطانية ي أيام الملك المنصور قلاون ستة آلاف وسبعمائة

أجناس المماليك

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : " فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدّتها عشرة آلاف ملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفتي الأرمن والجركس وسماها البرجية لأنه أسكنها في أبراج بالقلعة فبلت عدّتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاة عرفت بالذهبية والزمرذية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاون بجلب المماليك من بلاد

أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامّة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدّم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلى عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفة واحدة فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلى مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كلّ شهر إلى سبعين ألف درهم ثم تزايدت حتى صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم.

توزيع إقطاعيات على الأمراء

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : " الطبلخاناه الخاصكية : كلّ منهم أربعون ألف دينار كلّ دينار عشرة دراهم الارتفاع أربعمائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه من ذلك الكلف خمسة وثلاثون ألف درهم والخالص لكلّ منهم ثلاثمائة وخمسة وستون ألف درهم.

الطبلخاناه الخرجية ثلاثون ألف دينار كلّ دينار ثمانية دراهم الارتفاع مائتان ألف وأربعون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح من ذلك الكلف سبعة آلاف درهم والخالص لكلّ منهم ثلاثة وتسعون ألف درهم.

العشراوات الخرجية كلّ منهم سبعة آلاف دينار كلّ دينار عشرة دراهم الارتفاع سبعون ألف درهم بما فيهمن ثمن الغلال على ما شرح.

من ذلك الكلف خمسة آلاف درهم والخالص لكلّ منهم خمسة وستون ألف درهم.

الكشّاف لكلّ منهم عشرون ألف دينار كلّ دينار ثمانية دراهم الارتفاع مائة ألف وستون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح من ذلك الكلفة خمسة عشر ألف درهم الولاة الاصطبلخاناه كلّ منهم خمسة عشر ألف دينار كلّ دينار ثمانية دراهم الارتفاع مائة وعشرون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح من ذلك الكلف عشرة آلافِ درهم والخالص لكلّ منهم مائة ألف وعشرة آلاف درهم.

الولاة العشراوات لكلّ منهم خمسة آلاف دينار كلّ دينار سبع دراهم الارتفاع خمسة وثلاثون ألف درهم بما فيه من ثمن المغل على ما شرح من ذلك الكلف ثلاثة آلاف درهم والخالص لكلّ منهم اثنان وثلاثون ألف درهم.

مقدّمو مماليك السلطان كلّ منهم ألف ومائتا دينار كلّ دينار عشرة دراهم الارتفاع إثنا عشر ألف درهم بما فيه من ثمان الغلال على ما شُرح من ذلك الكلف ألف درهم والخالص لكلّ منهم أحد عشر ألف درهم.

مقدّموا الحلقة كلّ منهم ألف دينار كلّ دينار تسعة دراهم الارتفاع تسعة آلاف درهم بما فيه من ثمن الغلال من ذلك الكلف تسعمائة درهم والخالص لكلّ منهم ثمانية آلاف درهم ومائة درهم.

نقباء الألوف لكل منهم أربعمائة دينار كلّ دينار تسعة دراهم الارتفاع ثلاثة آلاف وستمائة درهم بما فيه من ثمن الغلال من ذلك الكلف أربعمائة درهم والخالص لكلّ منهم ثلاثة آلاف مماليك السلطان ألفان بابة أربعمائة مملوك لكلّ منهم ألف خمسمائةٍ دينار كلّ دينار عشرة دراهم عنها لأخمسة عشرة ألف درهم بابة خمسمائة مملوك كل واحد ألف وثلثمائة دينار سعره عشرة دراهم عنها ثلاثة عشر ألف درهم بابة ستمائة مملوك لكل واحد ألف دينار عنها عشرة آلاف درهم.

اجناد الحلقة ثمانمئة آلاف وتسعمائة وإثنان وثلاثون فارسًا بابه ألف وخمسمائة فارس لكلّ منهم تسعمائة دينة بتسعة آلاف درهم بابة ألف وثلاثمائة وخمسين جنديًا لكلّ منهم بثمانمائة دينار بثمانية آلاف درم بابة ألف

وثلاثمائة وخمسين جنديًا كل منهم سبعمائة دينار عنها سبعة آلاف درهم.

بابة ألف وثلاثمائة جنديّ لكلّ منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم
بابة ألف وثلاثمائة كلّمنهم بخمسمائة دينار بخسمة آلاف درهم.

بابة ألف ومائة جندي لكلّ منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم
بابة ألف واثنين وثلاثين جنديًا لكلمنم ثلاثمائة دينار سعر عشرة دراهم عنها ثلاثة آلاف درهم.

وأرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة أمير السلاح والدوادار والحجبة وأمير جاندار والاستادار والمهندار ونقيب الجيوش والولاة.

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاون حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها فكثر الدخيل في الأجناد بذلك واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات حتى صار في زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وخربت منهم أراضي إقطاعاتهم.

وأوّل ما حديث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون لما تسلطن في شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة تمكن منه الأمير شجاع الدين أغرلوشادّ الدواوين واستجدّ أشياء منها المقايضة بالإقطاعات في الحلقة والنزول عنها.

فكان من أراد مقايضة أحد بإقطاعه حمل كل منهما مالًا لبيت المال يقرّر عليهما ومن اختار حيزًا بالحلقة يزن على قدر عبرته في السنة دنانير يحملها لبيت المال فإن كانت عبرة الحيز الذي يريده خمسمائة دينار في السنة حمل خمسمائة دينار ومن أراد النزول عن إقطاعه حمل مالًا لبيت المال بحسب ما يقرّر عليه اغرلو وأفرد لذلك ولما يؤخذ من طالبي الوظائف والولايات ديوانًا سمّاه ديوان البدل وكان يعين في المنشور الذي يخرج بالمقايضة المبلغ الذي يقوم به كلّ من الجنديين وكان ابتداء هذا في

جمادى الأولى من السنة المذكورة فقام الأمراء في ذلك مع السلطان حتى رسم بإبطاله فلما ولي الأمير منجك اليوسفيّ الوزارة وسيره في المال فتح في سنة تسع وأربعين باب النزول والمقايضات فكان الجندي يبيع إقطاعه لكلّ من بذل له فيه مالًا فأخذ كثير من العامة الإقطاعات فكان يبذل في الإقطاع مبلغ عشرين ألف درهم وأقل منه على قدر متحصله وللوزير رسم معلوم ثم منع من ذلك فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاي في سنة ثلاث وخمسين مشى أحوال الأجناد في المقايضات والنزولات فاشترى الإقطاعات الباعة وأصحاب الصنائع وبيعت تقادم الحلقة وانتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين بلغت عدّتهم نحو الثلاثمائة مهيس وصاروا يطوفون على الأجناد ويرغبونهم في النزول عن إقطاعاتهم و المقايضة بها وجعلوا لهم عل كلّ ألف درهم مائة درهم فلما فحش الأمر أبطل الأمير شيخون العمري النزولات والمقايضات عندما استقرّ رأس نوبة واستقل بتدبير أمور الدولة وتقدّم لمباشري ديوان الجيش أن لا يأخذوا رسم المنشور والمحاسبة سوى ثلاثة دراهم بعدما كانوا يأخذون عشرين درهمًا..

نظام الحكم ونوع الوزارات أثناء الإحتلال المملوكى

المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (731 من 761) : " نظر الدولة : هذه الوظيفة يُقال لمتوليها ناظر النظار ويقال له ناظر المال وهو يُعرف اليوم بناظر الدولة وتلي رتبته رتبة الوزارة فإذا غاب الوزير وتعطلت الوزارة من وزير قام ناظر الدولة بتدبير الدولة وتقدّم إلى شادّ الدواوين بتحصيل الأموال وصرفها في النفقات والكلف واقتصر الملك الناصر محمد بن قلاون على ناظر الدولة مدّة أعوام من غير تولية وزير ومشى أمور الدولة على ذلك حتى مات ولا بد أ يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كليات المملكة وجزئياتها ورأس المستوفين مستوفي الصحبة وهو يتحدث في سائر المملكة مصرًا وشامًا ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان فتكون تارة بما يُعمل في البلاد وتارة

بالإطلاقات وتارة باستخدام كتّاب في صغار الأعمال ومن هذا النحو وما يجري مجراه.

ديوان النظر: وهي وظيفة جليلة تلي نظر الدولة وبقية المستوفين كلّ منهم حديثه مقيد لايتعدى حديثه قطرًا من أقطار المملكة وهذا الديوان أعني ديوان النظر هو أرفع دواوين المال وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية وكلّ ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان وإليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه وإليه يرجع أمر الاستيمار الذي يشتمل على أرزاق ذوي الأقلام وغيرهم.

مياومة ومشاهرة ومسانهة من الرواتب وكانت أرزاق ذوي الأقلام مشاهرة من مبلاغ عين وغلة وكان لإعيانهم الرواتب الجارية في اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله والخبز والعليق لدوابهم وكان لأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة في كلّ سنة والأضحية وفي شهر رمضان السكر والحلوى وأكثرهم نصيبًا الوزير وكان معلومه في الشهر مائتين وخمسين دينارًا جيشية مع الأصناف المذكورة والغلة وتبلغ نظير المعلوم.

ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير وما دون دونه وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون دينارًا في كلّ شهر مضافًا لما بيدهم من المدارس التي يستدرون من وقافها وكان أيضًا يُصرف على سبيل الصدقات الجارية والرواتب الدارة على جهات ما بين مبلغ وغلة وخبز ولحم زيت وكسوة وشعير هذا سوى الأرض من النواحي التي يعرف المرتب عليها بالرزق الإحباسية وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنًا عن أب ويرثها الأخر عن أخيه وابن العم عن ابن العمّ بحيث أن كثيرًا ممن مات وخرج ادراره من مرتبة لأجنبيّ لما جاء قريبه وقدّم قصتّه يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه أعيد إليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه.

نظر البيوت: كان من الوظائف الجليلة وهي وظيفة متوليها منوط بالأستادار فكل ما يتحدث فيه أستادار السلطان فإنه يشاركه في التحدّث وهذا

كان أيام كون الأستادار ونظره لا يتعدّى بيوت السلطان وما تقدّم ذكره فأما منذ عظيم قدر الأستادار ونفذت كلمته في جمهور أموال الدولة فإن نظر البيوت اليوم شيء لا معنى له.

نظر بيت المال: كان وظيفة جليلة معتبرة وموضع متوليها التحدث في حمول المملكة مصرًا وشامًا إلى بيت المال بقلعة الجبل وفي صرف ما ينصرف منه تارة بالوزن وتارة بالتسبيب بالأقلام وكان أبدًا يصعد ناظر بيت المال ومعه شهود بيت المال وصيرفيّ بيت المال وكاتب المال إلى قلعة الجبل ويجلس في بيت المال فيكن له هناك أمر ونهي وحال جليلة لكثرة الحمول الواردة وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة وكانت أمرًا عظيمًا بحيث أنها بلغت في السنة نحو أربعمائة ألف دينار وكان لا يلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالات المبرزة ثم تلاشى المال وبيت المال وذهب الإسم والمسمّى ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ولا يُدرى ناظر بيت المال من هو.

نظر الإصطبلات: هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم وموضعها الحديث في أموال الإصطبلات والمناخات وعليقها وأرزاق من فيها من المستخدمين وما بها من الاستعمالات والإطلاق وكل ما يبتاع لها أو يبتاع بها وأوّل من استجدّها الملك الناصر محمد بن قلاون وهو أوّل من زاد في رتبة أميراخور واعتنى بالأوجاقية والعرب الركابة وكان أبوه المنصور قلاون يرغب في خيل برقة أكثر من خيل العرب زينة بخلاف الناصر محمد فإنه شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم وبسببها كان يبالغ في إكرام العرب ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحدّ في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من العربان وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها وسموحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل منا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العلية وكان لا يحب خيول برقة وإذا أخذ

منها شيئًا أعدّه للتفرقة على الأمراء البرّانيين ولا يُسمح بخيول آل مهنا إلاّ لأعز الأمراء وأقربّ الخاصكية منه وكان جيد المعرفة بالخيل شياتها وأنسابها لايزال يذكر أسماء من أحضرها إليه ومبلغ ثمنها فلما اشتهر عنه ذلك جلب إليه أهل البحرين والحساء والقطيف وأهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم فدفع لهم في الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم عنها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له ولنسائه ومن السكر ونحوه فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت إيه عتاق خيلها وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف في أثمانها دفعة واحدة من جهة كريم الدين ناظر الخاص ألف ألف درهم في يوم واحد وتكرّر هذا منه غير مرّة وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم واشترى كثيرًا من الحجور بالثمانين ألفًا والتسعين ألفًا واشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب هذا سوى الإنعامات بالضياع من بلاد الشام وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنه بعث به إلى الجشار وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتّاب الإصطبل تؤرّخ تاريخ نزوها واسم الحصان والحجرة فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب ومع ذلك فلم تكن عنده في منزلة ما يُجلب منها وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا وكثرت أموالهم وضياعهم فعزّ جانبهم وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب وبلغت عدّة خيول الجشارات في أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس وكان يعرضها في كلّ سنة ويدوّغ أولادها بين يديه ويُسلمها للعربان الركابة ويُنعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ويتبجح بها ويقول: هذه افلانة بنت فلان وهذا فلان بن فلانة وعمره كذا وشراء أم هذا كذا وكذا كان لا يزال يؤكد على الأمراء في تضمير الخيول ويلزم كلّ أمير أن يضمر أربعة أفراس ويتقدّم لأميراخور أن يضمر للسلطان عدّة منها ويوصيه بكتمان خبرها ثم يشيع أنها لأيدغمش

أميراخور ويرسلها مع الخيل في حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك فإنه ممن لا يطيق شيئًا ينقص ملكه وكان السباق في كلّ سنة بميدان القبق ينزل بنفسه وتحضر الأمراء بخيولها المضمرة فاتفق أنه كان عند الأمير قطلو بغا الفخري حصان ادهم سبق خير مصر كلها في ثلاث سنين متوالية أيام السباق وبعث إليه الأمير مهنا فرسًا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهي للسلطان وإن سبقها فرس ردّت إليه ولا يركبها عند السابق إلاّ بدوي قادها فركب السلطان للسباق في أمرائه على عادته ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا وأرسلت الخيول من بكرة الحاج على عادتها وفيها فرص مهنا وقد ركبها البدويّ عريًا بغير سرج فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى وهي عري بغير سرج والبدويّ عليها بقميص وطاقية فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدويّ: السعادة لك اليوم يا مهنا لا شقيت.

فشق على السلطان أن خيله سُبقت وأبطل التضمير من خيله وصارت الأمراء تضمر على عادتها ومات الناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المهريت والقرشيات سوى أتباعها.

وبطل بعده السباق فلما كانت أيام الظاهر برقوق عني بالخيل أيضًا ومات عن سبعة آلاف فرس وخمسة عشر ألف جمل.

ديوان الإنشاء: وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء يجلس فيه كاتب السرّ وعنده موقعو الدرج وموقعو الدست في أيام المواكب طول النهار ويُحمل إليهم من المطبخ السلطانّي المطاعم وكانت الكتب الواردة وتعليق ما يكتب من الباب السلطانيّ موضوعة بهذه القاعة وأنا جلست بها عند القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمريّ أيام مباشرتي التوقيع السلطانيّ إلى نحو السبعين والسبعمائة فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عاة اختلت أمور كثيرة منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة

وهُجرت وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطارن ونسي رسمها وكتابة السرّ رتبة قديمة ولها أصل في السنّة فقد خرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستانيّ في تاب المصاحف من حديث الأعمش عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كلّ أحد فهل تستطيع أن تُعلّم كتاب العبرانية أو قال السريانية " فقلت نعم.

قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة ولم يزل خلفاء الإسلام يختارون لكتابة سرّهم الواحد بعد الواحد وكان موضوع كتابة السرّ في الدولة التركية على ما استقرّ عليه الأمر في أيام الناصر محمد بن قلاون أنّ لمتوليها المسمى بكاتب السرّ وبصاحب ديوان الإنشاء ومن الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ما بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج بحسب الحال وله تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها وله تصريف المراسيم ورودًا وصدورًا وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها بخطه في المجلس.

فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة وصار إليه التحدّث في مجلس السلطان عندما عقد المشورة وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير وإليهترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرًا وشامًا فيمضي من أمورهم ما أحب ويشاور السلطان فيما لابد من مشاورته فيه وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير فلما عظم تمكن القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السرّ من الدولة جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيري فاستمرّ ذلك لمن بعده ورتبة كاتب السرّ أجلّ الرتب وذلك أنها منتزعة من الملك.

فإن الدولة العباسية صار خلفاؤها في أول أمرهم منذ عهد أبي العباس السفاح إلى أيام هارون الرشيد يستبدون بأمروهم فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكيّ فصار يحيى يوقع على رقاع الرافعين بخطه في الولايات وإزالة الظلامات وإطلاق الأرزاق والعطيات فجلّت لذلك رتبته وعظمت من الدولة مكانته وكان هو أول من وقع من وزراء خلفاء بني العباس وصار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع وربما انفرد رجل بديوان السرّ وديوان الترسل ثم أفردت في أخريات دولة بني العباس واستقلّ بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الإنشاء وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ويُطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء وتارة كاتب السرّ ومرجع هذا الديوان إلى الوزير وكان يُقال له الديوان العزيز وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء.

وكان في الدولة السلجوقية يُسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا وإليه ينسب مؤيد الدين الطغراءي والطغراهي طرّة المكتوب فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ القاب الملك وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغني بها عن علامة السلطان وهي لفظة فارسية وفي بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى وأما مصر فإنه كان بها في القديم لما كانت دار إمارة ديوان البريد ويقال لمتوليه صاحب البريد وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب وهو الذي يطالع بأخبار مصر وكان الأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل إلى الخليفة وغيره فلما صارت مصر دار خلافة كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين إلى أن قدم المعز لدين الله فوقع وجعل أمر فوض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب بن كلس فاستبدّ بجميع أحوال المملكة وجرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكيّ وكان يوقع.

ومع ذلك ففي أمراء الدولة من يلي البريد وجرى الأمر فيما بعد

على أن الوزراء يوقعون وقد يوقع الخليفة بيده فلما كانت أيام المستنصر بالله أبي تميم معدّ بن الظاهر وصرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربيّ عن وزارته أفرد له ديان الإنشاء فوليه مدّة طويلة وأدرك أيام أمير الجيوش بدر الجماليّ وصار يلي ديوان الإنشاء بعده الأكابر إلى أن انقرضت الدولة وهو بيد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيساني فاقتدت بهم الدولة الأيوبية ثم الدولة التركية في ذلك وصار الأمر على هذا إلى اليوم وصار متولي رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة إلا أنه في الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادرا منزلته منزلة صاحب البريد في الزمن الأوّل ومنزلة كاتب السرّ منزلة صاحب ديوان الإنشاء إلاّ أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان وتارة بغير مراجعة فلذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ولا يستغني عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه ولله الأمر كله.

وأما في الدولة الأيوبية فإن كتاب الدرج كانوا في الدولة الكاملية قليلين جدًا وكانوا في غاية الصيانة والنزاهة وقلة الخلطة بالناس واتُفق أن الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير كان من جملتهم فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر في السماعات فصرفه من ديوان الإنشاء وقال: هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا.

وكانت العادة أن لا يحضر كتاب الإنشاء الديوان يوم الجمعة فعُرض للملك الصالح في بعض أيام الجمع شغل مهم فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدًا منهم فقيل له أنهم لا يحضرون يوم الجمعة فقال: استخدموا في الديوان كاتبًا نصرانيًا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى.

نظر الجيش: قد تقدّم أنّه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش في أيام الموكب وتقدّم في ذكر الإقطاعات وذكر النيابة ما يدل على حال متولي نظر الجيش ولا بدّ مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين من يضبط

كليّات المملكة وجزئياتها في الإقطاعات وغيرها.

نظر الخاص: هذه الوظيفة وإن كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين فإن متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ إليه في الدولة التركية وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أبطل الوزارة واقام القاضي كريم الدين الكبير في وظيفة نظر الخاص صار متحدّثًا فيما هو خاص بمال السلطان يتحدث في مجموع الأمر الخاص بنفسه وفي القيام بأخذ رأيه فيه فبقي تحدّثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه.

وإلى ناظر الخاص التحدّث في الخزانة السلطانية وكانت بقلعة الجبل وكانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة وكان نظر الخزانة منصبًا جليلًا إلى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص فضعف أمر نظر الخزانة وأمر الخزانة أيضًا وصارت تُسمى الخزانة الكبرى وهو اسم أكبر من مسماه ولم يبق بها إلا خِلع يُخلع منها أو ما يحضر غليها ويصرف أولًا فأولًا وصار نظر الخزانة مضافًا إلى ناظر الخاص وكان الرسم أن لا يلي نظر الخزانة إلاّ القضاة أو من يلحق بهم وما برحت الخزانتة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنًا لمماليك الظاهر برقوق في سنة تسعين وسبعمائة فتلاشت من حينئذٍ ونُسي أمرها وصارت الخلع ونحوها عند ناظر الخاص في داره وكانت لأهل الدولة في الخلع عوايد وهم على ثلاثة أنواع أرباب السيوف والأقلام والعلماء فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الروميّ وتحته الأطلس الأصفر الروميّ وعلى الفوقانيّ طرز زركش ذهب وتحته سنجاب وله سجف من ظاهره مع الغشاء قندس وكلوتة زركش بذهب وكلاليب ذهب وشاش لانس رفيع موصول به في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن مع منطقة ذهب ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم فأعلاها ما عُمل بين عُمُدِها بواكبر وسطى ومجنبتان بالبلخس والزمرد واللؤلؤ ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة ثم ما كان ببيكارية واحدى غير مرصعة.

وأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفًا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه ويحليه ناظر الخلوص ويزاد فرسًا مسرجًا ملجمًا بكنبوش ذهب والفرس من الإصطبل وقماشه من الركاب خاناه ومرجع العمل في سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص.

وكان رسم صاحب حماه من أعلى هذه الخلع ويُعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الإسكندرية حرير شبيه بالطول ويُنسج بالذهب يُعرف بالمثمر ويُعطى فرسين أحدهما كما ذكر الآخر يكون عوض كنبوشه زناري أطلس أحمر وكانت لنائب الشام على ما استقرّ في أيام ودون هذه الرتبة في الخلع نوع يُسمىّ طرزوحش يُعمل بدار الطراز التي كانت بالإسكندرية وبمصر وبدمشق وهو مجوّخ جاخات كتابة بألقاب السلطان وجاخات طرزوحش وجاخات أوان بقصب مذهب يفصل بين هذه الجاخات نقوش وطراز هذا يكون من القصب وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازًا مزركشًا بالذهب وعليه فرو سنجاب وقندسكما تقدّم وتحت القباء الطرزوحش قباء من المفترح الإسكنداراني الطرح وكلوتة زركش بكلاليب وشاش على ما تقدّم وحياصة ذهب فتارة تكون ببيكارية وتارة لا يكون بها بيكارية وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم.

ودون هذه الرتبة في الخلع كمخًا عليه نقش من لون آخر غير لونه وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما وتحته سنجاب بقندس والبقية كما تقدّم إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقم بل تكون مجوّخة بأخضر وأصفر مذهب والحياصة لا تكن ببيكارية.

ودون هذه المرتبة كمخًا تكون واحدة بسنجاب مقندس والبقية على ما ذكر وتكون الكلوتة خفيفة الذهب وجانباها يكاد أن يكونان خاليين بالجملة ولا حياصة له.

ودون هذه الرتبة مجوّم لون واحد والبقية على ما ذكر خلا الكلوتة والكلاليب.

ودون هذه الرتبة مجوم مقندس وهو قباء ملوّن بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق وغير ذلك من الألوان بسنجاب وقندس وتحته قباء إمّا أزرق أو أخضر وشاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدّم ذكره ثم دون هذا من هذا النوع.

وأما الوزراء والكتّاب فأجلّ ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرّز برقم حرير ساذج وسنجاب مقندس وتحته كمخا أخضر وبقيار كان من عمل دمياط مرقوم وطرحه.

ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب بل يكون القندس بدائر الكمين وطول الفرج ودونها ترك الطرحة ودونها أن يكون التحتانيّ مجومًا ودون هذا أن يكون الفوقانيّ من الكمخا لكنه غير أبيض ودونه أن يكون الفوقانيّ مجومًا أبيض ودونه أن يكون تحته عنابيّ.

وأما القضاة والعلماء فإن خلعهم من الصوف بغير طراز ولهم الطرحة وأجلّهم أن يكون أبيض وتحته أخضر ثم ما دون ذلك وكانت العادة أن أهبة الخطباء وهي السواد تُحمل إلى الجوامع من الخزانة وهي دلق مدوّر وشاش أسود وطرحة سوداء وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب وثياب المبلغ قدّام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة وكانت العادة إذا خَلِقَت الأهبة المذكورة أعيدت إلى الخزانة وصرف عوضها وكانت للسلطان عادات بالخلع: تارة في ابتداء سلطنته وتشمل حينئذٍ الخلع سائر أرباب المملكة بحيث خُلع في يوم واحد عند إقامة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاون ألف ومائتا تشريف في وقت لعبه بالكرة على أناس جرت عوايدهم بالخلع في ذلك الوقت كالجوكندارية والولاة ومن له خدمة في ذلك وتارة في أوقات الصيد عندما يسرح فإذا حصل أحد شيئًا مما يصيده خلع عليه وإذا أحضر أحد غزالًا أو نعامًا خلع عليه قباء مسجفًا مما يناسب خلعة مثله على قدره وكذلك يخلع على البزدارية وجملة الجوارح ومن يجري مجراهم عند كلّ صيد.

وكانت العادة أيضًا أن ينعم على الغلمان الطشت خاناه والشراب خاناه والفراش خاناه ومن يجري مجراهم في كلّ سنة عند أوان الصيد.

وكانت العادة أن من يصل إلى الباب من البلاد أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى إليه أن ينعم عليه من الخلع بأنواع الإدرارات والأرزاق والإنعامات وكذلك التجار الذين يصلون إلى السلطان ويبيعون عليه لهم من الخلع الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق والمسامحات بنظير كلّ ما يباع من الرقيق المماليك والجواري مع ما يُسامحون به أيضًا من حقوق أخرى تطلق وكلّ واحد من التجار إذا باع على السلطان ولو رأسًا واحدًا من الرقيق فله خلعة مكملة بحسبه خارجًا عن الثمن وعما يُنعم به عليه أو يسفر به من مال السبيل على سبيل القرض ليتاجر به.

وأما جلاّبة الخيل من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب فإن لهم الخلع والرواتب والعلوفات والنزال ورسوم الإقامات خارجًا عن مسامحات تكتب لهم بالمقرّرات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول وكان يثمَّنُ الفرس بأزيد من قيمته حتى ربما بغل ثمنه على السلطان الذي يأخذه محضره نظير قيمته عليه عشر مرّات غير الخلع وسائر ما ذكر ولم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة وقد استجدّ في الأيام الظاهرية وكثر في أيام الناصر فرج نوع من الخلع يُقال له الجبة يلبسه الوزير ونحوه من أرباب الرتب العلية جعلوا ذلك ترفعًا عن لبس الخلعة ولم تكن الملوك تلبس من الثياب إلا المتوسط وتجعل حوائصها بغير ذهب فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة ولم يزد أيضًا سقط سرجه على مائة درهم فضة على عباءة صوف تدمري أو شامي فلما كانت دولة أولاده بالغوا في الترف وخالفوا فيه عوايد أسلافهم ثم سلك الظاهر برقوق في ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله وترك لبس الحرير.

كلمات ووظائف كانت موجودة فى عصر المماليك

رنق/رنك

رنك ترمز إلى شعـــــــــــــار أو شارة

"رنك أو رنق" هى كلمة فارسية تعنى باللغة العربية لون ولكن ظل نطقها الفارسى يستعمل فى اللغة العربية كما هى "رنك." استخدمت هذه الكلمة في عصر المماليك لترمز إلى شاراتهم. وكانت هذه الشارات أو الشعارات تستعمل كختم أو علامة ترمز إلى السلطان أو الأمير وتوضع على جميع ممتلكاته وعندما يراها أى شخص يعرف لمن هذا المكان. وكانت هذه الشارات بمثابة شعار للسلطنة أو للأمير تميزة عما سواه سواء أكان فى عصرة أو كان قبله أو بعده فى الحكم

أولاً : وكان في الأغلب ذات لون واحد ثم ألوان متعددة ولذلك استخدمت كلمة بمعنى "لون" لترمز إليها ,

ثانياً : ثم أدخلت عليها أشكال حيوانات

ورنك الظاهر بيبرس. ينقسم اسمه إلى مقطعين بي – برس بمعنى رئيس الفهود في إحدى اللهجات التركية. ولذلك استخدم بيبرس الفهود التي توضع غالباً متقابلة وفي موقف قتال , أو شكل طيور مثل النسر

توجد بعض الأدلة على استخدام الرنوك (جمع رنك) في العصر الأيوبي ولكن أنتشرت فى العصرين المملوكيين (المماليك البحرية والمماليك البرجية أو الشراكسة) وهذه الشعارات كانت تستخدم أيضاً فى أوربا فى ذلك الوقت وربما أنتقلت فكرتها من هناك حيث كان فى وقتها حروب الفرنجة..

يرمز الرنك إلى وظيفة الأمير أما السلطان فقد يستخدم رنكاً خاصاً أو يحتفظ برنكه كأمير. في الغالب كان يستخدم السلطان رنكاً كتابياً عادة ما كانت الرنوك توضع داخل دائرة

ثالثاً : **الرنوك التي ترمز للوظائف فمنها** :

- **مثلا رنك** --

** رنك الدوادارDawadar دواة يرجع تاريخها إلى عصر المماليك

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : " "الدوادار: وهو لقب على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرها مع ما ينضم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو الدواة، والمراد التي يكتب منها. والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك.

** **رنك الساقي** Cup - Sari

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "الساقي: وهو لقب على الذي يتولى مد السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط، ونحو ذلك. وكأنه وُضع في الأول لسقي المشروب فقط ثم استحدثت له هذه الأمور الأخرى تبعاً. ويجوز أن يكون لُقب بذلك لأن سقي المشروب آخر عمله الذي يختم به وظيفته.

** **رنك البندقدار** Pellet Bow - Bunduqdar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "البندقدار: وهو الذي يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير. وهو مركب من لفظتين فارسيتين إحداهما بندق...البندق الذي يرمى به. ثم هو منقول عن البندق الذي يؤكل.....اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدم، ويكون المعنى ممسك البندق.

** **رنك السلحدار**- Silahdar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "السلاح دار: وهو لقب على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما هو من

توابع ذلك. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو السلاح، وقد تقدم معناه في الكلام على أمير سلاح. والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك كما تقدم، ويكون المعنى ممسك السلاح."

** **تيشتدار** Ewer- -Tishtdar - Superintendent of Stores

** **رنك الجمدار** Jamdar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "الجمدار: وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جاما دار فحفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً وقيل جمدار. وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما، ومعناه الثوب. والثاني دار، ومعناه ممسك كما تقدم فيكون المعنى ممسك الثوب.

** **رنك الجوكندار** Junkadar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "الجوكندار. وهو لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع على جوكان دارية، وهو مركب من لفظتين فارسيتين أيضاً: إحداهما جوكان وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً: والثانية دار، ومعناه ممسك كما تقدم. فيكون المعنى ممسك الجوكان. والعامة تقول: "جكندار" بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف."

ملاحظة: مازالت تستعمل كلمة جوكى فى مصر بمعنى من يركب الحصان فى المسابقات

** **جاشنجير** Round Table - Jashnigir - Taster

الذائق , أى يذوق الطعام بعد وضعه على مائدة صغيرة دائرية وعليها اطباق كبيرة خوفاً من السم

** **ألامدار** Banners - 'Alamdar - Standard-bearer

** Trumper - Trumpeter حامل الراية

** **باشمقدار** Shoe Bashmaqdar Shoe-bearer

الباشمقدار هو حامل حزاء أو نعل السلطان أو الأمير-Axe Axe bearer **

حامل سلاح مثل الفاس

وقد بدأ رسم هذه الشعارات بصورة بسيطة مستوحاة من النباتات فى العصر الأيوبى , وكان الشعار فى البداية يرسم فيه ورده بها ستة بتلات أو أحياناً ثمانية بتلات , وفى القرن 15 ب. م في عصر المماليك البرجية/الشراكسة بدأت هذه الشعارات تصبح اكثر تعقيداً ومزرقشة ومزوقة ومنقوشة بشكل بديع وأصبحت بها رموز تشير إلى شئ خاص أى أن الشعار الواحد بدلاً من أن تدل على وظيفة واحدة مثلاً أصبحت تدل على رموز الوظيفتين أى أصبحت مركبة تدل على عدة رموز.

الرنوك الكتابية للسلاطين

ظهرت في عصر المماليك البحرية في صور بسيطة وتطورت في عصر الجراكسة فى آخر القرن 15 ب. م , السلطان قايتباى مكتوب بالأبيض واللون الأساسى بالأزرق والدائرة سوداء , مكتوب فيها " Glory to our master, the Sultan al-Malik al-Ashraf Abu'l-Nasir Qaitbay, amy his victory be glorious".

وام تقتصر الشارات على ما سبق ولكن وضعت على سراويل الأمراء وزوجاتهم وملكات أيمانهم ووضعت ايضاً على السجاجيد

الرشوة فى العصر المملوكى الإسلامى

البرطلة: هي التعبير الشعبي عن الرشوة التي تبذل من اجل الحصول علي منفعة شخصية وغير مشروعة، وفي احيان كثيرة تسمي 'بذلا' أو 'جعلا' وهو ثمن الوظيفة المطلوبة، وقد تأصل هذا الداء في عصر سلاطين المماليك الجراكسة حتي صار موردا من موارد الدولة،و ليس معني هذا ان عصر المماليك انفرد بهذه الظاهرة السيئة، لان جميع العهود

السابقة واللاحقة عرفت ظاهرة الرشوة، وبيع المناصب الادارية والعسكرية والقضاء والحسبة، ولم تسلم وظيفة من وجود راغبين فيها مقابل 'برطلة' السلطان الذي يملك في يده كل مقاليد الامور. ولكن يبدو ان ظاهرة 'البرطلة' استفحلت في العصرالثاني لدولة المماليك الذين عرفواباسم المماليك 'الجراكسة'، مما جعل الدكتور احمد عبدالرازق احمد يخصص كتابه 'البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك' وصدر عن الهيئة العامة للكتاب.

واستهل المؤلف دراسته بتتبع ظاهرة الرشوة منذ بداية العصرالاسلامي. وفي رأيه ان هناك اجماعا علي ان أول من رشا في الاسلام هو المغيرة بن شعبة الذي ولي امارة الكوفة من قبل الخليفة معاوية بن ابي سفيان، ولم يشرح المؤلف طبيعة الرشوة المنسوبة الي المغيرة، وهل كان راشيا او مرتشيا. وان كان من المستبعد ان يكون راشيا لمعاوية الذي عرف انه اول من بذل الاموال من اجل شراء ولاء الاعوان والانصار.

لصوص عدول!

ويضرب الباحث امثلة علي حالات الرشوة التي عرفتها مصرعلي عهد الولاة الامويين، ولكنها تفشت في العصرالعباسي بعد ان اتسعت مهمة الدولة، وتعددت وظائفها، وسعي طلاب المناصب للحصول علي المناصب عن طريق الرشوة مما كان سببا في معاداة عرب مصر للولاة العباسيين، مثل الوالي موسي بن مصعب الذي ولي مصر في عام 167ه من قبل الخليفة المهدي، وتشدد في فرض الرشوة، علي الاسواق والدواب حتي كرهه الناس ونابذوه. وتسربت الرشوة الي مناصب القضاء، وعرف بعضهم بسوء السيرة والانغماس في الرشوة عن طريق كتابهم الذين كانوا يشهدون بعدول بعض الناس وهم أفسد الخلق. وفيهم قال اسحق بن معاذ.

سأدعو إلهي حتي الصباح

لكيما يعيدك كلبا هزيلا

سننت لنا الجور في حكمنا

وصيرت قوما لصوصا عدولا

لكل شيء ثمن

والحق- يقول المؤلف ان الرشوة لعبت في القرن الثالث الهجري دورا سيئا في حياة عمال الدواوين وغيرهم، خاصة بعد ان اصبح لكل شيء ثمن يبذل وخصوصا للمناسب الهامة. التي يمكن ان تدرعلي صاحبها ربحا وفيرا، فالقاضي حسين بن محمد الهاشمي بذل 200 الف درهم من اجل الحصول علي قضاء البصرة، فأخذ منه المال ولم يقلد شيئا، وفي هذاقال المؤرخ ابن تغري بردي متشفيا: يرحم الله من فعل معه ذلك، ويرحم من يقتدي بفعله مع كل ما يسعي في القضاء بالبذل والبرطيل.

ووجدت الرشوة في عصر الاخشيديين، وعرف عن 'كافور' حبه للمال وبيعه لمناصب القضاء، وتحتوي مصادر العصر الفاطمي علي العديد من الحالات التي تثبت ان الرشوة كانت متفشية بين افراد هذا العصر، وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك يبيع الولايات لمن يزايد عليها، وجمع من وراء ذلك ثروات طائلة. وعندما قبض الخليفة العزيز علي وزيره عيسي بن نسطوروس: اشتري حريته بمبلغ ثلاثمائة الف دينار.

منصب البطريق

وكذلك كانت الرشوة متفشية في العصر الايوبي، ويشير المقريزي في حوادث 633 الي تنصيب الانبا كيرلس بطريقا لليعاقبة بالاسكندرية عن طريق السعي والبذل بعد أن خلت أرض مصر من الاساقفة، وكيف ان حبه للمال وللرياسة قد اثار عليه اقاربه فقام عليه ابن الثعبان الراهب وعانده وذكر مثالبه، وانه انما تقدم بالرشوة فلا تصح كهنويته علي حكم القوانين، ومال عن جماعة وعقدوا له مجلسا بحضور الصاحب معين الدين وعزموا علي خلعه، لولا ان قام الكتاب والمستوفون بديار مصر وتحدثوا مع الصاحب، لصالحه فقبل بقاءه علي منصب البطريركية مقابل مبلغ من المال يحمله الي السلطان وعلي هذا استطاع شراء منصبه للمرة الثانية عن طريق

البذل واستمر فيه حتي وفاته سنة 640ه -1242م.

سلاطين ضد الرشوة

يستدرك المؤلف فيقول: انه من الخطأ ان نرمي كل الحكام بداء الرشوة لان التاريخ يحدثنا عن وجود فئة من هؤلاء عرفت بنزاهتها وعفتها عما بأيدي الرعية من الاموال، بل ان هذه الفئة بذلت قدر طاقتها للقضاء علي هذه الظاهرة التي حرمها الدين ونهي عنها، ومن هؤلاء السلطان العزيز 'عثمان' بن صلاح الدين الايوبي الذي ضاقت به الاحوال حتي لم يبق في الخزانة درهم ولا دينار، وجاءه رجل من الصعيد يدفع له عشرة آلاف دينار في مقابل ان يوليه القضاء فكتب للوسيط: اخرج فاطرد هذا الدبر ولولاك لأدبته.

ولكن ماذا كانت تستطيع العناصر الصالحة ان تفعل امام ضعاف النفوس الراغبين في الثراء بأيسر السبل وبأبخس الوسائل!!

الرشوة تمارس علنا

في عصر سلاطين المماليك اتخذت ظاهرة الرشوة صفة الذيوع والانتشار واصطبغت بالصبغة الرسمية، واصبحت تمارس علنا دون خفاء وبصفة خاصة في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي كانت امانته حديث المصادر المعاصرة، ومع ذلك فقد سجلت لنا نفس المصادر بعض حالات من الرشوة ازعجت السلطان الذي كان يمقت المرتشي ويعاقبه اشد عقوبة، حتي انه امر بعدم تولية احد بمال ولا رشوة ولكن هل استجاب الناس لهذه التعليمات؟ الجواب يبدو من خلال النصوص التي تمتليء بها بطون المصادر والتي تشير باصابع الاتهام الي هؤلاء الذين اقبلواعلي أخذ الرشوة مثل محب الدين ولد القاضي المشهور ابن دقيق العيد، وكان يأخذ المال من طلاب الوظائف عند ابيه، ومثل جمال الدين عبدالله ابن القاضي جلال الدين القزويني وعرف الابن بلهوه وشراهته واخذ الرشوة من القضاة، مما اضطر السلطان الناصر إلي عزل الشيخين من اجل ولديهما.

علي نهج ابيه

وتفيض المصادر عن استفحال الرشوة في عهد السلاطين الجراكسة منذ اولهم 'برقوق' وهو ما اشار اليه السفاح تيمور لنك عندما بعث الي برقوق برسالة يقول له فيها: كيف يسمع الله دعاءكم وقد اكلتم الحرام وضيعتم الانام، واخذتم اموال الايتام، وقبلتم الرشوة من الحكام.

وجاء بعد برقوق ابنه الناصر فرج فسار علي نهج ابيه في اخذ البراطيل علي الوظائف.و يذكر المؤرخ ابن حجر ان علاءالدين بن ابي البقاء استقر في قضاء الشافعية بدمشق، ثم لم يلبث ان وصل مرسوم السلطان الي نائب دمشق بان يقبض من القاضي مائتي الف درهم، وهي التي جرت عادة القضاة بدمشق علي بذلها للسلطان. ويعلق ابن حجر بقوله: وكانت هذه الكائنة من اقبح ما فعل.

وتفاقمت ظاهرة الرشوة في عهد السلطان المؤيد شيخ، الذي شملت مظالمه جميع رجال الدولة من ولاة ومحتسبين وقضاة وحجاب.. فلما اعتلي العرش السلطان برسباي انتشرت الرشوة أقوي مما كانت حتي سجل احد المؤرخين عن حادث تعيين احد القضاة بدمشق عوضا عن ابيه الذي وجد مذبوحا في بستانه. اذ يقول في أسي: وهو شاب صغير لم يستتر عذاريه بالشعر، لكنه قام بمال كبير: ثلاثون ألف درهم، فلم يلتفت السلطان لحداثة سنه، ولا لكونه جاهلا بالقراءة والكتابة!!

باعوه بأبخس الاثمان

وكانت نهاية العصر المملوكي علي يد الاتراك العثمانيين نتيجة طبيعية للفساد الذي شاع وذاع. فلما جاء الغوري ليواجه الحملة العثمانية كانت الخزينة خاوية فلجأ الي بيع الوظائف. وسجل المؤرخ ابن اياس اسعار كل وظيفة مثل تسعيرة الخضراوات والفواكه.وجاء آخرهم طومان باي فبذل جهودا يائسة لوقف الرشوة وانتشارها عن طريق ابطال بيع الوظائف، ومنع القضاة الايسعوا في منصب القضاء بمال وقال لهم: انا ما اقبل رشوة في

ولاية احد من القضاة، فلا تأخذوا انتو رشوة من الناس ابدا.. ولكنه فشل في محاولاته كما فشل في صد العدوان العثماني.. ودفع حياته ثمنا لرشوة تقاضاها بعض الخونة الذين لجأ إليهم.. فباعوه بأخبث وابخس الاثمان.

النظام العسكرى الذى أتبعه العبيد المماليك

قد اهتم السلاطين بالاشراف علي مماليكهم اشرافا مباشرا، فراقبوا حركاتهم، وسكناتهم وعاقبوا الخارج علي الآداب عقوبة صارمة، وكان السلطان يفاجيء معسكرات المماليك 'الطباق' ليتفقد احوالهم، ويتأكد من حسن تربيتهم، وكان المملوك يخضع للتعليم لمدة خمسة عشر شهرا - وقد تمتد اكثر من ذلك - وبعدها يعتق في احتفال عام للدفعة كلها، ويتسلم المملوك شهادة عتقه، كما يتسلم سلاحا وفرسا ولباسا خاصا، وإقطاعا من الارض يظل في حوزته طول حياته.

هذه التربية العسكرية البحتة: فرضت علي المماليك ان يعيشوا في عزلة من المجتمع المصري فلا يسمح لهم بالاختلاط او الزواج من المصريات، وذلك للحفاظ علي شخصيتهم، كذلك لا يسمح لاهل مصر بالانخراط في صفوف المماليك. فاقتصرت الجندية عليهم وحدهم، وذهبوا الي مدي ابعد من ذلك حيث منعوا المصريين مهما عظم شأنهم من الانخراط في الجيش كجند محاربين. وسمحوا لهم فقط بالقيام بالاعمال الكتابية أو المساعدة في خدمة القوات المحاربة وفي بعض الاحوال كان بعض الاهالي يبيعون اولادهم للماليك تحت ضغط الحاجة.

عماد الفن الحربي

اما عن التدريب القتالي: كان الجيش المملوكي يعتمد علي الفروسية التي كانت عماد الفن الحربي في ذلك العصر، وعند تدريب المملوك علي ركوب الخيل يبدأ بأن يقيم المعلم تمثالا لظهر الخيل من الطين او الصخر او الخشب، ويعلمهم كيفية الركوب والجلوس وهو درس 'الجلسة الصحيحة' (ويمثل تدريب التمثيل بالتفسير في القوات لمسلحة حاليا) الي ان يتقن

المملوك كيفية ركوب الخيل والجلسة الصحيحة، وفي الخطوة الثانية يضع المعلم سرجا علي ظهر التمثال، ويدرب المماليك كيفية الركوب عليه خاصة بعد حملهم السلاح ومعدات الحرب والقتال، فاذا اطمأن المعلم الي اجادة مماليكه لذلك، بدأ تعليمهم الضرب بالقوس في حالتي الكر والفر مع اختياره نوعية هادئة ومطيعة من الخيل، ثم يتدرج بهم في التدريب حتي يستطيع الجميع السيطرة علي اكثر الخيول شراسة.

وبجانب ذلك كان يشترط في الفارس ان يكون علي علم تام بأخلاق الدواب والامراض التي يمكن ان تصيبها وأسبابها، وطرق علاجها علاجا سليما.

التدريب علي الرمي

وفي المرحلة الثالثة من التدريب علي الفروسية كان المعلم يحضر قوسين لسهمين فيزخذ احدهما ويعطي الآخر للمملوك، ثم يعلمه كيف يأخذ القوس وكيفية التدريب علي حمله (طريقة التمثيل بالتفسير) هذا تحت مراقبة باقي مجموعة المماليك التي تحت التدريب. فإذا اتقن المملوك ذلك عقد الاستاذ علي الوتر من غير سهم يتبعه في ذلك التلميذ، ويطلق الوتر فإذا اتقن المملوك في ذلك يأخذ الاستاذ في التعليم طرق انطلاق السهم بدون ريشة.

ثم تأتي مرحلة متقدمة من التدريب علي الرمي، وهو الرمي بالقوس الذي يكون من الصعود الي الهبوط والعكس، ثم الرمي علي الاهداف الثابتة وهو متحرك، يليها الاهداف المتحركة وهو ثابت، والعكس حتي يصل الي الرمي علي الاهداف المتحركة في الاتجاه المضاد الي ان ينتهي من التدريب علي الرمي علي الحصون والقلاع والمراكب في البحر.

وكان التعليم علي استخدام الرمح من اهم فنون الحرب، وهي المرحلة الرابعة في التدريب علي الفروسية، ونهاية المطاف في تدريبه علي اتقانها لان صفات الفارس لا تكتمل إلا باستخدام الرمح راجلا، ثم راكبا،

وهي عملية تحتاج الي تدريب شاق وطويل، كما تحتاج الي فرس قوي ومطيع وحسن الخلق.

الضرب بالسيف

ويبدأ تعليم الضرب بالسيف عن طريق صنع حائط الطين المحروق، وعلي المملوك ان يضرب في اول يوم خمسا وعشرين ضربة، وفي اليوم الثاني خمسين ضربة دفعة واحد، وهكذا وبنفس النسبة حتي يضرب الف ضربة دفعة واحدة، وتتبع ذلك محاولة قطع اللباد فوق الحائط، ويزداد عدد طبقات اللباد يوما بعد يوم حتي تصل الي مائة طبقة. فاذا فعل المملوك ذلك انتقل الي قطع الورق بالسيف علي المخدة.

فاذا اطمأن المعلم الي مستوي المماليك نقلهم الي العمل بالسيف علي الخيول، ويبدأ بالتدريب علي ضرب عود من القصب الرطب، ويجري بفرسه بسرعة فإذا حاذي العود ضرب بسيفه ما يوازي منكبه، ويكرر ذلك عدة مرات حتي يبقي منه طول ذراع. ثم يكرر الضرب علي خمس نشابات عن يساره، وخمس اخري عن يمينه، ويقوم بطعنها بيمينه ويساره، واخيرا يشرع المعلم في تدريب الفرسان علي العمل بالسيفين معا. وهنا يصبح المملوك 'مقاتلا' أي جاهزا للقتال وانه اكتسب المهارات القتالية.

قاذفات اللهب

كان السيف اهم الاسلحة التي استعملها المماليك في القتال والتدريب وكذلك استعملوا الخنجر والطبر والبلطة والفأس، وهي متعددة الاشكال والاحجام.

اما اهم الاسلحة القتالية التي استخدمها المماليك فهو المنجنيق، وهي آلات قاذفة علي الاعداء من مسافات بعيدة ويتركب المنجنيق من ثمان وعشرين قطعة من الخشب يعمل منها قاعدة، وفوقها القائمان علي الجانبين، ويتصل القائمان بعرضه، ثم يركب علي العارضة سهم يراعي ان يكون احد طرفيه قصيرا، والآخر طويلا. وكانت المجانيق تحمل علي الابل عند

الحصار، وبعضها كان من الضخامة بحيث يحمل علي مائة عجلة، ولم يكن المنجنيق يرمي الاحجار فقط، بل كانت القذيفة تحتوي علي حديد وزجاجات مملوءة بالنفط والزرنيخ والافيون، فتقوم مقام الغازات الخانقة.

ومن هذه القذائف ما كان يرمي باليد مثل الزجاجات المملوءة بالنفط والصبر وبذور القرطم المقشور، فاذا اصابت الهدف اشتعلت مثل زجاجات 'مولوتوف' في العصر الحديث. ويقول العميد نديم ان هذه القذائف كانت تستخدم في العصر المملوكي بأسلوب اكثر تطورا بإضافة الصبر والقرطم المقشور. وكذلك وجدت 'الجروخ' وهي آلة حربية لرمي السهام والنفط والحجارة، وهو ما يصح ان نطلق عله السهم الناري.

في بيت السلاح

وكانت هذه الاسلحة علي اختلاف انواعها تحفظ في بيت السلاح اي 'الزرد خاناه' ويحمل إليها كل عام ما يصنع من الاسلحة. وكان موقع هذه الدار في القلعة وخصص بكل سلاح عدة قاعات، وإلي جوارها نماذج مصغرة من مخازن السلاح تحت اشراف 'أمير السلاح' ويشتغل فيها جماعة من الصناع يختص كل منهم لنوع معين من انواع السلاح ويعهد اليه بصفة وحفظه واصلاحه اذا اصابه تلف. ويظل هؤلاء في حالة عمل دائم سواء كانت البلاد في حالة حرب أو حالة سلم.

الدين الإسلامى طريق المماليك للحكم والسياسة

شهد العصر المملوكي اختراق السلطة الأمنية السياسية، عن السلطة الدينية، فظفر السلاطين بشئون الحكم، وتدبيرالملك، وتركوا للعلماء والفقهاء أمور الدين والشرع. واستند سلاطين المماليك الي قوانين وضعية بعضها مستمد من شريعة جنكيز خان التي أودعها كتابه 'الياسة' ومنه اشتقت كلمة 'السياسة' كما يري بعض مؤرخي الفكر السياسي. والمعروف عن المماليك أنهم خليط ينحدرون من أصول تركية ومغولية، فكان اعتمادهم علي شريعة 'السياسة' أمر متوقعا، تأكيدا لانتمائهم العرقي. حتي ليقول المقريزي -وقد

عاش حياته كلها في العصر المملوكي: ان سلاطين المماليك كانو يطبقون شريعة السياسة في القلعة، حيث ينشأ غلمان المماليك ويعيش المجتمع المملوكي داخل أسوار القلعة، اما الشريعة الاسلامية فجري تطبيقها علي الرعايا المصريين في القاهرة وغيرها من المدن والقري.

وقد اسهب المقريزي في وصف الانقسام الذي حدث بين السلطة الأمنية والسلطة الشرعية فقال: اعلم ان الناس في زمننا، بل ومنذ عهد الدولة التركية 'يقصد دولة المماليك التركي' بديار مصر والشام، يرون أن الاحكام علي قسمين: حكم للشرع، وحكم للسياسة وذلك احتفظ المماليك لانفسهم بالسلطة الأمنية، وتركوا شئون الدين والشرع للجهاز الديني الذي يتربع عليه خليفة مصطنع جلبه السلطان الظاهر بيبرس من بقايا الاسرة العباسية التي أطاح بها هولاكو اثناء تدمير بغداد '656 ه' وصنع منه وريثا للخلافة العباسية اعتقادا منه بان 'الخلافة' هي عمود الدين. وكانت الهيئة الدينية تضم القضاة والفقهاء والعلماء والخطباء. ولهم استقلالهم الذاتي عن سلطان الدولة.

شد وجذب

يقول الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه 'الادب المصري في العصر المملوكي' لقد ظلت العلاقة بين السلاطين ورجال الدين، بين شد وجذب، وان بدأ من سلاطين المماليك الحرص علي الدين ورجاله، وغيره وحماس قد يستغربان، ولكنهم كانوا يعلمون أن رجال الدين هم سندهم بين الناس، ووسيلتهم اليهم، ويدهم التي تبطش احيانا بالشعب او ترفق به، ولهذا فان رجال الدين كانوا يملكون السيطرة علي الناس عن طريق الدين، ويتخذون كذلك وسيلة للسلاطين للضغط ونيل المطالب، بل ورفع المظالم عن الناس اذا نكل المماليك بالرعية.

ويضرب الدكتور سلام امثلة كثيرة علي تلك العلاقة المثلثة الاطراف 'الشعب والمماليك ورجال الدين' فقد كان المماليك يعقدون مجالس

للشوري تضم العلماء للبت في الامور الخطيرة كالتعبئة للقتال أو فرض الضرائب او جباية الاموال أو احداث تغيير اجتماعي او سلوكي. ومن ذلك التعبئة لحرب التتار عندما احدقت جيوش هولاكو بحدود السلطنة في الشام، فلما تكامل ذلك المجلس من الافراد واعيان الدولة، وتبين ان بيت المال خال من الأموال: تكلم شيخ الاسلام 'العز بن عبدالسلام' واجاز للسلطان ان يأخذ من اموال التجار والاعيان ما يساعده علي تجهيز العسكر له علي العدو، لكن بشرط الا يبقي في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش الزركش، واسقاط السيوف الفضية.

وروي 'السبكي' بعضا من الاخبار عن هيبة الشيخ عزالدين لدي السلاطين، ومكانته لدي الشعب. حتي قال عنه الظاهر بيبرس: لو ان هذا الشيخ يقول للناس: أخرجوا عليه لانتزع الملك مني. وقال عندما سمع خبر وفاته: الان استقر ملكي.

التشدد في تنفيذ الحدود

كان سلاطين المماليك يهابون العلماء، ويعرفون مدي تأثيرهم علي الرعية، ولذلك بالغوا في اكرام رجال الدين والعلم، وانسحب هذا التكريم علي رجال الصوفية. وحافظ اكثر السلاطين علي اتباع تعاليم الدين واداء فرائضه، وتقربوا الي الله ببناء المساجد والمدارس والاسيلة والمارستانات والخانقاوات لايواء الصوفية، وتشددوا في تنفيذ الحدود حتي خرجوا علي الشرع. واتخذوا عقوبة القتل لشارب الخمر ومدخن الحشيش. واعتبر بعض الفقهاء ذلك التشدد في الحدود اكثر من احتمال الشرع، وانه خلط من المماليك بين الشرع الاسلامي وشريعة جنكيز خان، وقد اجاز بعض الفقهاء هذا الغلو تخويفا للناس، وردعا للاقلاع عن الرذائل.

وقال الشاعر ابن دانيال في هذا الغلو:

نهي السلطان عن شرب الحميا

وصير حدها حد اليماني

فما جسرت ملوكي الجني خوفا
لأجل الخمر تدخل في القناني

ويشير ابن دانيال في قصيدة اخري الي ان تلك الحدود القاسية ليست من الشرع الاسلامي، لأن الجلد هو الحد في الاسلام علي الخمر، وليس القتل، فيقول:

لقد كان حد السكر من قبل صلبة
خفيف الأذي اذ كان في مشرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلته لصاحبي
الا تب فان الحد قد جاوز الحد

النزاع بين الفقهاء والحكام

ولم يكن الوفاق دائما بين السلطتين الدينية والأمنية، ويروي الدكتور زغلول سلام صورا من هذا النزاع بين السلاطين ورجال الدين حتي ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفي الخليفة 'المستكفي' الي الصعيد مع اقاربه. وربما حدث النزاع لرغبة بعض رجال الدين، وخاصة الحنابلة، في تطبيق حدود الشرع علي المماليك انفسهم، او القيام بتنفيذ الحدود بانفسهم وليس عن طريق الدولة. وتبني هذا الاتجاه الفقيه 'ابن تيمية' وجماعته دون الرجوع الي السلطة الأمنية، مما دفع بالفقيه الي السجن في دمشق، وعاود ابن تيمية الدعوة الي هذا الانفلات عند مجيئه القاهرة، فسجن مرة ثانية، ثم ثالثة في دمشق، وظل مسجونا حتي مات.

خلاف حول المزايا للأقباط

وحدث نزاع آخر بين الفقهاء ورجال الدين من جانب، وبين السلطات الأمنية احتجاجا من العلماء علي منح الاقباط بعض المزايا وفق اتفاق عقده السلطان مع البابا في روما، وامبراطور بيزنطة، وامبراطور الحبشة، فاتهم السلطان بمحاباة الاقباط تحت ستار 'حسن معاملة النصاري'.

وفي دمشق قام الفقراء بتحريض من العلماء سنة 752هـ ضد

مرتادي الخمارات، وتدخل نائب السلطان فمنعهم من التمادي في فعالهم. وبقي الضيق يملأ صدور الفقهاء لغشم المماليك وجهلهم وتهورهم وظلمهم وتصرفهم في الامور علي غير مقتضي الشرع، وكشف السبكي في 'مبين النعم' عن الصراع الخفي بين رجال الدين والمماليك برغم قشرة التحالف الظاهرية بينهم فقال:

ومن قبائح الامراء انهم لا يوقرون أهل العلم، ولا يعرفون لهم حقوقهم، وينكرون عليهم ما يرتكبون اضعافه، وماحق الامير اذا كان يرتكب معصية ووجد فقيها يقال عنه مثلها، ان يبغضه ويعيبه، وماله لا ينظر الي نفسه، اما علم ان القبيح عند الله تعالي حرام بالنسبة الي كل احد.. وما رأيت اميرا يغض من جانب الفقهاء الا وكانت عاقبته عاقبة سوء.

احتقارهم للمصريين

يقول الدكتور زغلول سلام: لاشك انه يبدو من كلام 'السبكي' احتقاره لطائفة المماليك، وكراهيته لغرورهم واستعلائهم علي اهل البلد، وفخارهم بجنسهم التركي، ولذلك يصفهم بالفاظ الاحمق، والجاهل، والغبي.. ويعارض مستهجنا ارتكابهم حماقات الغرض منها التخويف وبث العيبة في نفوس الرعية لتثبيت السلطان ودعمه حتي ولو علي دماء الشعب، وفوق جماجمه، وينتقد السبكي احتكارهم للسلطة علي خلاف الشرع فيقول:'وقد اعتبرت، وما ينبئك مثل خبير- فما وجدت، ولا رأيت، ولا سمعت بسلطان ولا أمير ولا حاجب ولا صاحب شرطة يلقي الامور الي الشرع: إلا وينجو بنفسه من مصائب هذه الدنيا، وتكون مصيبته اخف من مصيبة غيره، وأيامهم اصلح واكثر امنا وطمأنينة، واقل مفاسد، وانت اذا شئت فانظر تواريخ الملوك والامراء العادلين والظالمين اي الدولتين اكثر طمأنينة واطول اياما.

التجسس علي اسرار الناس

وكان المماليك لايتورعون عن التجسس والتلصص واستراق السمع وتلقط اخبار الناس غير مراعين ما ينتهكون من حرمات في سبيل مصالحه وامنهم واستقرار ملكهم. ويقف السبكي في وجه هذه الاعمال لمنافاتها للانسانية وتعارضها مع الحرية الشخصية التي كفلها الدين.

وانتقد السبكي اهتمام المماليك بالدين مظهرا لامخبرا، وخاصة اتخاذ المنشدين وممارسي التسلية والطرب، وعاب علي قراء القرآن تكسبهم في قصور المماليك، وقيام المنشدين بالقاء تواشيح في ذكرمناقب النبي في قوم لا يفهمون ما يقال، واهتمام المماليك باقامة الشعائر الدينية وسط الانوار والزينات في الاحتفال بموالد الاولياء ومايجري فيها من خروج علي الاداب والاخلاق العامة، والمبالغة في اللهو والتحرر من قيود المجتمع، والتمتع بكل الموبقات والمحرمات.

القسم الثاني

دولة المماليك الجركسية (784هـ - 922هـ)

الدوله المملوكيه الشركسيه (أو الجركسيه)، هى الفرع التانى للدوله المملوكيه فى مصر، بدأت بعد الدوله المملوكيه البحريه بعد سلطنة الظاهر برقوق اول سلاطين الدوله ألبرجيه فى مصر اللى استمرت من سنة 1381 لعاية غزو الاتراك العثمانيه و احتلالهم لمصر سنة 1517. اتسببت تمردات الشام و كترة غارات العربان و اعتداءتهم على القرى المصريه و بالتالى تدمير البنيه الزراعيه فى مصر و النزاعات بين الأمرا فى اضعاف الدوله. أخر السلاطين البرجيه كان السلطان الملحمى الأشرف طومان باى

تسمت بالدوله البرجيه لإن مماليكها كانوا بيسكنوا ابراج قلعة الجبل لكن فيه رأى تانى بيقول ان ابراج القلعه كانت للحراسه مش للسكن و انهم كانوا بيتنسبوا لقبيلة " برج " الشركسيه اللى بيتقال إن السلطان المنصور قلاوون اللى كان من المماليك البحريه كان فى الأصل منها. و بتتسمى شركسيه أو جركسيه لإن مماليكها كانوا من الشركس سكان المرتفعات الجنوبيه فى بلاد القبجاق، و دى منطقه ما بين البحر الاسود و بحر قزوين. وقت الغارات و الحروب كانت بتتإسر منهم أعداد و اشترى السلطان قلاوون اعداد كبيره منهم و سكنهم فى قلعة الجبل عشان يبعدهم عن المماليك التركيين (تركيين بمعنى عام مش اتراك تركيا)، و ادى مناصب لعدد منهم زى " السلحداريه " (ماسك السلاح) و " الجقمقداريه " (المسئول عن هدوم السلطان)، " الجاشنكيريه " (دواق أكل السلطان) و " الأوشاقيه " (مسئول ركوب السلطان للحصنه للمتعه و الرياضه). استخدام " البرجيه " اصح من " الشركسيه " لإن من جهه لفظ شركسيه بيشير لجنس مش لنظام سياسى و من جهه تانيه فيه سلاطين من اصول شركسيه حكموا فى فترة دولة المماليك البحريه.

نتيجة لحدوث الأنقسامات والمؤامرات التى دبت بين أخر امراء المماليك البحرية قام السلطان المنصور قلاوون بتكوين فرقة جديدة من المماليك الجراكسة ليكونوا سندا لهم ضد المماليك البحرية وجعل أبراج القلعة مأوى لهم وقام بتربيتهم وتدريبهم وهم من أصول كرجية من " كرجستان"، والذين تربوا ونشؤا في أبراج القلعة، فأخلصوا لــ " المنصور قلاوون" و أبنائه و أحفاده من بعده وذلك لرعاية " المنصور" لهم، الذي عمل على تربيتهم بمنأى بعيد عن المماليك الترك البرية، الذين دبت الفوضى بينهم.

وكان نتيجة السياسة التي اتبعها"المنصور قلاوون" تجاه المماليك البرجية من عطف وتفرقة في المعاملة عن المماليك القدامى الأتراك البحرية، أن دبت العداوة بين المماليك البحرية والمماليك البرجية. إلى أن تسلم أتابك العسكر الأمير " برقوق"(سنة 780هــ/1378م) في عهد السلطان علاء الدين علي، وبعد وفاة هذا السلطان أسند عرش السلطنه للأمير حاجي أحد أحفاد الناصر محمد ثم خلع السلطان حاجي من عرش السلطنة، تسلم برقوق الحكم وكان ذلك (سنة 1382م) ليبدأ عهد جديد من عهد المماليك عرف بعهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية. والتى عمرت أكثر من 134 سنة تعاقب خلالها على السطنة حوالى 23 سلطانا حكم منهم البلاد حوالى 103 سنة وهم (برقوق – فرج بن برقوق – المؤيد شيخ – الاشرف برسباى – جقمق – إينال – خشقدم – قايتباى – قنصوه الغورى) فى حين حكم باقى السلاطين فترات قصيرة.

السلطان الظاهر برقوق(784هـ – 801هـ)- :

تسلم الظاهر برقوق الحكم بعد أن ضعفت أسرة قلاوون، وكانت في السنة الأولى من حكمه مؤامرة لعزله وإحلال الخليفة العباسي محله، إلاّ أنه استطاع القضاء على المؤامرة والتي أدت بالنتيجة إلى عزل الخليفة و تنصيب آخر مكانه، ثم أنه في (سنة 1389 م) قامت ثورة ضده وقف

على رأسها منطاش أمير ملطية، و يلبغا الناصري أمير حلب، حيث تمكنا من مهاجمة القاهرة ومن إبعاد برقوق عن الحكم و إرجاع الأشرف شعبان (من الأسرة القلاوونية) إلى سدة الحكم، ولكنه في ظل الخلاف الذي دب بين (منطاش و يلبغا) استطاع برقوق أن يعود إلى الحكم وبعودته على هذه الصورة بدأ عصر جديد لم تشهده المنطقة الا وهو الغزو التترى لبلاد الشام ...... هما مبيحرموش بقى ولا ااااااااااااااااية !!!! ويعتبر السلطان الظاهر برقوق هو أول سلاطين المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر فقد حكم البلاد فى الفترة من (784هـ – 801هـ).

برقوق وتيمور لنك :

فى سنة 796هـ أرسل تيمور لنك إلى برقوق رسالة تهديد يطلب منه الأستسلام الفورى، ولكن برقوق أظهر ثباتا ورد عليه بكل حزم وغلظة فرد عليه تيمورلنك بغزو الشام.

وقد خرج برقوق من مصر إلى الشام قاصدا العراق على رأس حملة كبيرة لمحاربة تيمور لنك وإعادة احمد بن أويس (صاحب بغداد الذى لجأ إلى القاهرة)إلا ان جاءت الأخبار تفيد بخروج تيمورلنك من بغداد قاصدا بلاد الروم وعندئذ أسترد أحمد بن أوويس سلطانه فى بغداد فى ظل غياب تيمورلنك وعاد برقوق إلى القاهرة سنة 789هـ دون ان تتاح له الفرصة فى محاربة التتار، ولم يلبث وأن توفى برقوق فى القاهرة سنة 801هـ وخلفه أبنه فرج ابن برقوق.

فرج بن برقوق و تيمورلنك :

بعد وفاة السلطان الظاهر برقوق ولى أبنه السلطان الناصر فرج بن برقوق من الفترة (801هـ – 815هـ)، وقد سار فرج بن برقوق على رأس جيش كبيرا إلى الشام بعدما علم بزحف تيمور لنك عليها وانه اكتاح حلب وعلى حدود دمشق ولكن سرعان ماترك فرج الشام وعاد إلى القاهرة لحرج موقفه فى الشام وخشيته على حياته ليترك جيشه يلقى أسوأ مصير

على يد الجيش التترى وقد قتلت اعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال كما دمروا الأطراف الشمالية من بلاد الشام الأمر الذي جعل من بقي من الجند وأهل دمشق يركبون أسوار المدينة حيث نادوا بالجهاد، وعلى الرغم من محاولات " تيمورلنك" في اقتحام المدينة إلاَ أنه فشل في دخولها لاستماتة أهلها في الدفاع عنها فلجأ تيمورلنك للحيلة، وذلك حين دعا قاضي قضاة المدينة إبراهيم بن مفلح للمفاوضة على رأس وفد كان من أعضاءه ابن خلدون و بالفعل ذهب الوفد لمعسكر " تيمورلنك فطلب تيمورلنك من أهالي دمشق ثلاثة أشياء :

- **الطقزات وهي** :

تسع أشياء تتميز بها المدينة – أن تسك النقود بإسمه – ذكر اسمه على المنابر.

فخدع قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح، و خرج بالطقزات و وعد تيمورلنك بسك النقود بإسمه

و بأن يخطب له على المنابر، و رجع بالأمان، ثم أن " تيمورلنك" أمعن في خداع أهلي دمشق وهاجم المدينة بعد حيلة ليستبيحها عدة أيام.

ثم ترك تيمورلنك دمشق على نحو ما ترك به حلب ثم اتجه صوب الشمال فكان من نتائج حملته هذه:

-**خراب بلاد الشام ودمارها**.

– اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن الشام ومنها " صناعة الزجاج".

– نشطت طرق التجارة عبر البحر الأحمر بعد أن أغلق الطريق البري.

أما في القاهرة فقد كان لرجوع السلطان شبه منهزم من الشام وخوف الناس من اجتياح تيمورلنك" مصر أن دب الذعر بين الناس وغلت الأسعار، واشترط فرج على الناس بأن فرض عليهم ضرائب ضخمة، وأخذ

جنود المماليك ينهبون الأهالي في الوقت الذي كان فيه تيمورلنك قد عاد إلى حلب وخربها ثانية ثم توجه إلى ماردين ثم إلى بغداد.

وفي " بغداد" أخذ يتخلق الأعذار و الأسباب لمهاجمة الدولة العثمانية، ثم في (عام 1402 م) توجه إلى " أنقرة" و اصطدم بالجيش العثماني الذي كان على رأسه السلطان " بايزيد الصاعقة" حيث انكسر الجيش العثماني و أسر السلطان بايزيد.

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التى احرزها تيمورلنك فى بلاد الروم وهزيمته للسلطان العثمانى بايزيد الثانى فى موقعة أنقرة، أستجاب فرج للشروط التى تقدم بها تيمورلنك وهو أطلاق سراح الأسرى التتار وأن تسك العملة بأسم تيمورلنك، ولم يلبث ,ان توفى تيمورلنك سنة 808هـ دون ان يحقق امله فى أحتلال مصر.

نهاية السلطان الناصر فرج :

وقد خسر السلطان الناصر فرج مكانته فى نفوس الناس والمماليك نتيجة لرضوخه لطلبات تيمورلنك، وسرعان ماقامت النزاعات والأضطرابات بين امراء المماليك فى مصر وأضطر السلطان فرج إلى الأختفاء لفترة مؤقته لحين تهدئه الأمور وحل محله أخوة النصور عبد العزيز سنة 808هـ.

وبعدما هدأت الأمور واستتبت الأمور تمكن الناصر فرج من العودة إلى السلطنة بعد فترة وجيزة من أختفائه، وقد قضى الناصر فرج بقيه عهده فى تهدئه الأوضاع فى بلاد الشام بعدما اصبحت مسرحا للنزاعات والأضطرابات.

هذا وقد ظهرت على الساحة بعد الأمراء الذين وقفوا فى وجه السلطان الناصر فرج وهما الأميرين الشيخ المحمودى (المؤيد شيخ)، والامير نوروز الذان اعلنا مخالفتهما للسلطان وعندما خرج عليهم السلطان الناصر فرج لمحاربتهما حلت به الهزيمة، هذا وقد أفتت جموع العلماء

والمشايخ بأستباحة دم فرج وذلك لفساد أخلاقه وعكوفه على الشرب واللهو وبالفعل تم أغتياله فى دمشق سنة 815هـ.

سلطنة السلطان المؤيد شيخ (815هـ – 824هـ) :

عقب وفاة الناصر فرج ظهرت صراعات على كرسي السلطنة بين كلا من المؤيد شيخ والامير نوروز، وبعد عدة محاولات فاز الأمير المؤيدى بالسلطنة الأمر الذى أغضب نوروز ورفض الأعتراف بالسلطان الجد وأعلن الثورة ضده مما دفع السلطان إلى الخروج عليه والتخلص منه بالقتل.

وبعدما قضى المؤيد شيخ على التهديدات الداخلية المتمثلة فى الامير نوروز بدأت فى القضاء على التهديدات الخارجية وهى : قيامة بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لأرغام الدويلات التركمانية على الحدود على العودة إلى تبعيتها لدولة المماليك، ففى سنة 821هـ خرج المؤيد شيخ إلى طرطوس وقرمان حتى أستطاع اخضاعهما، ولكن ماكاد السلطان المؤيد يعود إلى مصر حتى نقض التركمان الشروط التى تعهدوا بها، ومن ثم أرسل المؤيد أبنه إبراهيم لصدهم سنة 822 هـ فأستطاع الأستيلاء على قيصرية وقونية وتم سك العملة فى بلاد التركمان بأسم السلطان المؤيد وقد تم تعيين ابنه إبراهيم حاكما على تلك الجهات كما ضم بعد المدن الهامة إلى الدولة المملوكية مثل أذنة وطرطوس.

وفاة السلطان المؤيد شيخ :

وقد توفى السلطان المؤيد شيخ سنة 824هـ فخلفه أبنه أحمد تحت وصاية الأمير ططر، ولم تمض أشهر قليلة فجعله أبنه محمد أبن الظاهر ططر ولبث فى الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباى.

سلطنة السطان الأشرف برسباى (825هـ -841هـ):

حكم السلطان الأشرف برسباى حوالى ستة عشرعاما أتبع خلالهم السلطان الابرسباى سياسة داخلية وخارجية ساعدت على أستقرار البلاد، كما

اهتم بالاصلاح الاقتصادى فى البلاد.

وفى عهد الأشرف برسباى تم غزو جزيرة قبرص، التى كانت طول فترة الحروب الصليبية مقلاً هاماً من معاقل الصليبين فى الشرق، وزاد فى اهميتها ايضا سقوط عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون مما جعل قبرص ملاذاً وملجئاً للمشردين من بقايا الصليبين، ولم تلبث أن أصبحت قبرص مركزاً للمقاومة الصليبية فى الشرق والقلعة الحصينة التى أخذ أصحاب المشاريع الصليبية يعتمدون عليها فى تنفيذ سياسة الحصار ضد الدولة المملوكية فى مصر وبلاد الشام.

وفى عهد السلطان برسباى فقد أستطاع لعمل حربى ضد جزيرة قبرص، ومما حفز برسباى على ذلك أن سياسة قبرص العدوانية لم تنقطع على شواطئ وثغور دولة المماليك فأخذ برسباى يعد جيشه وبناء المراكب والسفن فى مصر وبلاد الشام.

وبدأت حملات الأشرف برسباى الثلاثة لغزو جزيرة قبرص فى الأعوام (1424، 1425، 1426م) وذلك نتيجة لأستيلاء بعض الصليبين على سفينتين من سفن المسلمين بالقرب من دمياط، كذلك استولى لوزجنان على سفينة كانت محملة بالهدايا من الأشرف برسباى الثلاثة لغزو جزيرة قبرص، وقد قامت القوات المصرية بأعمال بطولية وأنتقم المسلمين لأنفسهم أشد الأنتقام.

وفى الحملة الثالثة سنة 1426م أستولى المماليك على جزيرة قبرص وتمكنوا من دخول عاصمتها، وبذلك أصبحت جزيرة قبرص من ممتلكات الدولة المملوكية، وقد عادت أخر حملات الدولة المملوكية على جزيرة قبرص وكان معهم من ضمن الأسرى ملك قبرص، وبعد ضمان قناصل الفرنج وتعهدهم بدفع الجزية للسلطان برسباى أفرج السلطان عن ملك قبرص مقابل دفع مائتى الف دينار جزية، هذا وظلت جزيرة قبرص خاضعة للحكم المملوكى حتى عام 1517م وأستمرت الجزيرة تدفع الجزية

للسلطان العثمانى حتى عام 1577م، حيث أحتلها العثمانيون وحكموها حكماً مباشراً.

سلطنة السلطان جقمق (841هـ – 857هـ):

وبعد وفاة السلطان الأشرف برسباى عام 841هـ تولى الحكم من بعده السلطان جقمق والذى ينسب إليه هو محاولته لفتح جزيرة رودس فبعد ان استولى المماليك على جزيرة قبرص أتخذ القراصنة من جزيرة رودس قاعدة لهم الأمر الذى دفع السلطان جقمق إلى التفكير فى غزو الجزيرة خصوصا قرب جزيرة رودس من قبرص والتى تحت ولاية الدولة المملوكية ومن ثم يمكن أتخاذ جزيرة قبرص قاعدة لغزو جزيرة رودس، فأرسل جقمق ثلاث حملات فى الاعوام (1440، 1443، 1444 م) وبالرغم من أستماته تلك الحملات وقيامها بمجهودات باسلة إلا انها م تحقق الأهداف المطلوبة، وذلك يرجع إلى تسرب أنباء تحرك تلك الحملات إلى رودس الأمر الذى جعل اهلها يستعدون للقتال وعمل التحصينات القوية الراسخة لحماية الجزيرة مما اضطر القوات المملوكية إلى الرجوع إلى مصر، وأخيرا تم عقد الصلح بين المماليك وخكام رودس، وقد تعهد حكام رودس للمسلمين بعدم التعرض للسفن الأسلامية.

سلطنة السلطان الأشرف قايتباى(873هـ – 901هـ) :

تلت وفاة جقمق فترة اضطراب في أحوال البلاد الداخلية نتيجة الصراع علي السلطة، و في هذا المناخ السياسي الملئ بالاضطرابات خلع المماليك السلطان تمربغا و ولوا الأمير قايتباي السلطنة سنة 873 هج/1468 م.

ينتمي قايتباي لأصل شركسي، اشتراه سيده جقمق بخمسين ديناراً و لكنه أظهر نبوغاً في الفروسية و فنون الحرب. و ظل يترتقي في المراتب حتي ولاه القادة المماليك ليكون حاكماً لمصر. و هو يعد أقوي الأمراء المماليك الشراكسة بعد السلطان برقوق.

المتاعب التى واجهت قايتباى:

وقد أثبت السلطان قايتباى أنه أقدر السلاطين المماليك فى ميدان الحرب، وعلى الرغم من ثورات الجلبان فى عهد قايتباى وجشعهم فى الحصول على المال دون مرعاة لظروف الدولة عنديئذ فان قايتباى أستطاع أن يواجه هذه المشاكل بكل حزم وجراة.

وكانت المشكلة الكبرى الخارجية التى واجهت دولة سلاطين المماليك فى ظل عهد قايتباى وهو خطر الدول التركمانية لتى هددت الأطراف الشمالية للدولة المملوكية.

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين فى تلك المرحلة الجديدة وتدخلهم فى شئون تلك الأمارات التركمانية على حدود الدولة المملوكية جعل السلطان الأشرف قايتباى يشعر بالخطر الجديد المحدق به ففكر فى وضع حد لخطر التركمان حتى لايكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثمانى فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال : لذلك قام السلطان قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغار الذى كانت تتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثمانى.

وقد وقعت الحملة الأخيرة التى أرسلها قايتباى سنة 876هـ بقادة الأمير " يشبك " بأنزال الهزيمة بشاه سوار وتم القبض علية وإرسالة إلى القاهرة.

كما كان أغارة قبيل الشاه البيضاء على حلب من إحدى المتعب التى واجعت السلطان ابو النصر قايتباى الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يقوم بإرسال حملة بقيادة يشبك سنة 877هـ والتى احرزت انتصاراً كبيراً على التركمان، وقد انتهز يشبك فرصة الفوضى التى عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة 885هـ ولكن حاكم الرها أستطاع أن يزل به الهزيمة بالمماليك أثناء حصارهم لمدينة الرها ووقع أسيراً حتى قتل ومعه عدد لايحصى من الفرسان، وكانت الظروف حينها لا تساعد السلطان قايتباى على الأنتقام من التركمان فعقد

صلح مع دولة الشاه البيضاء.

هذا وقد فرض قايتباى الضرائب على شعبه وتعسفه فى جمع الأموال وتطبيق سياسة الأحتكار حتى وصفة المؤرخون بأنه محب لجمع المال فى حين يدافع عنه بعض مؤرخون أخرون فى أنه كان معذوراً فى ذلك فقد جمع تلك الأموال الطائلة لينفقها فى أقامة المنشأت الحيوية وتجهيز الجيوش والأسلحة.

تدهور الاحوال وبداية نهاية دولة المماليك :

ساءت احوال البلاد الأقتصادية فى أواخر عصر السلطان قايتباى فقد ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية التى فرضت عليهم، كما أنتشر مرض الطاعون سنة 897هـ بشكل كبير وفتك اعداد هائلة من الناس وساءت الاحوال الاقتصادية.

وفى تلك الظروف القاسية أنغمس المماليك منازعتهم مع بعضهم البعض، وكان المرض كان قد أشتد على السلطان قايتباى لدرجة أنه لم يكن على وعى بما يحدث حوله، لذلك أجتمع الأمراء والقضاة وبايعوا ابنه محمد " 14 سنة " وفى تلك الاثناء لفظ السلطان قايتباى انفاسه الاخيرة وكان ذلك سنة 900هـ.

ولكن لصغر سن السلطان الجديد " محمد بن قايتباى " والذى تلقب بلقب الناصر لم يستطع الوقوف أمام كبار الأمرا الذين أشتد التنافس بينهم الوصاية على منصب السلطنة حتى فاز بها السلطان قانصوة خمسمائة هذا وقد تعاقب الكثير من السلاطين المماليك على السلطنة فى فترات قليلة فقد يتم تولية سلطان ما ولم يطل فترة حكمة حتى يعزل أو يقتل وظلت الأمور على تسير هذا النمط حتى تم تولية السلطان الأشرف قانصوة الغورى.

سلطنة السلطان الأشرف قانصوة الغورى :

وما كاد السلطان الأشرف قانصوة الغورى يتولى السلطنة حتى عمل على إصلاح شئون البلاد المالية وعمل على تسير الأمن والاستقرار

وجمع الأموال وفرض الضرائب الأمر الذى أرهق كاهل الناس.

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة فى بداية حكم السلطان الغورى ولكن الأخطار التى بدأت تظهر وبقوة والتى عصفت بكيان الدولة المملوكية هما:

اكتشاف البرتغاليون لطريق رأس الرجاء الصالح الامر الذى ضعف وهز الكيان الأقتصادى للدولة المملوكية فقد حرم سلطنة الدولة المملوكية من المورد الأول لثروتها وعظمتها وقوتها.

الأمر الذى جعل السلطان قانصوة الغورى يقوم بعمل عسكرى ضد البرتغالين فقد اعد حملة بحرية كبيرة إلى البحر الأحمر سنة 911 هـ وأستطاعت أن تنزل بالأعداء هزيمة ساحقة للبرتغالين سنة 914هـ، ولكن البرتغالين ثأروا لأنفسهم سن 915هـ فى موقعة ديو البحرية وبذلك تقهقرت تجارة مصر مع الشرق الاقصى والغرب الاوروبى الامر الذى أضعف كيان دولة المماليك.

ظهور خطر العثمانيون وفى الوقت الذى ساءت فيه أحوال الدولة المملوكية الاقتصادية والإجتماعية ظهر خطر جديد لاح فى الافق الأ وهو ظهور الخطر العثمانى، وفى القرن 16 الميلادى تمكن العثمانيون من الاستيلاء على اسيا الصغرى والبلقان و أواسط اوروبا وكان اماهم الخيار بين استمرار التوسع فى اوروبا، او التوسع فى الشرق على حساب الدول الإسلامية.

وقد اختار سليم الأول الاتجاه إلى الشرق على حساب الدول الإسلامية المجاورة والذى شجعه على ذلك هو الخلاف المذهبى والسياسي الذى كان بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية فى إيران والعراق.

وبعد أن استطاع سليم الأول من الانتصار على الشاه إسماعيل الصفوى سنة 1514م فكان لابد وأن يحتك بالمماليك وان تكون المواجهة بينهما أمر لا مفر منه ففى سنة 1515م أستولى العثمانيين على إلمارة ولغار

تلك الأمارة التركمانية التى كانت تحت حماية الدولة المملوكية الأمر الذى اقلق السلطان الغورى من اقتراب الخطر العثمانى إلى دولته.

العثمانين والمماليك ومعركة مرج دابق :

عندما وردت الأنباء للسطان الغورى عن الاستعدات والحشوذ الكبرة التى يقوم بتجهيزها سليم الأول بالقرب من الدولة المملوكية، قام – وعلى وجه السرعة – بحشد قواته هو الأخر والاستعدادات للمواجهة العثمانيين ففى عام 922هـ – 1516م خرج قانصوه الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام والتقى الفريقان عند مرج دابق وقد أبلى المماليك فى هذه المعركة بلاءاً حسناً وكادوا أن يعصفوا بالخطر المحدق بهم ألا وهو العثمانيين ولكن حدث شئ لم يكن فى الحسبان وهو خيانة خاير بك نائب حلب – الذى كان متصلاً بالعثمانيين – واخذ يطلق الكذب والشائعات بين صفوف الجيش المملوكى الأمر الذى جعل الدائرة تدور على المماليك وادى إلى تقهقرهم وقد لاذ معظم الجيش المملوكى بالفرار وبذلك انتهت معركة مرج دابق بهزيمة المماليك هزيمة كبرى فقد هزموا ومات سلطانهم قانصوه الغورى جراء ماحدث.

طومان باى وسقوط نهائى للدولة المملوكية :

وفى ظل تلك الظروف المرتبكة لم يجد المماليك إلا الإسراع فى اختيار سلطان لهم ليقودهم فى مواجهة العثمانيين وبالفعل تم اختيار طومان باى والذى تلقب بلقب الأشرف طومان باى، وكان طومان باى أخر سلاطين دولة المماليك فى مصر وبلاد الشام.

وفى تلك الاثناء كان قد استولى العثمانيون على كلا من حلب، دمشق، غزة ثم أخترقوا الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة فأراد السلطان الجديد الخروج لملاقاتهم فى الصحراء وهم متعبون من طول الطريق، ولكن امراء المماليك رفضوا الخروج وفضلوا البقاء فى أماكنهم اعتقاداً منهم أن حصونهم سوف تحميهم.

موقعة الريدانية 922هـ -1517م :

التقى الجيش المملوكى بقادة طومان باى بالجيش العثمانى بقيادة سليم الأول، وقد أظهر طومان باى شجاعة نادرة ولكنه لم يستطيع الصمود طويلا فى التصدى لهذا الجيش المتكامل والمنظم، هذا وقد حلت الهزيمة بالمماليك وفر طومان باى ليواصل المقاومة بين دروب القاهرة وأحيائها وأستطاع أن يخرج سليم الأول من القاهرة بعد أن دخلها ولكن ظهرت عوامل الخيانة مرة اخرى فقد وجد طومان باى بهجوم العربان والبدو الأمر الذى جعل طومان باى يتقهقر إلى وردان (قرب امبابة حاليا) حيث دارت معركة ثانية بين العثمانيين وجيش صغير من المماليك وعندما تغلب العثمانيين على المماليك لم يجد طومان باى امامه سوى الهرب والأختباء عند أحد مشايخ العربان بمديرية البحيرة ولكن هذا الشخص قد خان طومان باى !! وسلمة إلى الجيش العثمانى وقام العثمانيين بشنقه على باب زويلة عام 922هـ – 1517م لتعلن عن انتهاء عصر دولة المماليك وسرد صفحات جديدة عن عهد جديد يطلق عليه العصر العثمانى لتصبح مصر ولاية عثمانية.

علق المؤرخون على حكم المماليك التى بدأت بحكم الملك برقوق بأسم حكم المماليك البرجية لأن مركز حكمهم وتدريبهم كان فى القلعة.

وبدء حكم المماليك البرجية (الشراكسة) فعليا بحكم الملك برقوق على المسلمين فى فترته الثانية أما فترة حكمه الأولى فهى تعتبر فترة انتقال بين حكم المماليك البحرية والمماليك البرجية (الشراكسة) وذلك فى سنة 1390 م و 1106 للشهداء و 792 هـ

راية (علم) المماليك البرجيون التى كانوا يحاربون تحت لواءه وكان اللون الغالب هو اللون الأصفر أضيف اللون الأخضر عند عودتهم للحكم فى القرن الـ 18 عندما ضعف الحكم العثمانى التركى على مصر

قال المقريزى المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء

الثالث (041 من 761) : " دولة المماليك الجراكسة وهم واللاض والروس أهل مدائن عامرة وجبال ذات أشجار ولهم أغنام وزروع وكلهم في مملكة صاحب مدينة سراي قاعدة خوارزم وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية فن داروه وهادوه كف عنهم وإلا غزاهم وحصرهم وكم مرجة قتلت عساكره منهم خلائق وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقًا إلى الأقطار فأكثر المنصور قلاون من شرائهم وجعلهم وطائفة اللاض جميعًا في أبراج القلعة وسماهم البرجية فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وعمل منهم أو شاقية وجمقدارية وجاشنكيرية وسلاحدارية وأولهم:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص:

أُخِذَ من بلا الجركس وبيع ببلاد القرم فجبله خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكي واعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب فيُعرف ببرقوق العثماني.

جدول للسلاطين المماليك /الملوك من المماليك البرجيون الذين حكموا مصر

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
1/191 م.ج	السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية	1382 1399	
2/192 م.ج	الناصر فرج بن برقوق	1399 1405	هرب
3/193 م.ج	المنصور عبد العزيز بن برقوق	1405 1405	
3/194 م.ج	الناصر فرج بن برقوق / مرة ثانية	1405 1412 1412	
4/195 م.ج	المستعين باللّه أبو الفضل العباسي	1412 1412	كان الخليفة العباسى يحاول الحصول على السلطة بعد مقتل السلطان فرج فإتفق الأمراء فيما بينهم على اختيار الخليفة العباسى المستعين باللّه

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
			أبو الفضل سلطانا على مصر بالإضافة إلى منصب الخلافة وتم عزله
5/196 م.ج	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	1412 1421 1412	
6/197 م.ج	المظفر أحمد بن الشيخ	1421 1421	تحت وصاية الأمير ططر
7/198 م.ج	الظاهر سيف الدين ططر	1421 1421	
8/199 م.ج	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	1421 1422	تحت وصاية الأمير برسباي
9/200 م.ج	الأشرف سيف الدين برسباي	1422 1438	
10/201 م.ج	العزيز جمال الدين يوسف بن بريباي	1438 1438	تحت وصاية الأمير حقمق
11/202 م.ج	الظاهر سيف الدين حقمق	1438 1453	
12/203 م.ج	المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	1453 1453	خلع بعد شهر

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
13/204 م.ج	الأشرف سيف الدين إينال العلائي	1453 1460	
14/205 م.ج	المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	1460 1460	أربعة شهور
15/206 م.ج	الظاهر سيف الدين خشقدم	1460 1467	
16/207 م.ج	الظاهر سيف الدين بلباي المؤيدي	1467 1468	
17/208 م.ج	الظاهر تمر بغا الرومي	1468 1468	عزل بعد شهرين
18/209 م.ج	الأشرف سيف الدين قايتباي	1468 1496	تنازل عن لابنه محمد وتوفى فى اليوم التالى
19/210 م.ج	الناصر محمد بن قايتباي	1496 1497	
20/211 م.ج	الظاهر قانصوه	1497 1497	ثلاث أيام
21/212م.ج	الناصر محمد بن قايتباي	1497 1498	مرة ثانية
22/213 م.ج	الظاهر قانصوه الأشرفي	1498 1500	
23/214 م.ج	الأشرف جنبلاط	1500 1501	
24/215 م.ج	العادل طومان باي	1501 1501	مائة يوم

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
25/216 م.ج	الأشرف قانصوه الغوري	1516 1501 1516	هزيمة مرج دابق أمام الأتراك
25/217 م.ج	العادل طومان باي 1516 1517		أستعمار الأتراك العثمانيين السنيين المسلمين مصر

اول برسباي عقد معاهدة مع "جانوس" ملك قبرص لوقف هذه الاعتداءات ولما فشلت محاولات الصلح شن ثلاث حملات عسكرية في ثلاث سنوات متتالية –حجم الحملتين الأولى و الثانية يشعر بأنهما كانتا بهدف التعرف على العدو وعلى الأرض – و استطاعت الحملة الثالثة فتح الجزيرة و أسر ملكها

2- سلاطين المماليك البرجية الذين حكموا مصر

25

783هـ/1382م

الظاهر سيف الدين برقوق (برجي).

26

791هـ/1389م

حاجي الثاني، للمرة الأولى.

27

784هـ/1382م

الظاهر سيف الدين برقوق، للمرة الأولى.

28
791هـ/1389م
حاجي الثاني، للمرة الثانية (بحري).
29
792هـ/1390م
الظاهر سيف الدين برقوق، للمرة الثانية
30
801هـ/1399م
الناصر ناصر الدين فرج، للمرة الأولى.
31
808هـ/1405م
المنصور عز الدين عبد العزيز
32
808هـ/1405م
الناصر ناصر الدين فرج، للمرة الثانية
33
815هـ/1412م
العادل المستعين (الخليفة العباسي، الذي نصب سلطانا
34
815هـ/1412م
المؤيد سيف الدين شيخ.
35
824هـ/1421م
المظفر أحمد.
36
824هـ/1421م
الظاهر سيف الدين ططار.

37

824هـ/1421م

الصالح ناصر الدين محمد.

38

825هـ/1422م

الأشرف سيف الدين برسباي.

39

841هـ/1437م

العزيز جمال الدين يوسف.

40

842هـ/1438م

الظاهر سيف الدين جقمق.

41

857هـ/1453م

المنصور فخر الدين عثمان.

42

857هـ/1453م

الأشرف سيف الدين إينال.

43

865هـ/1461م

المؤيد شهاب الدين أحمد

44

865هـ/1461م

الظاهر سيف الدين خوش قدم.

45

872هـ/1467م

الظاهر سيف الدين بلباي.

46

872هـ/1468م

الظاهر تيموربوغا.

47

872هـ/1468م

الأشرف سيف الدين قايتباي.

48

901هـ/1496م

الناصر محمد.

49

903هـ/1498م

الظاهر قانصوه.

50

905هـ/1500م

الأشرف جانبلات.

51

906هـ/1501م

العادل سيف الدين تومان باي.

52

906هـ/1501م

الأشرف قنصوه الغوري.

53

922هـ/1516م

الأشرف طومان باي

خصائص عصر المماليك

أنقسم عصر حكم المماليك مصر إلى قسمين رئيسين كما أوضحنا سابقاً : المماليك البحرية والمماليك البرجية , بمعنى المماليك الذين يسكنون

القلعة ذات الأبراج - والمماليك البحرية وهم الذين يسكنون قلعة بجانب بحر النيل وقد كان المماليك عموما هم من المخطوفين بواسطة العصابات الموجودة فى أوربا أو الأسرى من الأطفال الأوربيين , وقد تربوا تربية أسلامية وكان ولائهم لبنى جنسهم فقط وكان لا يهمهم أهل البلاد المسلمين او المسيحيين ولكن تربيتهم أفسلامية جعلتهم يميلون إلى الإسلام الحرب والزود عنه , وكانت أحداث هذا العصر التاريخية مليئة بالعجب والغرابة فقد جمع المتناقضات وبالرغم من عدم إنتمائهم إلى مصر إلا أنهم إستطاعوا هزيمة الصليبيين والمغول ربما هذا راجع إلى أصلهم الأوربى كما أمتد سلطانهم من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلى الحجاز , وحاول الملوك مهادنتهم وخطب ودهم حتى الأوربيين منهم.

وقد رصد المماليك الأوقاف على وجوه القبر والإحسان أما العلوم والفنون فقد نالت فى عصرهم حظاً وافراً من التشجيع , وظهرت هذه الفنون فى جوامعهم التى ما تزال شاهدة على الذوق الرفيع الذى تميز به عصرهم.

وكانت هناك مشاتل تباع فيها الأشجار والرياحين والزهور داخل أصص فخارية يشتريها الناس ويزرعونها ويزرعونها فى حدائقهم الخاصة أو على اسطح المنازل.

أما التنافص (السجاجيد) فكانت تحفاً رائعة تسحر العيون... ولا تزال هذه الطنافس واضحة فى صور الفنانين الأوربيين إذ رسموها فوق العروش أو منشورة من النوافذ والشرفات أو مبسوطة فوق الموائد والمذابح الكنسية.

إلا أنه حكمهم تميز أيضاً بالدموية فقد كانوا ينقلبون على بعضهم البعض طمعاً فى الحكم , فكثير منهم مات مقتولاً بيد مملوك آخر وعانى المصريين ألوانا من العسف والجـــور والظلم فقد تعالى عليهم المماليك وأحتقروهم وأذلوهم فعاملوهم معاملة العبيد وفرضوا عليهم الضرائب الفادحة , أما الأقباط بالإضافة إلى ما أصاب المسلمين منهم فقد تحملوا

الإضطهاد والسجون والضرب فى الشوارع وهدم الكنائس من عامة المسلمين ومضايقات اخرى من المماليك أنفسهم ولم يكن لأى قبطى حرمة حتى البابا نفسه لم يكن فى مأمن من اذاهم , فبطشوا بالأشخاص وخربوا كل ما أمتدت إليه أياديهم من كنائس وأديرة (1)

أسباب سقوط الحكم المملوكى على مصر

ذكر دكتور عبد الحليم عويس فى دراستة عن اسباب سقوط المماليك (1) فقال : " كانوا دائما أهل طعان ونزال .. كانوا أشقاء للسيف والرمح، هو هويتهم وهو مؤهلهم للحياة والبقاء .. وعلى امتداد تاريخهم كان السيف مقرونا بهم . وكانوا عضد الدولة الإسلامية في كثير من المواقف، وكانوا حماتها من أعدائها .

وفي مقابل ذلك عاشوا .. وتحملتهم شعوب مصر والشام، وسمحت لهم بالسيطرة عليها .. وهم بدورهم كانوا جيشها وأسطولها وحماتها أمام كل غزو خارجي، وكانوا يخضعون لتقاليد البلاد ولا يعرفون لهم ولاء إلا للدين الذي عاشوا به وربوا على تعاليمه، وإلا للسلطان الذي يحكم ...

ثم مع تطورهم الداخلي أصبح ولاؤهم للسلطان الذي يحكمهم منهم..

ولقد شكلوا مجتمعا ذا هوية خاصة، له أسلوبه الخاص في الحياة، وله تربيته الخاصة وله فكره الخاص .. لقد كان مجتمعهم أشبه ما يكون بالمجتمع العسكري أو المجتمع البحري الذي يعيش للبحر أو الجندية، فالجندية عقله وهي عاطفته .. ولا ولاء عنده لسواها .

وعندما مات فجأة آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح أيوب .. تكتمت زوجه شجرة الدر الخبر لأن بلاد مصر كانت في حرب مع لويس التاسع الذي هزم وأبيد جيشه في دمياط والمنصورة، ثم استدعت الزوجة الملكة ابن زوجها " توران شاه " لينقذ البلاد، فلما جاء توران وأنقذ البلاد من الصليبيين، وحاول أن يستأثر بالسلطة دبرت المرأة قتله .. ثم أقامت نفسها بمساعدة المماليك ملكة على مصر، وقد اختار المماليك كبيرهم عز

الدين أيبك ليقوم بمساعدة " المملوكة " التي صارت " ملكة " (شجرة الدر) في إدارة شؤون مصر، وتطور الأمر فتزوجت شجرة الدر من مساعدها عز الدين، وتنازلت له عن السلطة .

وهكذا تم تنازل آخر من ينتسبون إلى دولة الأيوبيين بنسب إلى كبير المماليك، ومع أن شجرة الدر تعتبر البداية التاريخية لدولة المماليك، لكن البداية الأكثر عمقا وأحقية هي التي مثلها هذا التنازل، ثم استأثر عز الدين أيبك بالسلطة سبع سنوات أحست فيها المملوكة القاتلة بأنها سلبت كل سلطة، فقامت بقتل زوجها الجديد مثلما قتل من قبل ابن زوجها القديم .

لكن المماليك سرعان ما قتلوها ثأرا وانتقاما .. واستقر الأمر لدولة المماليك في مصر والشام .

والمماليك قسمان : برجية نسبة إلى أبراج القلعة التي كانوا يسكنون فيها بالقاهرة .. وبحرية نسبة إلى جزيرة الروضة المطلة على النيل التي كانوا يسكنون فيها كذلك، ومن أشهر المماليك الأول برقوق .. وآخرهم قانصوه الغوري الذي سقط تحت سنابك خيل السلطان سليم سنة 1527م ..

ومن أشهر المماليك البحرية عز الدين أيبك وبيبرس والمنصور قلاوون .. وقد انتهى هؤلاء من قبل المماليك البرجية بحوالي قرنين وكان المماليك البرجية ــ أبطال عين جالوت ــ يمثلون امتدادهم التاريخي .

لقد لعب المماليك البرجية بخاصة في تاريخنا دورا لم تقم به إلا دول قليلة في التاريخ .. لقد صدوا غارتين حضارتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخنا وتاريخ الإنسانية .

كانت الأولى يمثلها زحف هولاكو الذي ينتمون إليه جنسيا، لقد صدوه بعقيدتهم الإسلامية التي لم يعد لهم ولاء إلا لها (الحمد لله أن نظرية القومية العنصرية لم تكن ظهرت بعد) وقد وقفوا أروع وقفاتهم في صده في عين جالوت الشهيرة رافعين راية واإسلاماه !!

ثم كانت الثانية في معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذين كانت لهم بقايا بعد صلاح الدين، فعلى يد السلطانين المنصور قلاوون الذين تسلم الحكم سنة 678 هـ والسلطان الأشرف خليل ـ الذي تولى الحكم سنة 689 هـ .. على يد هذين السلطانين ـ فضلا عن جهود بيبرس ـ تهاوت قلاع الصليبيين الباقية والتي كانوا قد تقدموا في بعضها بعد صلاح الدين كحصن المرقب وعكا وغيرهما، وطويت على يد المماليك آخر صفحات الغزو الصليبي الذي استمر قرنين من الزمان وكان ذلك سنة 960 هـ .

وقد تضافرت ظروف عالمية، كاكتشاف رأس الرجاء الصالح ـ وظروف إسلامية كبروز الأتراك ـ ثم محمد علي، وظروف داخلية كانقسام الأتراك على أنفسهم .

تضافرت كل هذه الظروف على إنهاء الدور الذي قام به المماليك، لكن كان أكبر سبب هوى بالمماليك وزحزحهم من مكانهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها .

نسو رسالتهم في الدفاع الخارجي .. نسوا السيف، وتبلدوا عند أسلوب معين، ولم يطوروا أنفسهم، ثم تطوروا فانقلبوا من حماية خارجية للأمة إلى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها .

وبذا فقدوا دورهم في التاريخ .. وسقطوا بعد أن أدوا للحضارة الإسلامية الكثير .. وأنقذوها من أكبر خطرين عالميين وهما التتار والصليبيون .. "

أهم المراجع والمصادر

1 ـ تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الإعلامي بيروت.

2 ـ تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، محمد أحمد النظر، دار البداية، عمان الأردن، الطبعة الأولى 2006م ـ1426هـ.

3 ـ تاريخ المغول والمماليك، د.أحمد عودات، جميل بيضون، شحادة الناطور،دار الكندي،إربد، 1990.

4 ـ قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.

5 ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، لأبي شامة عبد الرحمن اسماعيل، تحقيق د.حلمي أحمد القاهرة سنة 1956م.

6 ـ الفخري في الآدب السلطانية، لابن طباطبا، محمد بن علي، القاهرة سنة 1326 هـ بيروت دار صادر، 1389 هـ/ 1966م.

7 ـ المواعظ والاعتبار للمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ط القاهرة 1270.

8 ـ تاريخ ايران بعد الإسلام، عباس إقبال، نقله إلى العربية د.محمد علاء منصور، نشر دار الثقافة العربية 1415 هـ 1994م.

9 ـ دولة آل سلجوق للأصفهاني، للبنداري، القاهرة طبعة قديمة 1900م.

10 ـ جنكيز خان قاهر العالم غروسية نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، دمشق 1982م.

11 ـ صبح الأعش في صناعة الإنشا للقلقشندي.

12 ـ أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال لاهور.

13ـ الملك الصالح وانجازاته السياسية والعسكرية، فاطمة زبار الحمداني، كلية الآداب، جامعة بغداد رسالة ما جستير عام 1995م.

14 ـ في التاريخ الأيوبي والمملوكي د.أحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكنرية.
15 ـ الأيوبيون بعد صلاح الدين أو الحملات الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، على محمد الصلابي.
16 ـ قصة التتار من البداية إلى عين جالوت د.راغب السرجاني مؤسسة اقرأ، الطبعة الأولى 1427هـ ـ 2006م.
17 ـ أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د.إبراهيم علي شعوط، المكتب الاسلامي، الطبعة السادسة 1408 هـ 1988م.
18 ـ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية د.سيد نوح.
19 ـ مصر في عهد بناة القاهرة، ابراهيم شعوط.
20 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت طبعة 14 يناير 2000م.
21 ـ دولة المماليك سمير فراج، مركز الراية للنشر والإعلام.
22 ـ السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.
23 ـ صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام سليم عيد الهلالي، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى 1410 هـ 1990م.
24 ـ العز بن عبد السلام للزحيلي، دار القلم دمشق الطبعة الأولى 1412 هـ ـ 1992م.
25 ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة، محمد محمد حسن شُراب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1415 هـ ـ 1994م.
26 ـ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، محمد سهيل طقوش، دار النفائس الطبعة الولى 1420هـ/ 1999م.
27 ـ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، دار النهضة الطبعة

الثانية 1999م.
28 ــ الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيين د.السيد الباز العريني، دار النهضة العربية.
29 ــ السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة 1971م دار الكتب القاهرة 1972م.
30 ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة لتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
31 ــ نهاية الأرب في فنون الأدب أحمد عبد الوهاب النويري الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1395هـ.
32 ــ الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي، والأيوبي نجوى كمال كيرة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر الولى 2007م.
33 ــ كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله الدوادراي تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة 1961م.
34 ــ مذكرات جوانفيل، جان جوانفيل، ترجمة د.حسن حبشي، دار المعارف، مصر 1968م.
35 ــ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب د.محمد مؤنس عوض، الطبعة الأولى 2000/1999م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.
36 ــ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد إبراهيم الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة سنة 1996م،1415هـ.
37 ــ في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده قاسم طبعة 2007م مزيدة ومنقحة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.
38 ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور إبن أبي أياس أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الطبعة الأولى 1975م.

39 ــ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي القاهرة الطبعة 1958م.
40 ــ الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري د. عرب دعكور، دار المواسم طبعة سنة 2006م بيروت لبنان.
41 ــ في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى 1406هـ/1995م.
42 ــ أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، الطبعة الثالثة، 1419هـ ــ 1999م.
43 ــ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس د. ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 1405هـ/1985م، جدة.
44 ــ الجبهة الإسلامية لمواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر د. ماجد غنيم أبو سعيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى 1428هـ/2007م.
45 ــ السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.
46 ــ الدولة الأموية عوامل الإزدهار، وتداعيات الإنهيار د. على محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 1426هـ/2005م.
47 ــ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.
48 ــ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة 1417هـ/1996م.
49 ــ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.
50 ــ تفسير الألوسي روح المعالي في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة بالهند، بدو ذكر سنة الطبع.
51 ــ في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل.

52 ـ نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

53 ـ صحيح البخاري، عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري أعني به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض 1419هـ/1998م.

54 ـ الضعف المعنوي، وأثره في سقوط الأمم، د. حمد بن صالح السحيباني، كتاب المنتدى، الطبعة الأولى 1423هـ/2002م.

55 ـ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى 1423هـ/2002م.

56 ـ تاريخ مصر الإسلامية، زمن سلاطين بني أيوب د. أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي القاهرة، 2002م.

57 ـ صلاح الدين الأيوبي للصَّلاَّبي، دار المعرفة، الطبعة الأولى 1429هـ/2008م.

58 ـ السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري د. عصام محمد شباور، دار النهضة العربية طبعة 1994م.

59 ـ شجرة الدُر قاهرة الملوك، نور الدين خليل دار الكتب المصرية.

60 ـ موسوعة تاريخ مصر، لأحمد حسين.

61 ـ شجرة الدُر، د. يحي الشامي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2004م.

62 ـ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، إعداد حافظ محمد أنور، دار بلنسية، السعودية.

63 ـ تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعلى المودودي.

64 ـ جامع البيان، للطبري، محمد بن جرير الطبري، المكتبةالتجارية، مكة المكرمة 1408هـ.

65 ــ قيام دولة المماليك الأولى للعبادي، أحمد مختار العبادي طبعة 2002م، مؤسسة شباب الجامعة.
66 ــ العدوان الصليبي على بلاد الشام، د. جوزيف نسيم دار النهضة عام 1981م بيروت.
67 ــ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، د. منذر الحايك، الطبعة الأولى 2006م الأوائل دمشق سوريا.
68 ــ معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، د. يوسف حسن غوانمة، الطبعة الأولى 1415هـ/1995م، دار الفكر.
69 ــ تاريخ القبائل العربية، محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة.
70 ــ تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم.
71 ــ سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1990م بيروت، لبنان.
72 ــ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدر العلائي الملقب بأبي دقماق، دراسة وتحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية لبنان.
73 ــ التحفة الملوكية في الدولة التركية بيبرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.
74 ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.
75 ــ المغول د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1406هـ/1986م.
76 ــ سقوط الدولة العباسية د. سعد الغامدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م.
77 ــ العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي مكتبة صلاح الدين، مكتبة الفلاح الكويت، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م.

78 ـ الحياة السياسية في العراق، د. محمد صالح القزاز، مطبعة القضاء في النجف 1970م.
79 ـ المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.
80 ـ البدايةوالنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر طبعة أولى.
81 ـ الدعوة إلى الإسلام، أرنولد.
82 ـ المغول والأوربيون والصليبيون، محمود عمران دار المعرفة الجامعية قناة السويس مصر طبعة 2005م.
83 ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق:
عزت عبيد الدعاس، حمص الناشر:
محمد السيد.
84 ـ فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي.
85 ـ تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
86 ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي.
87 ـ مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري.
88 ـ الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ/1988م.
89 ـ جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله، دار النفائس.
90 ـ حروب المغول، د. أحمد حطيط، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى 1994م.
91 ـ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، د. عبد الجبار ناجي، صلاح عبد الهادي، د. إسماعيل النعيمي، د.مهين مجيد، مركز

أسكندرية للكتاب طبعة 2003م.
92 ــ تاريخ المغول عباس إقبال.
93 ــ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج 7 العدد الرابع في 137 مادة جنكيز خان المغول صــ343.
94 ــ العرب والتتار، إبراهيم أحمد العدوي، المكتبة الثقافية، القاهرة 1963م.
95 ــ تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي ترجمة إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواري القاهرة 1373هـ/1954م.
96 ــ تاريخ العراق بين إحتلالين، عباس العزاوي بغداد 1353هـ/1935م.
97 ــ قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته النبراوي، محمد نصر مهنا، منشأة المعارف الأسكندرية، الطبعة 1983م.
98 ــ الدولة الخوارزمية د. نافع العبود.
99 ــ معجم البلدات، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1979م.
100 ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد سالم بن واصل.
101 ــ الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي دار الفكر العربي.
102 ــ الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر طبعة 1419هـ/2000م.
103 ــ دولة السلاجقة، حسنين عبد المنعم مكتبة الأنجلو 1975م.
104 ــ السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، دار السلاسل، الكويت، الطبعة 1406هـ/1986م.
105 ــ العبر في أخبار من غبر للذهبي.
106 ــ الكامل في التاريخ لابن الأثير، بيروت، دار الكتاب العربي، دار

صادر سنة 1979.

107 ــ عودة الروح للخلافة الإسلامية، د.محمد صالح محي الدين، دار طويق، السعودية، الطبعة الأولى 1425هـ/2004م.

108 ــ تاريخ الخلفاء للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الطبعة الثانية سنة 1959م.

109 ــ تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة 1308هـ/1890م.

110 ــ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، محمد أحمد النسوي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر سنة 1953م.

111 ــ كيف دخل التتار بلاد المسلمين، د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، السعودية الطبعة الثانية 1417هـ/1997م.

112 ــ تاريخ بخارى، للنرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، عرّبه عن الفارسية وحققه د. أمين بدوي نصر الله الطرازي دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

113 ــ الإعلام للزركي، خير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة 1389هـ.

114 ــ هارولدلام جنكيز خان، نقله إلى العربية لواء بهاء الدين نوري، باسم:

جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، بغداد سنة 1946م.

115 ــ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد البكري، طبعة مصر 1283هـ.

116 ــ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى حيدر آباد الهند، سنة 1951 ــ 1952م.

117 ــ الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، دار الفكر العربي، القاهرة مصر 1420هـ/1999.

118 ــ جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، دراسة وترجمة الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى 1420هـ/2000.
119 ــ العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، عبد الأمير الرفيعي، الفرات الطبعة الأولى 2000م.
120 ــ رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن ندوي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1999/1420.
121 ــ بنو أمية بين السقوط والإنتحار، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة 1410هـ/1989م.
122 ــ الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. سعد حذيفة الغامدي، مركز دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
123 ــ تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، حتى قيام الدولة التيمورية، عباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب عاشوب، المجمع الثقافي أبو طيب 1420هـ.
124 ــ الحوادث الجامعة لابن الغوطي.
125 ــ جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، د. عبد الله سعيد محمد سافر الغامدي، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه.
126 ــ تاريخ مصر لابن ميسر.
127 ــ دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت لبنان.
128 ــ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي محمد ماهر حمادة، بيروت 1399هـ/1979م.
129 ــ دول الإسلام للذهبي، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1999.
130 ــ المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، بيروت بدون تاريخ طبع.
131 ــ تاريخ ابن خلدون المسمى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في

تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ط 1391هـ/1971م.

132 ـ مجالس المؤمنين للششتري، نور الله بن شريف، طهران 1299هـ.

133 ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت لبنان.

134 ـ بغداد مدينة السلام وغزو المغول، سلمان التكريتي، مكتبة الشرف الجديد، بغداد 1988م.

135 ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي، على محمد الصَّلاَّبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى 1428هـ/2007.

136 ـ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة دكتواره معهد التاريخ العربي للتراث العلمي في الدراسات العليا.

137 ـ الدولة العباسية للخضري، محمد الخضري بك، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت لبنان 1989م.

138 ـ ذيل مرآة الزمان لليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكة.

139 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت ط 11، 1402هـ.

140 ـ مجلة لواء الإسلام العدد الخامس، أبو زهرة.

141 ـ الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، محمد موسى الشريف دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م.

142 ـ أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، رؤية تصحيحية، يحي محمود بن جنيد، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى

2005م/1426هـ.
143 ـ طبقات الشافعية للسبكي، عبد الوهاب علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح الحلول وزميله، دار إحياء الكتب العربية القاهرة.
144 ـ فتاوي ابن تيمية، جمع عبد الرحمن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.
145 ـ منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
146 ـ الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين آيبك الصفدي، تحقيق:
هملوت ريتر ـ طبع:
دار النشر فرانز ستانير ((ألمانيا)) 1381هـ/1962م.
147.الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى اللغة د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.
148 ـ النظم الإسلامية، حسن إبراهيم حسن.
149 ـ نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، عبد العظيم الديب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1418هـ.
150 ـ أصداء الغزو المغولي مأمون جرّار، مكتبة الأقصى الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.
151 ـ الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، على محمد الصَّلاَّبي، دار الإيمان الأسكندرية، الطبعة الأولى 2003م.
152 ـ الإغداق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية 1953م.
153 ـ عقيدة الجمان في تاريخ أهل الزمان، البدر محمود بن أحمد بن موسى، تحقيق محمد أمين وزارة الثقافة القاهرة 1992م.
154 ـ أخبار الأيوبيين لابن العميد، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد ـ بلا.
155 ـ المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين، د.عبد الحليم عويس، دار العبيكان، الطبعة الأولى 1427هـ /2006م.

156 ـ دراسات تاريخية عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1426هـ /2005م، دمشق، بيروت.
157 ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.
158 ـ نيل الأوطان، للإمام الشوكاني.
159 ـ الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض 1396هـ /1976م.
160 ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1422هـ /2001م.
161 ـ الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
162 ـ مصر والشام في عصر الايوبيين، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، لبنان.
163 ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج 9، بيبرس الدوادار تحقيق زبيدة عطا.
164 ـ معركة عين جالوت، دراسة في الجيش المملوكي والمغولي، محمد ضاهر وتر، الطبعة الأولى 1409هـ /1989م.
165 ـ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، د.عبد العزيز ابراهيم العمري، مركز الدراسات والإعلام، درا اشبيليا، الطبعة الأولى 1418هـ /1997م.
166 ـ من أجل فلسطين، حسني ادهم جرار، مؤسسة الزيتونة للنشر، الطبعة الأولى 1419هـ /1998م الأردن، عمان.
167 ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثانية 1978م.
168 ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الحلبي، المطبعة

العلمية الأولى 1342هـ /1924م.
169 ـ تاريخ ابن الوردي، نعمة المختصر في أخبار البشر، زين الدين عمر بن الوردي، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1389هـ /1970م.
170 ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ماجد عبد المنعم، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة 1963م.
171 ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى 1374هـ /1955م.
172 ـ تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى.
173 ـ سنن سعيد بن منصور.
174 ـ تاريخ مصر، اسكندر عمون، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر، الطبعة السادسة 1342هـ /1923م.
175 ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور محي الدين عبد الظاهر، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة 1961م.
176 ـ صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية 1412هـ /1991م المملكة العربية السعودية.
177 ـ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان.
178 ـ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ابراهيم النعمة، طبعة 1425هـ /2004م، مطبعة الزهراء الحديثة.
179 ـ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في عهد العصر المملوكي، د.فايد حمّا محمد عاشور، جرّوس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى 1995م /1415هـ.
180 ـ الطريق إلى بيت المقدس، د.جمال عبد الهادي محمد، د.وفاء محمد رفعت، الطبعة الثانية 1422هـ /2001م، دار التوزيع والنشر

الإسلامية، مصر القاهرة.
181 ـ نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، د.ابراهيم أحمد العدوي، دار الفكر العربي، القاهرة.
182 ـ ماهية الحروب الصليبية د.قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية 1993م.
183 ـ الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي، فؤاد ابراهيم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1998م.
184 ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د.عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1419هـ /1998م
185 ـ تاريخ الدولة المغولية في إيران، فهمي عبد السلام عبد العزيز، القاهرة 1981م.
186 ـ تاريخ فاتح العالم، عطا ملك الجويني، نقله عن الفارسية محمد التونجي، دمشق 1985م.
187 ـ الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى 1990 ـ 1991م، المكتب الجامعي الحديث.
188 ـ العراق سياقات الوحدة والانقسام، بشير نافع، دار الشروق، الطبعة الأولى 1427هـ /2006م.
189 ـ أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، د.ناصر القفاري، دار الرضا الجيزة مصر، الطبعة الثالثة 1418هـ /1998م.
190 ـ جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك لابن إياس، تحقيق د.محمد زينهم، الدار الثقافية الطبعة الأولى 1426هـ 2006م.
191 ـ عصر الدولة الزنكية، علي محمد الصلاّبي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى 1428هـ /2007م.
192 ـ خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، تأليف السيد حسن شبّر، دار الملاك، الطبعة الأولى 1421هـ /2001م.

193 ــ دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك د.نعمان محمود جبران، د.محمدحسن العمادي، الطبعة الأولى 2000م.
194 ــ الظاهر بيبرس، بيتر توراو، ترجمة محمد جديد.
195 ــ الطريق إلى القدس د.محسن محمد صالح مركز الإعلام العربي، القاهرة الطبعة الأولى 1424هـ /2003م.
196 ــ مصر في العصور الوسطى، محمود محمد الحويري، الطبعة الثانية 2002م، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات سنة 2002م.
197 ــ التتار والمغول د.محمود السيد مؤسسة شباب الجامعة طبعة 2004م.
198 ــ موسوعة تاريخ العرب، عصر المماليك والعثمانيون، عبد المنعم الهاشمي، دار البحار بيروت 2006م.
199 ــ إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، بالتطبيق على قناة الجزيزة، دار العرفة، بيروت، الطبعة الأولى 1429هـ /2008م. الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني.
200 ــ المظفر قطز، ومعركة عين جالوت، بسام العسلي، دار النفائس، الطبعة السادسة 1408هـ /1988م.
201 ــ دراسات في تاريخ مصر في العصرين الايوبي والمملوكي، سحر السيد عبد العزيز سالم الطبعة 2005م، مؤسسة شباب الجامعة.
202 ــ مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك د.سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.
203 ــ تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، دار الشروق الطبعة الأولى 1425هـ /2005م.
204 ــ أبطال ومواقف، أحمد فرح عقيلان دار المعراج الدولية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية 1418هـ /1997م.
205 ــ عين جالوت، فتحي شهاب الدين دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى

1418هـ /1998م.
206 ـ الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية، أنور الجندي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1418هـ /1998م.
207 ـ ديوان ابن الوردي زين الدين عمر الوردي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى 1427هـ /2006م مدينة نصر القاهرة.

فهرس الكتاب

دولة المماليك البداية والنهاية

رقم الإيداع / 9271

الترقيم الدولى
978-977-733-008-4